الجمهورية اللبنانية
المركز التربوي للبحوث والانماء

تطوّر الفكر التربوي

تأليف
الدكتور فريد جبرائيل نجّار
مؤسّس كليّة التربية وعميدها الاول

المجلّد الأول

جميع حقوق التأليف محفوظة
للمركز التربوي للبحوث والانماء

طبعة اولى / بيروت ١٩٨٠

طبع على مطابع الكريم الحديثة - جونيه

مقدّمة

انطلاقاً من مبدأ التفاعل الوظيفي بين البحوث والانماء ، وتمشياً مع الدور الموكول اليه في مجال البحث والتخطيط على صعيد التربية في لبنان ، يقدّم المركز التربوي للبحوث والانماء هذه الدراسة العلمية من خلال المجلد الاول من « تطور الفكر التربوي » الذي سيتبعه ثلاثة مجلدات اخرى تحت العنوان ذاته.

والمجلد هذا يُغطي الحقبة التاريخية الممتدة من القبائل البدائية حتى القرون الوسطى ، بينما يتناول المجلد الثاني الفترة الممتدة من القرون الوسطى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، كما يشمل المجلدان الثالث والرابع المرحلة الممتدة من الحرب العالمية الثانية حتى العصر الحاضر ، حيث يتركز البحث في المجلد الثالث على تطور التربية في العالم الغربي بالمقابل مع مضمون المجلد الرابع الذي يتناول تطور التربية في العالم العربي .

وهكذا تتواصل خيوط الجهد البشري عبر السنين ، في اجمل عرض مبوّب ومنظّم ، وفي سياق فكري متلاحق ، يسمح على إجراء مقارنات صحيحة ، واصدار احكام وثيقة . ولم يكن ذلك متوافراً لو لم تتأمن بعض المقومات الاساسية ؛ خاصة لجهة وحدة الاسلوب وثبات المعايير . فالفكر التربوي في كل حقبة وعند كل شعب هو عبارة عن « اهداف » و « تنظيم » و « طرائق » و « وسائل » و « أساليب » و « ممارسات » ... وفي هذا السياق تمت المعالجة ، في إطار منهجية جمعت الى جانب الدقة العلمية الاسلوب القصصي المشوق .

ان عملاً كهذا ، لم يأت حصيلة يوم او شهر او سنة . بل جاء نتيجة جهد متواصل امتد على نصف قرن من العمل الدؤوب المتواصل في مجال التربية والتعليم . ويكفي صاحبه الدكتور فريد جبرائيل نجار بأنه مؤسس كلية التربية وعميدها الاول ، بالاضافة الى خبرته التربوية الواسعة في حقلَي التعليم والتأليف التي تمتد الى نصف قرن كأستاذ للتربية في الجامعتين الاميركية واللبنانية وكمؤلف لقاموس التربية وعلم النفس التربوي .

والمركز التربوي ، بتبنّيه مثل هذا العمل ، يكون قد وضع مسيرة البحث التربوي في مسارها الصحيح ؛ وذلك انطلاقاً من ان العمل الفردي او المحدود على الصعيد التربوي مهما كان وثيقاً، او بارعاً، لا يمكنه ان يحيط بجميع ابعاد المشكلة التربوية . كما وأن الخبرة الذاتية ،مهما كانت شاملة، تبقى عاجزة عن ادراك كامل طاقاتها واستعداداتها في بعدَيها الكمي والنوعي .

من هذه الزاوية بالذات ، يعي المركز جيداً الاهمية الكامنة في معالجة المواقف الفرعية ، او الجزئية ، في إطار من الشمولية الواضحة . لذلك ، فقد جاء هذا العمل ليوسّع في دائرة الاحاطة بالموضوع ، وليقدم عرضاً منوعاً من الخبرات البشرية ، تصلح في مجال تركيز الخيارات التربوية ، ومعالجة المشكلات التابعة لها ، من اجل التوصل الى الحلول المناسبة .

هذا بالاضافة الى الثغرة الكبيرة التي يسدّها في مجال البحث التربوي ذي الصبغة العالمية . وهكذا سيجد فيه العديدون : من اداريين وسياسيين وتربويين الكثير من العناصر والنواحي التي لها صلة مباشرة بمجالات اعمالهم ، والتي يمكن ان تؤدي بالتالي الى تطوير ممارساتهم اليومية وتحسينها .

وأخيراً ، لا بد من التأكيد على ان هذه المحاولة ليست الا حلقة في سلسلة ستكتمل تباعاً لتجد مكانها في المكتبة التربوية حيث تسهم مع غيرها في إغناء البحث التربوي وتعزيزه . كل ذلك من أجل خلق مستقبل أفضل وبناء وطن أجمل .

جورج ج. المر

رئيس المركز التربوي للبحوث والانماء

بالوكالة

بيروت، تموز ١٩٨٠

توطئة

يصدر هذا الكتاب ، « تطور الفكر التربوي » ، في اربعة مجلدات . وهو يتناول دراسة تاريخ الفكر التربوي وتطوره في العالم منذ نشأة القبائل الاولى حتى عصرنا الحاضر .

اما المجلد الاول ، الذي نحن بصدده ، فيدرس الحقبة التي تمتد من القبائل البدائية الاولى حتى نهاية القرون الوسطى ، ويبحث في اهداف التربية ومناهجها وطرائقها وتنظيمها ومؤسساتها على اختلاف انواعها عند الامم التي عاشت في هذه الحقبة .

على ان الكتابة في هذا الموضوع شيقة وشاقة في آن واحد : شيقة لأنها تطلعنا على المراحل المختلفة التي مرت بها التربية عبر العصور ، كما وانها تضعنا في الجو الذي مارست فيه هذه الامم اساليبها التربوية ، وتكشف لنا أوجه الشبه بين ممارساة القدامى لشؤون التربية وما اكتشفه واضافه المتوسطون والمحدثون في هذا المجال .

كل هذا شيِّق حقاً ، وجميل حقاً ، على ان العمـــل شاق والبحث مضنٍ لأنه يقتضي من الباحث بذل الجهود الكثيرة في البحث عن المصادر والمراجع التي لا تتوافر دائماً . يظهر هذا النقص في المراجع التربوية الموثوقة عن الفينيقيين ، وهم الذين عُرفوا بابداعهم واكتشافهم الحرف ، وركوبهم متن البحار في اعمالهم التجارية ، وصكهم النقود وغير ذلك من مظاهر العلم والحضارة . رغم كل هذا جاء الكتاب خالياً من كلمة وافية في التربية عند الفينيقيين ، وأملي كبير ان يتاح لمن يجيءُ بعدي سد هذا النقص .

ولا بد هنا من التوجه بالشكر الجزيل الى العلماء والادباء والمربين الكثيرين الذين ساعدوني في إنجاز هذا العمل الشاق وأخصّ منهم :

الدكتور المرحوم جميل صليبا وقد قرأ مسودّة الكتاب وأبدى ملاحظات قيمة يُشكر عليها . كذلك الاستاذ ظافر القاسمي وقد قرأ فصل « التربية عند العرب » وارشدني الى مصادر قيمة .

وكذلك الاديبة الدكتورة ثريا ملحس التي زودتني بلائحة عن المراجع التربوية عند العرب. والدكتور ماجد فخري وقد قرأ فصل « التربية عند اليونان » وأبدى ملاحظات جيدة . والاستاذ موسى سليمان وقد قرأ مجمل الكتاب مبدياً بعض الملاحظات اللغوية . والدكتور جاك بركات وقد بذل جهداً مشكوراً في إخراج الكتاب وتصحيح بعض المسودّات . اما الاستاذ سليم يونس فقد تكرّم بقراءة الكتاب بجميع مسودّاته من أجل ضبط اللغة . ولا بد من كلمة شكر الى تلميذي الدكتور شوقي ابو حيدر الذي تابع عمـــل المطبعة اثنـــاء مرضي فقرأ « البروفا » الاولى لجميع الملازم .

واخيراً يعود الشكر الجزيل الى رئيس المركز التربوي للبحوث والانماء الدكتور جورج المر والى اعضاء مجلس الاخصائيين في المركز الذين وافقوا على نشر الكتاب فاستطاع بفضلهم ان يرى النور .

الدكتور فريد جبرائيل نجار

بيروت ، تموز ١٩٨٠

المحتويات

تطور الفكر التربوي

منذ نشأة القبائل الاولى حتى عصرنا الحاضر

مقدمة ٥

توطئة ٧

تمهيد · عرض عام ١٧

الفائدة من درس تاريخ الفكر التربوي . ١٩

المراجع ٢٤

المجلد الاول

أركان الفكر التربوي في العصور القديمة والقرون الوسطى ٢٥

الفصل الأول : « كيف بدأت التربية » ٢٧

المفهوم البدائي للتربية ٢٧

— ما هو منشأ علم التربية ؟ ٢٧

. متى بدأ الإنسان يفكر في التربية ؟ ٢٧

. كيف بدأ ذلك ؟ ٢٧

. أهداف التربية ٢٩

. أنواع التربية ٣٢
. منهج التربية ٣٣
. وسائل التربية ٣٤
. طرائق التربية ٣٦
. تنظيم التربية ٣٧
— مراجع الفصل الاول ٣٩

الفصل الثاني : « التربية الشرقية » ٤٠
المحافظة على الاستقرار الاجتماعي ٤٠
(الشرق الاقصى والشرق الادنى)
— التربية الصينية ٤٢
— التربية عند الهنود ٤٨
— التربية عند الفرس ٥٢
— التربية عند المصريين القدامى ٥٥
— التربية عند العبرانيين ٦٣
— مراجع الفصل الثاني ٧٠

الفصل الثالث : « مفهوم التربية عند اليونان » ٧٢
نشوء الفردية ٧٢
— التربية الهوميروسية ٧٤
— التربية عند اسبارطة ٧٧
— التربية عند الأثينين القدامى (العهد الأثيني الأول) ٨١
— التربية في العهد الأثيني الأخير ٨٥
— مراجع الفصل الثالث ٩٤

الفصل الرابع	: « مفهوم التربية عند الرومان »	٩٥
	التأكيد على النفعية	٩٥
	— موقف الرومان القدامى من التربية	٩٨
	— موقف الرومان المتأخرين من التربية	١٠٣
	— مراجع الفصل الرابع	١١١
الفصل الخامس	: بداية الحركة الإنسانية	١١٢
	« مفهوم المسيحية للتربية »	١١٢
	— موقف يسوع من التربية	١١٤
	— موقف الكنيسة المسيحية الأولى من التربية	١٢٠
	— مراجع الفصل الخامس	١٢٦
الفصل السادس	: الانضباط الروحي لخلاص النفس	١٢٧
	« مفهوم القرون الوسطى للتربية »	١٢٧
	— موقف الرهبنة او الأديرة من التربية وممارساتها التربوية	١٢٩
	— موقف « الحركة المدرسية » من التربية	١٣٦
	— موقف الفروسية من التربية وممارساتها التربوية	١٤٣
	— موقف نظام النقابات من التربية وممارساتها التربوية	١٤
	— مراجع الفصل السادس	١٥٣
الفصل السابع	: « مفهوم التربية عند العرب »	١٥٤
	او	
	تطبيق المعرفة العلمية	١٥٤
	— نشأة المدارس	١٥٧
	. بيت الحكمة	١٥٩

. الأزهر ١٦٠
. دار العلم ١٦١
. المدرسة النظامية ١٦١
. المدرسة المستنصرية ١٦٢
— انتشار المدارس ١٦٢
— المنهاج ١٦٤
— المنهاج الابتدائي ١٦٤
— المنهاج الحر (الثانوي) ١٦٤
— المنهاج العلمي (العالي) ١٦٥
— الطرائق ١٦٦
— الاملاء ١٦٦
— على المعلم ١٦٧
— الآداب المدرسية ١٦٨
— نظرة العرب إلى التربية ١٧٠
— مراجع الفصل السابع ١٧٩
— المراجع العربية ١٨٠
الفصل الثامن : « مراجعة عامة » ١٨١
— المفاهيم المتبدلة لأهداف التربية ١٨٢
— المفاهيم المتبدلة لنوع التربية ١٨٤
— المفاهيم المتبدلة في منهج التربية ١٨٥
— المفاهيم المتبدلة في وسائل التربية ١٨٧
— المفاهيم المتبدلة في التنظيم ١٨٩
— المفاهيم المتبدلة حول الطريقة ١٩٠
— أضواء على التربية القديمة والتربية في العصور الوسطى ١٩١

اخطاء مطبعية

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
يوان	حيوان	٢٨	الاول
—	الى	٢٨	١٤
ندريب	تدريب	٣٢	٢٩
world	World	٣٩	٥
company	Company	٣٩	٩
Edcyclopedia	Encyclopedia	٣٩	٩
on	an	٤٢	الاسفل
Tomas	Thomas	٤٢	»
واحدق	واحدة	٤٦	٢٤
اولا.	اولا	٤٩	١٩
البراهما	البرهما	٤٩	٤
البراهميون	البرهميون	٤٩	١٢
بالبراهما	بالبرهما	٤٩	٢٣
ريقه	طريقه	٦٢	٦
—	الى	٦٤	٢٤
لكّ	لكنّ	٦٧	١٧
الاو	الاولى	٦٨	٢٧
Edcy	Encyclopedia	٧٠	٨
middls ages	Middle Ages	٧٠	٩
Cyclo	Cyclopedia	٧١	٣
Civilisation	Civilisations	٧٢	الحاشية

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
اكبر	اكثر	٨٢	٤
Bedagogue	Pedagogue	٨٣	١٣
التامنه	الثامنه	٨٤	١٦
	من	٨٥	٢٤
باتهم ، و ــ ن ءء	حياتهم ، ومن عن	٨٥	٢٤
والنجاح الشخص »	« والنجاح الشخصي »	٨٦	١٣
اساتدة	اساتذه	٨٦	٢٤
(٢(طبقه الجنود	و (٢(طبقه الجنود	٨٧	٢٣
الظاهراني	الظاهراتي	٨٧	الحاشية ١٦
(الناء)	(التاء)	٨٧	« ١٦
م	من	٩٣	٤
ا	الى	٩٥	١٤
الفضايا	القضايا	٩٩	١
وفى	وحتى	٩٩	٢٤
السطه	السلطة	١٠١	٩
الطريتة	الطريقه	١٠٣	٤
بالدرجة	بالدرجة	١٠٣	٨
علاهاً	اعلاه	١٠٨	الحاشية
شجب	شجبت	١١٦	٥
الطراثق	الطرائق	١١٨	١٨
الاوى	الاولى	١١٩	١٨
وابلت	واصلت	١٢٣	٤
Elwood	Ellwood	١٢٣	٤
جبديد	جديد	١٣٣	١٦
ويتاف	ويتألف	١٣٣	٢٥
إ	إلى	١٣٤	٧

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
إ	الى	١٣٦	١٣
يختلف	يختلف	١٤	١١
ا ة	حالة	١٤٢	٦
ومما كات	ومماحكات	١٤٢	١٧
هكذ	هكذا	١٤٥	٣
الشه دات	الشهادات	١٥٢	٨
الحمعيه	الجامعيه	١٥٢	٩
الغربية	العربية	١٧٤	٢١
غلى	على	١٧٤	٢٥
اجماعي	اجتماعي	١٨٣	١ ٩

٦١	٢٣١		
	٤١		
٣	٢٥١		
٧١	٢٤١		
٦	٥٤١		
٨	٢٥١		
٩	٢٥١		
١٢	٢٧١		
٥٢	٢٧١		
٩١	٢٨١		

تمهيد

عرض عـــام

نحاول في هذا الكتاب أن نقدم الى القارىء تاريخ تطور الفكر التربوي في العالم منذ العصور البدائية حتى عصرنا الحاضر . فهل من مبرر لعملنا هذا ؟ أو بعبارة أخرى ، لماذا يهتم المربي أو المعلم أو المواطن الواعي أو الأهل المدركون مسؤولياتهم بتطور الفكر التربوي والنظريات التربوية ؟ وما هي الفائدة التي تجنى من درسٍ كهذا سوى ارضاء الفضول الطبيعي في الإنسان ؟ .

ان التربية هي الوسيلة التي تمكّن الإنسان من أن يتحول مما هو عليه إلى ما ينبغي أن يكون . وواضح ان هنالك أنواعاً من التربية بقدر ما هنالك أنواع من سبل العيش . فهنالك التربية الجيدة وهنالك التربية الفاسدة ، كما وان هنالك الحياة الجيدة والحياة الفاسدة . ويتوقف قبول أو رفض أي نوع من التربية ، الى حد بعيد ، على مضاعفاتها الاجتماعية . لأن المجتمع الصحيح لا يتحقق الا بتنشئة النوع الصحيح من الأفراد ، وهؤلاء لا يمكن تنشئتهم تنشئة صحيحة الا بواسطة التربية الصحيحة .

من أكبر المشكلات التي تجابه المربين اليوم هي تقييم أهداف التربية ومناهجها وممارساتها . ولا يستطيع المرء أن يقيّم الأشياء التي يملكها تقييماً صحيحاً ما لم ينظر اليها من منظار تاريخي فيدرك أبعادها النسبية ويراها في أوضاعها وعلاقاتها الواقعية العامة . يجب أن يعرف من أين اتت والى أين ذهبت ، لأن النظار الى المستقبل بشيء من التنبؤ يتوقف على تفهم دقيق للماضي وتفسيره تفسيراً ذكياً واعياً . ولا يستطيع أحد ان يقوم بدور فعال ناجح في تطوير النظام التربوي ما لم يدرك الأمور الآتية .[1]

١ — ان التغيُّر في محيط الإنسان الاقتصادي والاجتماعي والمادي والسياسي قد غيّر فلسفته في الحياة .

٢ — ان التغيرات الحاصلة في فلسفة الإنسان في الحياة قد غيّرت حاجاته التربوية .

٣ — ان التغيرات الحاصلة في حاجات الإنسان التربوية قد غيرت مفاهيمه التربوية .

---

(1) **Elmer, Harrison, Wilds;** The Foundations of Modern Education pp. 3,4. Rinehart & Company Inc. New York, 1950.

٤ ــ ان المفاهيم التربوية المتغيرة قد بدلت مضمون المنهاج وطرائق التعليم ووسائله والممارسات المدرسية بصورة عامة .

ان تتبع تطور التربية كمؤسسة لا يكفينا وحده لدرس التغيرات الحاصلة في الطرائق والممارسات التربوية ، وانما نجني اكبر الفوائد في هذا الصدد ، من درس الفكر التربوي ، أي النظريات والأهداف والمثل العليا التربوية . لأن أهداف التربية كانت دائماً أشمل وأهم من الاجراءات والممارسات التربوية . كما وان التعاريف الموضوعية للتربية التي تحاول أن تحدد ما هي التربية بوصفها عملية فنية ، هي أقل أهمية من التعاريف المثالية التي تحاول أن تحدد الأهداف التي يريد الإنسان أن تحققها له التربية . وتاريخ الفكر التربوي يعرض سلسلة من التعاريف المثالية التي تماشي القواعد والمثل العليا في كل الأزمنة وفي كل الأماكن .

وعند درس النظام التربوي لشعب ما يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ظروف هذا الشعب الاجتماعية والدينية والمادية والسياسية والاقتصادية لأن التربية تتأثر بما يراه مفكروه ضرورياً للتكيُّف وفقاً لهذه الظروف . ولكي نقيِّم تربية شعب ما ، يجب أن نفهم فلسفة هذا الشعب في الحياة ، والنظريات التربوية التي صاغتها عقول مفكريهم نتيجة لهذه الفلسفة .

وتاريخ الفكر التربوي اكثر شمولاً من تاريخ الممارسات التربوية ، لأن التطبيق يتخلف غالباً عن النظريات ، اذ لا يزال كثير من النظريات دون تحقيق ، كما وان تحقيق الأماني يتخلف عن الأماني نفسها . واصدق صورة عن التربية لدى شعب ما هي في مثله العليا وأمانيه كما رآها مفكروه العظام ، وليس في الممارسات الفعلية والواقع الفعلي الذي كانت عليه تربية هذا الشعب من حيث أهدافها وانواعها وتنظيمها ــ الخ . والامة انما تدون سجلها الحقيقي من خلال أمانيها الفكرية والخلقية والجمالية وليس في ما تحرزه من نجاح وانجازات مادية ، لذلك كان تقييم الأماني التربوية لشعب ما اكثر أهمية من تقييم منجزاته التربوية ، اذ ان التربية بمعناها الشامل هي الوسيلة التي يحاول الشعب أن يحقق بواسطتها مثله العليا .

لقد مرَّ الفكر التربوي في مراحل عديدة من التطور المتواصل ، فكل عنصر في محيط الإنسان وكل قوة احتك بها اثّرا فيه وسبّبا حدوث تغيُّر ، مهما كان طفيفاً ، في نظرياته حول ما هو ضروري ومستحب في التربية ، وقد يجعل ، تعدد النظريات الناجمة عن ذلك ، المؤرخ التربوي يتردد قبل محاولة القيام بكتابة تاريخ « تطور الفكر التربوي » . وهذه المحاولة ليست سهلة لكنها ضرورية لكي نتفهم جيداً وبنباهة مسؤولياتنا التربوية الحاضرة والمستقبلية .

ان الممارسات التربوية التي نتبعها اليوم لا تمثل عصراً واحداً معيناً من عصور التاريخ ، بل هي مزيج من جميع العصور ، فقد قدم كل عصر بعض النظريات الجيدة والرديئة ، ومن واجبنا كمربين أن نمزج هذه النظريات ونمحصها ثم نختار منها ما كان جيداً ونهمل ما كان رديئاً أو ما كان يهدد أهدافنا التربوية المستحبة ولا يساعد على تحقيقها .

الفائدة من درس تاريخ الفكر التربوي[٢]

١ — ان درس تطور الفكر التربوي يحملنا على تقييم الآراء التربوية التي اتتنا من الماضي كما يحثنا على ترك الآراء التي ثبت عدم فائدتها .

لا يزال الكثير من الآراء التربوية القديمة حيّاً في عقولنا الحديثة اليوم ؛ وقد تقبّل الناس ، خلال جميع العصور ، بشغف وسرعة ، أراء تربوية خاطئة وخطرة أحياناً . كما وان كثيراً من الاراء التي كانت في الأساس صحيحة ومفيدة استمر الناس في ممارستها حتى بعد ان فقدت فائدتها ، وقد يظن المرء ان اراء كهذه ستسقط ويقضى عليها بطبيعة الحال ، كما يظن ان الممارسات الخاطئة تهمل وانه ، بعد الغربلة والتمحيص ، لا يبقى الا الآراء التربوية الصحيحة فتضاف الى مجموعة المعلومات الصحيحة التي تسمى علماً أو الى مجموعة الاستنتاجات الصحيحة المعروفة بالفلسفة ..... لكن هذا الأمل لم يتحقق مع الأسف ، وقد وصف « برنارد شو » هذه الحالة اذ اضاف الى المثل المشهور « لا ترموا مياهكم القذرة قبل أن تؤمنوا مياهكم النقية » : قوله : « عندما تأتون بمياهكم النقية يجب أن ترموا المياه القذرة وأن تحذروا من مزج الاثنين معاً »[٣] . — هذا ما لم يقم به مفكرو التربية بالفعل فانهم مزجوا المياه النقية بالمياه القذرة فاصبحت عقولهم موحلة — وليس من المستبعد أن نجد بين المربين اليوم من ازدحمت عقولهم بأثمن الآراء والفكر التربوية الممتازة فوق أكوام من المهملات والآثار القديمة البالية التي لا نفع لها — فان لم يقم درس تاريخ الفكر التربوي الا بتحذيرنا من هذه الآراء الكثيرة غير النافعة والتي انحدرت الينا من الماضي وسيطرت على أساليبنا التربوية ، وبتمكيننا من تخليص أنفسنا من أثارها ، لكان ذلك كافياً .

٢ — يجب ان يساعدنا درس تاريخ الفكر التربوي ، على التفكير الصحيح الواعي لكي نصبح عاملين اكفاء في حقل التربية .

من السهل جداً على المرء أن يصبح ممارساً مقلداً دون تفكير ودون اعداد ، معتمداً على معرفة أصول وممارسات الصنعة (المهنة) . ومعظم العاملين في التربية مدربون بالممارسة وليسوا معدين اعداداً تربوياً فنياً علمياً . لذلك فهم يسيرون المدرسة بدلاً من أن يربوا الأولاد —

---

(2) **Monroe, Paul;** Textbook in the History of Education, pp. 1 - 16. New York, The Macmillan Company, 1905.

(3) opcit p. 6.

انه لاسهل على المرء أن يعرف كيف يقوم بالعمل من أن يعرف ماذا يحاول أن يعمل وماذا يعمل ما يعمل .

لقد نشأ ، في كل عصر ، مفكرون عظماء فكروا ملياً باهداف التربية وكيفية التوصل اليها ، مفكرون حاولوا بناء فلسفات تربوية ، بينما كان مجموع المعلمين يتبعون ، بطريقة عمياء ، الممارسات التقليدية والمقترحات التي وضعها سواهم دون أن يفكروا لماذا . ان درس أراء هؤلاء المفكرين والقادة العظماء في حقل التربية يجب أن يوحي لنا بان نكون مثلهم ، أي **أن نفكر بالتربية وتمارسها ، وألاّ** نكتفي بالممارسة فقط . يجب أن يوحي لنا **هؤلاء** بان نصبح ، ولو الى حد ضئيل جداً ، مفكرين أي فلاسفة في حقل عملنا .

٣ – يساعدنا درس النظريات التربوية المختلفة والمفاهيم التربوية المتبدلة ، على اختيار اهداف التربية الحديثة ومبادئها وطرائقها ، بطريقة واعية تقدمية .

ان الكثيرين من غواة التربية القصيري النظر يبنون عملهم التربوي على مفاهيم تربوية ضيقة قائمة على التعصب – لأنه من السهل جداً على المرء أن يتقبل التخيلات الشائعة والآراء العامة المنتشرة بين عامة الشعب ، وأن يؤخذ بطريقة أو مشروع شائع ، أو أن يؤمن بالأهداف والمناهج والطرائق الشائعة بدلاً من أن يدرس التربية درساً وافياً شاملاً من جميع نواحيها ، ويتوصل الى الاستنتاجات بطريقة دراسته . يجب أن تعلمنا التربية بماذا نحتفظ منها وماذا نرفض وبماذا نستعيض عنه ، ولا يمكننا القيام بذلك الا على أساس تحليل شامل لجميع النظريات التربوية .

واذا ما درسنا المفاهيم التربوية المختلفة التي نشأت خلال العصور ولاحظنا التبدل في التأكيد على هذه المفاهيم خلال الأزمنة المختلفة وفي الأماكن المختلفة ، يتسع أفقنا فنرى بوضوح معنى التربية وطبيعتها وطرائقها وأهدافها ، ونتوصل الى أسس فلسفة تربوية متكاملة ، شاملة شمول الطبيعة البشرية ، وعميقة عمق الحياة ، وبذلك نصبح حقاً تقدميين واعين في ممارساتنا التربوية ، ويصبح في امكاننا القيام بدورنا في تحقيق التقدم الحقيقي في التربية .

٤ – يزودنا درس النظريات التربوية القديمة ، بالمواد الضرورية لنستخدمها في تفكيرنا التربوي الخلاق .

نحاول في درس تاريخ الفكر التربوي الافادة من دروس الماضي وما توحيه لنا ، فلا نكتفي بالحقائق فقط ، وعندما ندرس حقبة بعد حقبة لا نهتم بالأفكار التي سادت تلك الحقبة بقدر ما نهتم بما توحيه الينا هذه الأفكار ، لأن أفكار الناس وأراءهم أقل أهمية من الأمور التي يحملوننا على التفكير بها .

لقد توغل أعظم مفكري الماضي ، عند تقييم الاراء والممارسات التربوية التي سادت عصرهم ، في درس الماضي ثم انبروا للتنبؤ بالحاجات التربوية في المستقبل ، اننا نستطيع أن نجمع ، من أراء هؤلاء ، المواد والخبرات الكافية لنبني عليها تفكيرنا الخاص . لذا كان أفضل ما في درس الفكر التربوي « الفكر » الذي يوحيه لنا وليس « الفكر الذي يقدمه لنا . اراء « أرسطو » و « كونتليان » و « لوثر » و « پستالوزي » التربوية وغيرهم هي بذاتها أقل أهمية من أهمية تأثيرها على تفكيرنا بالتربية والممارسات التربوية . فلا يهمنا مثلاً ما قاله أفلاطون الى اليونان أو « روسو » الى الفرنسيين بقدر ما يهمنا تأثير أقوالهما في شعوبهما اليوم . لذلك عندما نأتي على أراء مفكري التاريخ والمصلحين العظام نحاول دوماً أن نبرز تأثير أرائهم على مشكلات التربية الحديثة .

٥ — ان درس ما حاول المعلمون العظام القيام به وما انجزوه ، يجب ان يحثنا على اكمال عملهم وتحقيق افكارهم لاسيما وان ظروفنا الحاضرة اسهل واكثر ملاءمة اليوم .

لقد مات الكثيرون من فلاسفة التربية والمصلحين العظام قبل أن يشهدوا أراءهم التربوية تتحقق ، وقد حلم كثير منهم أحلاماً لم يعيشوا ليروا تحقيقها ، ان ارواح هؤلاء الموتى لا تطلب سوى القيام بواجب مقدس وهو تحقيق مثلهم العليا العظيمة التي لم تسمح ظروف عصرهم أو حياتهم القصيرة من انجازها ، لأن تحقيقها اليوم في الظروف الحالية هو أوفر حظاً وأسهل منالاً .

وما دام العمل (التنفيذ أو التطبيق) يتخلف عن النظريات فان عدداً قليلاً جداً من المفكرين العظام يعيشون زمناً كافياً لكي يروا احلامهم تتحقق ، ولكي يتمكن المجتمع المتخلف من هضم أرائهم . لقد سبق ، الكثير من هؤلاء ، عصرهم باعوام بل بقرون . والآن من واجبنا أن نحمل المشعل الذي سقط من ايديهم ونسير به لاكمال العمل العظيم الذي بدأوه .

٦ — ان درس نشوء النظريات التربوية ينمي فينا بعض المواقف المفيدة مثل التواضع والصبر .

معظم المربين من الشباب قليلو الصبر وسريعو القنوط ولا يمكنهم التساهل عند مقاومة نظرياتهم . فاذا ما درسنا تاريخ التربية نستدل به على أنّ الاصلاح يأتي ببطء والآراء التربوية الجديدة تأتي زحفاً لا قفزاً ، ومن مآسي المفكرين المعلمين المبدعين ان آراءهم كثيراً ما ترفض وتعارض ، وان ذلك يستمر حتى بعد وفاتهم بزمن طويل ، وقد اضطهد بعضهم واسيئت معاملتهم حتى ان بعضهم ذاق الموت في سبيل أرائهم ومعتقداتهم لذا كان في درس حياة بعض هؤلاء المربين المصلحين العظام عبرة لنا في تعلم الصبر والانتظار . والدرس الآخر الذي نفيده من هذه الدراسة هو التواضع ، عندما نكتشف ان معظم الآراء التربوية الحديثة ليست جديدة كما نتصور . فيجب اذن ، أن يدرس المربون المحدثون ، عند تقديم أرائهم

وأساليبهم الجديدة ، الكتابات التربوية القديمة ، لأنهم قد يجدون ان الآراء التي يدعون بفخر انها من ابداعهم قد وردت في كتابات اليونان القدامى والرومان أو ربما أقدم من ذلك .

٧ – يعتبر درس تاريخ الأماني التربوية من افضل الوسائل لمعرفة كيفية نشوء الحضارة .

ان درس تاريخ التربية يتناول حتماً ، اكثر من التربية . فانه يشمل تاريخ الحضارة بالذات . كما وان درس تاريخ الممارسات التربوية هو ناحية من نواحي تاريخ الحضارة ، بيد ان تاريخ الحضارة الحقيقي ليس في درس تاريخ المدارس أو الممارسات التربوية ، بل في درس تاريخ المثل التربوية العليا . وتبلغ البشرية ارفع مستوى لحضارتها بتحقيق أمانيها الروحية وليس بما تحققه من المنجزات المادية مهما بلغت هذه من العظمة . والمثل العليا والمفاهيم التربوية عند شعب ما، هي أفضل مقياس لتقدم القوى العاملة في تحضير ذلك الشعب ، اذ نستطيع بواسطتها ان نكوّن صورة واضحة عن مجتمعهم وعن المستوى العام للعيش الذي سعوا اليه عمداً في عصرهم .

٨ – ان درس تاريخ الفكر التربوي هو وسيلة ممتازة لدرس مبادئ الإصلاح الاجتماعي والصناعي والسياسي والديني .

لا نستطيع أن ندرس النظريات التربوية دون أن نتأثر ، الى حد كبير ، بالتفكير الفلسفي العام ، فنجد أنفسنا وسط الحقول الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والسياسية ، وقد كانت التربية دوماً موضوعاً محبباً لدى الفلاسفة ولذا كان من الصعب عليهم فصل كتاباتهم في حقل التربية عن كتاباتهم في الحقول والمواضيع الأخرى .

والذين حاولوا اصلاح العالم واعادة تنظيمه في أي اعتبار من الاعتبارات ، كانوا اذا ما صادفتهم المتاعب في محاولتهم التأثير على المتقدمين في السن واخضاعهم لآرائهم يتجهون الى الشباب المرن حيث كان لهم أمل أكبر في التمكن من توجيه هؤلاء الى الطريق الصحيح وبذلك يكون الوصول الى الاصلاح اقرب الى الواقع منه الى الحلم . ولا يمكن درس تطور النظريات التربوية دون التعرض الى تطور النظريات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية أيضاً وهذا بالفعل هو النهج الذي يجب أن نسير عليه ، ولا يستطيع المرء أن يكون مربياً فعالاً ما لم ينظر الى الأهداف الاجتماعية التي يجب أن تسعى اليها التربية اذا ارادت التربية أن تحقق نظاماً اجتماعياً جديداً أفضل .

ليس في منهاج اعداد المعلم اعداداً مهنياً ، درساً أهم من درس موضوع الأسس التاريخية والفلسفية والاجتماعية التي تقوم عليها التربية الحديثة ، وقد ذكر أحد المؤلفين من المربين

الحديثين بعض فوائد هذا الدرس بما يلي : »[٤]

ا — انه المدخل الذي يستطيع المعلم أن يرى من خلاله صورة واضحة عن المنجزات الماضية وصورة جلية عن المستقبل الذي تتوقعه التربية .

ب— انه السجل الذي يضم التقدم التربوي الذي احرزته البشرية حتى الساعة ، والحالة الحاضرة التي نحن عليها الآن .

ج — انه نجمة القطب التي توجه سيرنا في عملنا التربوي المستقبلي .

د — انه الحارس الدائم اليقظ الذي ينبهنا دوماً كي لا ننسى ان طريقنا محفوف بالمخاطر ، وان المجتمع الذي يتطلع الى حياة أفضل عليه أن يبني عمله بنشاط روحي .

ه — انه الغربال الذي يفصل التبن المتأتي من التقليد البالي عن الحَب الصحيح .

و — انه المقدمة المرشدة لجميع الدروس التربوية .

ز — انه ينمي الفضول العقلي الذي يميز بين المعلم الموفق المستنير والمعلم غير الموفق المحدود الأفق وغير المستنير .

ح — انه يساعد على تنمية الحماسة المهنية التي لولاها لما كان الوصول الى بذل الجهد وتحقيق المنجزات العظيمة ممكناً .

ونرجو أن يكون في درس تاريخ تطور الفكر التربوي، وهو موضوع كتابنا هذا، المحرّك الذي سيثير الطالب الجدي للتفكير النقاد في مختلف مفاهيم التربية المنتشرة الآن ، ويشجعه على وزن الآراء وتقييم الممارسات التربوية ، فيصبح مفكراً فعالاً في التربية والشؤون التربوية ، ويكون بالتالي عاملاً فعالاً في بناء النظام التربوي الضروري لتحقيق المجتمع القائم على التعاون الذي تتطلبه ظروف العصر الحديث .

وأخيراً نرجو أن يفيد الطالب من هذا الدرس في تقييم الآراء والنظريات والممارسات التربوية المطبقة في بلاده ويحاول أن يسهم اسهاماً فعالاً في تطوير هذه الآراء والممارسات واصلاح التربية في بلاده .

---

(4) **Mulhern, James ;** The Significance of the History of Education in the Education of Teachers» Educational Outlook, Vol. X, No. 3, March, 1936, pp. 167 - 181.

المراجع

1. **Barenes, Harry Elmer**; an Intellectual and Cultural History of the Western world, New York, Random House, **1937**.
2. **Monroe, Paul**; Text Book in the History of Education, new york, the Macmillan Company, **1905**.
3. **Mulhern, James**; « The Significance of the History of Education in the Education of Teachers » Educational Outlook, Vol. X, No. 3, March **1936**, pp. **167 - 181**.
4. **Shaw, Charles Gray**; Trends of Civilization and Culture, New York, American Book Company, **1932**.
5. **Wilds, Elemer Harrison**; The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. **1950**.

المجلد الاول

اركان الفكر التربوي
في العصور القديمة والقرون الوسطى

الفصل الاول

كيف بدأت التربية

المفهوم البدائي للتربية

ما هو منشأ علم التربية ؟ متى بدأ الانسان يفكر في التربية ؟ وكيف بدأ ذلك ؟

ان الطريق التي سار بها الإنسان حتى وصل الى ما هو عليه الآن كانت طويلة جداً وصعبة واستغرقت مئات الألوف من السنين . لقد تعلّم الإنسان تدريجياً أن يكيف نفسه وفقاً الى الطبيعة ، وأن يسخر الطبيعة لخدمته ، (وكان يخيل ان ذلك يتم أحياناً بالصدفة ، ولكنه كان دائماً نتيجة سعي واعٍ) وأن يزيد سلطانه على بيئته وعوامل محيطه ، وتعلّم تدريجياً أن يزيد لديه قوة التواصل بتنمية وسائله ومؤسساته الكبرى في المجتمع كاللغة ووسائل النقل ، وتعلم تدريجياً أن يحلم ويتصور حياة أفضل بواسطة تنمية المُثل العليا والأماني التي يعبر عنها بالفن الخلاق والأدب والدين ... ان مفهوم الإنسان عن كيفية حصول هذا التعلم هو تاريخ الفكر التربوي .

ان طريقة تفكير الإنسان تحددها الوضعيات التي تحيط به ، وكلما تقدمت الحضارة تقدمت معها النظريات التربوية ، وبتطبيق هذه النظريات التربوية يزداد تقدم الحضارة ، وهكذا نجد ان تقدم الإنسان في ممارسة الحياة الاجتماعية هو عملية نشوء تدريجي انتقل فيها الإنسان من الحياة البدائية المتوحشة حتى وصل الى حضارتنا المعقدة اليوم . وقد توصل الإنسان الى بعض نواحي هذه الحضارة صدفة بدون ارادته ودون توجيه ، ولكن القسم الأكبر منها هو وليد سعي واع قام به بارادته وبتوجيه أخيه الإنسان . فهذه السيطرة الواعية يقوم بها الإنسان بارادته على مؤسساته الحضارية هي التربية :

وفي الحقيقة يصعب أن نحدد متى بدأت التربية ، فالتربية قديمة قدم الحياة لا بل يمكننا

القول انها سبقت الإنسان ، لأن يوان ما قبل التاريخ قد علّم انساله الحيل التي كان يستخدمها للتغلب على مخاطر حياته كالأعداء والجوع ، فالتربية نظامية أم غير نظامية واعية أم بغير ارادة الإنسان كانت منذ البداية ولا تزال تلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان وتقدمه نحو الحضارة .

لقد بدأت عملية التربية زمناً بعيداً ، قبل ان اخذ الإنسان يسهم فيها عن قصد . وبقيت التربية الوفاً من السنين تتم على يدي الطبيعة . فكانت الطبيعة هي المعلم وكانت التربية عملية انتقاء دقيقة جداً . فالأفراد والجماعات الذين كانت لهم مميزات وخصال ملائمة تمكنهم من العيش والبقاء في المحيط الذي كانوا فيه « اجتازوا » الامتحان فبقوا وتناسلوا وتمكنوا من الاحتفاظ بخصالهم المستحبة والمحافظة عليها . أما الذين لم تكن لهم مثل تلك المميزات فاضمحلوا واختفوا عن مسرح الوجود .[1]

لقد بدأت التربية زمناً طويلاً قبل أن فكّر أحد فيها ، وقد فكّر الناس بالتربية زمناً طويلاً قبل ان كتب أحد عنها ، وكتب الناس عن التربية زمناً طويلاً قبل أن تكون هنالك مشكلة « التربية » . وسنرى ان التربية البدائية هي التربية بابسط معانيها .

ويصعب درس هذه الحقبة من تاريخ التربية لأنها تمتد ا الوف والوف من السنين . لقد مرت حياة الشعوب البدائية في مراحل متعددة من التطور كما يمر تطور الشعوب المتحضرة . ويعرف المؤرخون بعض وجوه هذه المراحل من نمو الشعوب المتوحشة ويصفونها بما يلي :[2]

١ — العصر الصواني — « ايوليتي » (Eolithic) :

وهذا يمثل أقدم المراحل وكانت الأدوات الوحيدة التي استخدمها الإنسان خلال هذا العصر هي الخشب والعظام والصخور المأخوذة من الأرض وقد استعملها الإنسان المتوحش بحالتها الطبيعية كما عثر عليها . أما مسكنه فكان الكهوف والأدغال التي أوجدتها الطبيعة .

٢ — العصر الحجري القديم — « باليوليتي » (Paleolithic) :

وهذا يمثل المرحلة الأقل قدماً والتي استخدم فيها الإنسان الأدوات المصنوعة من الحجارة وقد صنعها بشكل بدائي جداً على شاكلة حراب أو رؤوس أسهم أو فؤوس ومطارق . أما مسكنه فكان بدائياً وقد صنعه من الحجارة والأدغال .

---

(1) **Wilds, Elemer Harrison ;** The Foundations of Modern Education. p. **16, 17.** Rinehart & Company, New York, **1950,**

(٢) ايمار ، اندريه ؛ واوبوايه ، جانين ؛ : تاريخ الحضارة العام — الشرق واليونان القديمة ، — ترجمة فريد داغر وفؤاد ابو ريحان . منشورات عويدات ، بيروت لبنان ١٩٦٤ — ص ٢٣ — ٢٦ .

٣ – العصر الحجري الجديد – « نيوليتي » (Neolithic) :

وهذا العصر يمثل المرحلة الأخيرة وقد هذب الإنسان خلالها الأدوات الحجرية وصقلها فاصبحت ذات حدود قاطعة أفضل بكثير من سابقاتها ، أما المسكن فقد صنع من مواد أجرت عليها يداه بعض التغيير عن حالتها الطبيعية .

هذه المراحل الثلاث تختلف عن بعضها بعضاً اختلافاً بيّناً على أنها جميعاً تسمى مراحل بدائية متوحشة . ولا نستطيع أن نصف بايجاز الدور الذي لعبته التربية في كل من هذه المراحل ، على أننا سنتخذ موقفاً وسطاً وندرس الحياة البدائية بصورة عامة .

ولكن لما لم يكن هنالك سجل مكتوب يتضمن تطور الحياة خلال هذه الفترة . فاننا سنعتمد في درس ذلك على بحوث وكتابات المفكرين والفلاسفة العظام الذين كانوا أول من قدّم لنا المعلومات عن هذه المرحلة . كما سنعتمد على ما نجده في الآثار التي خلّفها الإنسان في هذه الفترة من حياته ، الآثار في البناء والمعدات والسلاح ومختلف الأدوات التي كان يستعملها انسان ذلك العهد كما نعتمد على ما يجده علماء الانتروبولوجيا (درس الإنسان) في الهياكل العظمية التي وجدوها في قبور الشعوب القديمة وعلماء الاثنولوغيا (Ethnology) ومقارنة الاعراق البشرية الذين يدرسون القبائل المتوحشة التي لا تزال على حالتها البدائية في بعض نواحي العالم . من هؤلاء تجمعت لدينا كل المعلومات عن تطورالتربية باساليبها ونظرياتها منذ الإنسان الأول حتى اليوم .

سنتبع في كل فصل من دراستنا التبويب الآتي :

– أهداف التربية	– وسائل التربية
– أنواع التربية	– طرائق التربية
– منهج التربية	– تنظيم التربية

اهداف التربية :

كانت التربية البدائية لا تعي أهدافها ، وكانت أهداف الشعوب المتوحشة ومثلها العليا قليلة العدد ، ونظامها التربوي اذا صح تسميته هكذا ، لم يكن بحاجة الى الدقة لكي ينمي في الفرد المميزات والصفات الضرورية لحياته ولحياة الجماعة . لم يفكر الإنسان المتوحش في البداية الا في الأمور المباشرة الضرورية – كتأمين طعامه وحماية نفسه من العناصر الطبيعية وتجنب الخطر والموت – كان يعيش في الحاضر ولا يفكر في المستقبل كما وانه لم يفهمه . لم يفكر الى أين هو ذاهب أو من أين أتى ، يقوم بمعظم أعماله بمستوى الغريزة وما يتعلمه كان يتم بطريقة التقليد غير الواعي . كان الأمن (السلامة) هو الهدف الأساسي للتربية البدائية ، لأن المشكلة

الأساسية للشعوب البدائية كانت في تأمين عيشهم وحماية أنفسهم وعائلاتهم من قوى الطبيعة الهدامة ومن الأعداء (حيوانات وبشر) ولا ريب ان الخوف كان هو الدافع لمعظم أعمالهم . وكما قال براون : « في البداية كان الخوف ، وكان في قلب الإنسان فسيطر عليه واقلقه ولم يترك له لحظة من الراحة .. »[٣]

فالنار والعواصف والرعد والموت ركزت في عقل الإنسان البدائي شعوراً بالخوف حمله على العمل وبعثه على نقل الأعمال التي اثبتت جدارتها ونفعها الى أنسالة من بعده وهكذا كان الخوف المحرك أو الباعث الأول للتربية ، وكان المتوحش عبداً لحاجاته الخاصة وللخوف من القوى غير المنظورة، وكان هدفه من التربية، اذا صح أن نقول بانه كان يعي هدفه ، اعداد الفرد إلى :

١) تأمين الأمور الضرورية لحياة الفرد ولعائلته .

٢) مداراة (استرضاء) القوى غير المنظورة العاملة في الطبيعة .

وقد خاف الإنسان المتوحش الأشياء غير الحية اكثر من الأشياء الحية . وكانت بالنسبة اليه جميع الأشياء حية أو غير حية – كالأشجار والصخور والعواصف وكل الأمور الأخرى – يمكن اغضابها أو ارضاؤها كما تستطيع أن تهلكه أو أن تبقي عليه – هذه كانت أقدم الأديان – ديانة الإيمان بمذهب التأنيس « Animism » .

أما مذهب التأنيس ويسمى أيضاً مذهب الحياتية فهو :

ا) الاعتقاد الفلسفي بان الكائنات البشرية لها جسم وروح وبان الروح هي أساس الحياة .

ب) الاعتقاد المنتشر بين الشعوب البدائية بصورة خاصة والقائل بان كل كائن حي يسكنه جرم ما قد يكون روح أحد الموتى أو قد يكون ذاتاً مجهولة .

ج) الاعتقاد بان للانسان نفساً من عنصر غير مادي ، واعتقاد بعض الوثنيين بوجود مثل هذه النفس في الأشياء المادية كالأشجار والحجارة والرياح والمياه والسجود لها .

د) الاعتقاد بان كل شيء حياً كان أم جماداً هو موطن الروح .[٤]

يقول « مونرو » بهذا الصدد ما يلي :

---

(3) **Browne, Lewis,** This Believing World, New York, Mac Millan Company, **1937, p. 27.**

(٤) فريد نجار. قاموس التربية وعلم النفس التربوي منشورات دائرة التربية بالجامعة الأميركية بيروت ١٩٦٠. ص٣٣.

« يضع الإنسان البدائي المتوحش وراء كل وجود مادي أو ظاهرة واقعية ، « قوة غير مادية » ، « كياناً روحياً » أو « بديلاً » يسيطر على الكيان المادي ، ويفسر وجوده ومقاومته الى ارادة الإنسان ويجعله موطناً الى الشعور بالوجود هذا الشعور الذي لا يختلف عن الشعور بالوجود الذي يملكه الإنسان نفسه »(٥)

وقد توصل الإنسان المتوحش الى هذا المفهوم عن عالم مزدوج ، أي ان كل شيء فيه يكون من جسم وروح ، عن طريق الأحلام ، فقد عرف هذا الإنسان بادىء الأمر نوعين من الأرواح . الأرواح التي لا تتطلب اهتماماً والأرواح المعادية التي يجب طردهـــا أو خداعها ، وقد اكتشف فيما بعد ان بعض هذه الارواح قد تكون صديقة وان الأرواح المعادية يمكن ارضاؤها وجعلها صديقة أيضاً . وهكذا بدأ الإنسان البدائي استرضاء الأرواح بالاحتفالات والمراسم والسحر لكي يؤمن سلامته من القوى غير المنظورة — فالسلامة كانت :

١ — الهدف الأول والدافع الأساسي لجميع المراسم والاحتفالات والعادات والمحرمات التي يفرضها الكبار على الصغار في الشعوب البدائية المتوحشة .

٢ — أما الهدف الثاني للتربية البدائية فكان الانسجام ، والانسجام كان من ضرورات السلامة لأن الخوف من الخطر جمع الشعوب المتوحشة لتكوّن عائلات وقبائل ، ونشأ عن هذه التجمعات أقدم مشاكل الحياة الاجتماعية وهي قضية الانسجام مع الجماعة ، فكان تكييف الفرد وفقاً للجماعة العنصر الأساسي في تربية الشعوب المتوحشة ، فالفرد يجب أن ينسجم مع الجماعة من أجل سلامته وسلامة الجماعة معاً . وكانت التربية البدائية تؤكد مصلحة الجماعة أولاً وليس مصلحة الفرد وحقوقه . (٦)

وقد جرت عملية التكيف هذه بادىء الأمر دون سعي قصدي فكان يترتب على تجمع الأفراد في جماعات بدافع حب الاجتماع أن يقوم بينهم الانسجام والتشابه من أجل راحة الفرد والجماعة معاً وهكذا وبدون قصد واع أصبحت حياة الجماعة قوة تربوية تنزع من الفرد العوامل الشاذة والمخالفة لروح الجماعة وعاداتها وتجعل بين الأفراد تشابهاً يؤدي الى الانسجام . وعندما يتم ذلك للفرد يكون قد اكمل تربيته . والموافقة الجماعية على سلوك الفرد أو عدمها كانت هي الامتحان الذي يقرر نجاحه أو فشله والذي يبقي الفرد ضمن حدود الجماعة ونظامها أو لا يبقيه .

وعندما أخذ الإنسان الأول يفكر بالتربية لم يجد مشكلة بل تابع بوعيه ما كان يقوم به بصورة طبيعية : **اي تكييف الفرد الى محيطه المادي والروحي باتباع طرق معينة في عمله وفي**

(5) **Monroe, Paul :** Text Book in the History of Education, New York, the Macmilan Company, 1922, p. 2.

(6) **Monroe, Paul ;** Ibd. Text Book P. 3, 4, 5.

حياته . ولم يشجع الإنسان البدائي الفروق الفردية بل قمعها وحاول جعل جميع أفراد العائلة في مستوى واحد من حيث التمسك بالتقاليد وعادات العائلة أو القبيلة . ومن لا يستطيع تحقيق هذا الانسجام كان يطرد من القبيلة ولم يقبلوا بشيء آخر أو حل آخر لذا لم تكن لهم مشكلة .

وهكذا كانت التربية ، لقرون طويلة لا شيء سوى فرض مميزات الجماعة وعاداتها على الأولاد . وكان هدفها تثبيت العادات القائمة ، أما الاختيار فلم يكن له وجود ، والقاعدة المعمول بها هي المحافظة على الوضع القائم وقتل جميع الأطفال الذين يبدو عليهم عند الولادة أو اثناء طفولتهم المبكرة أي انحراف عن القاعدة ، لأن المتوحش لا يستطيع أن يرى أحداً من جماعته يشذ عن قبيلته . (٧)

أنواع التربية :

لقد اشتملت التربية عند الشعوب المتوحشة على النوعين العامين اللذين نجدهما عند جميع الشعوب(١) التربية العملية أي التربية بالنسبة الى الأمور المنظورة(٢) والتربية النظارية أي التربية بالنسبة الى الأمور غير المنظورة .

وقد اشتملت التربية العملية عند الشعوب البدائية على ما نسميه اليوم **بالتربية المهنية وتدبير المنزل ، والتربية العسكرية والتربية البدنية والتربية الخلقية** . وهذه الأنواع من التربية العملية أصبحت بعد أن تحررت من المقاييس البدائية القائمة على التكيف البدائي وفقاً للمحيط ، الأساس لحياتنا الاقتصادية والأدبية والاجتماعية والسياسية . كما وانها تُعدُّنا لجميع أنواع النشاطات التي تتناول جوانب الحياة المادية .

أما التربية النظارية عند الشعوب البدائية فكانت تشمل ما نسميه اليوم **بالتربية الدينية والتربية الطبية والتربية الادبية والتربية الفكرية والتربية الفنية** . وهذه هي التي تشكل الأساس للدين والطب والفن والموسيقى والفلسفة والأدب والعلم . وكانت في الأساس تتعلق بنشاطات العبادة التي تتناول الشؤون الروحية من الحياة .

ويجب أن نتذكر ان هذه الأنواع من التربية البدائية النظارية وان كانت تتعلق بالقوى الروحية وغير المنظورة فقد استخدمت أيضاً في سبيل المجهود العملي لتأمين السلامة . وفي الواقع ان كثيراً من النشاطات التي كانت نشاطات تمارس في اثناء العبادة عند الشعوب المتوحشة أصبحت بالنسبة الينا نشاطات عمل . كانت العبادة عند المتوحشين نشاطات عملية كالعمل نفسه ، والخلاصة ان التربية عند الشعوب البدائية كانت كلها عملية ، كانت تتضمن تكييف الفرد للحياة العملية ولكن ليس « للحياة الوافرة » . (٨)

---

(7) **Hart, Joseph K ;** Creative moments in Education, New York, Henry Holt & Company. **1931**, P. **1.**

(8) **Wilds...** op, cit. p. **21 - 22.**

منهج التربية :

لقد تضمنت تربية الانسان البدائي ثلاثة اجراءات : (١) التدريب الضروري لتأمين الحاجات الجسدية و (٢) التدريب على الطقوس والمراسم الدينية لارضاء الأرواح و (٣) التدريب على العادات والتقاليد والمحرمات والحرمان الضروري للعيش بانسجام مع أفراد الجماعة .

فالصبيان تعلموا الصيد والقنص والقتال وصنع الأسلحة ، وتعلمت البنات العناية بالأطفال واعداد الطعام والملابس والمعدات والأدوات الضرورية لعملهن هذا والعناية بالمسكن . وهذه المهمات كلها بسيطة ويمكن أن يتم تعلمها بطرق بسيطة أيضاً .

أما أعمال التعبد فكانت اكثر تعقيداً كما كان التدريب على المراسم السحرية التي كانت تستخدم لارضاء الأرواح . وكان تفسيرهم البسيط ، القائم على أساس مذهب التأنيس ، للشمس والقمر والنجوم والعواصف والفصول وجميع مظاهر الطبيعة العادية وغير العادية ، بداية العلم والفلسفة . أما قدرتهم على تفسير الاختبارات والحوادث غير العادية التي نزلت بهم ، ثم زخرفة هذه الحوادث واعادتها بشكل جذاب فقد تطورت حتى اصبحت بداية التاريخ والأدب .

أما المراسم والاحتفالات الدينية التي كانت تستخدم لارضاء الآلهة فكانت تتعلق لدرجة كبيرة بالرموز . وكان لهم نوعان من الرموز ، الرموز المسموعة والرموز المنظورة . وبتزايد الرموز المسموعة بدأت اللغة والموسيقى . وبتطور الرموز المنظورة كانت بداية الفن والهندسة والتصوير . وكان الرمز بالنسبة الى المتوحشين لا يمثل الأرواح فقط بل يتضمن جوهرها بالذات . والرمز كان بنظارهم الشيء الذي يرمز اليه بذاته . فاذا اتلفت التمثال الذي يرمز الى الروح فكأنك اتلفت الروح نفسها . واذا أكلت الكعكة التي ترمز الى الروح فكأنك اكلت الروح . واذا تلفظت باسم الروح فكأنك تنفست الروح نفسها لذلك كان اسم الروح محرماً لا يجوز النطق به الا من قبل القديسين وفي الأماكن المقدسة .

وقد استعمل الإنسان المتوحش التمائم (الفتيش) وكانت هذه مواد طبيعية أو مصطنعة تسكنها الروح واذا ما حاز عليها الإنسان مكنته من السيطرة على الروح ، ونسميها باللغة العامية « الحِرز » .

وكان الطب والدين عند الشعوب المتوحشة واحداً ، والأمراض كانت تأتي من الأرواح الشريرة ، والمهم هو أن نعرف كيف نطرد هذه الأرواح . وكانت الطريقة المتبعة تعذيب الجسم بحيث تخرج منه الروح الشريرة . كما وان السحر والكهانة كانتا تتبعان لمثل هذه الغاية أيضاً — فالمهم هو أن الروح الشريرة يجب أن تخرج والوسائل التي تتبع لتحقيق ذلك تحتاج الى تدريب طبي — ولم يتحرر الطب من هذه الأساليب ، أساليب السحر والكهانة لطرد المرض ، الا في القرن الماضي .

لم يهمل الإنسان البدائي تربيته البدنية ، فتاريخ التربية البدنية يبدأ مع الإنسان المتوحش إذ كان من أهم مشكلات هذا الإنسان حماية نفسه وحماية عائلته من الأعداء . وهذا يتطلب جسماً قوياً فكانت التربية البدنية تنتحل الوسائل الكفيلة لتقوية كل عضو من أعضاء الجسم واعطائه المهارة الكافية واثارة روح الشجاعة والجرأة والروح العسكرية فيه . وقد بدأت هذه التربية منذ الطفولة ، بحيث يمرنون الطفل في سن مبكرة من طفولته على الكر والفر وتأرجح جسده الى الأمام والى الوراء لكي يكتسب مرونة وخفّة تمكنانه من تجنب السهام التي قد توجه اليه فيما بعد، كما يدرب الطفل على ضرب والديه خوف أن يصبح جباناً . أما الشبان فعليهم أن يتلقوا لكمات والديهم دون تذمر أو تقطيب وجه . (٩)

وسائل التربية :

كانت العائلة هي التي تلقن الإنسان البدائي التربية العملية ، فالمرأة تعلم بناتها الواجبات والمسؤوليات التي تطلب من الفتيات كتدبير المنزل والعناية بالأطفال وما شابه . والرجل يعلم الفتيان واجبات الرجال ومسؤولياتهم كالصيد والقنص والقتال وصنع الأسلحة واسترضاء الآلهة .

« الفتى يقلد أباه والفتاة تقلد أمها ، والنتيجة تكون نقل المهارات والمعرفة من السلف الى الخلف دون تبديل أو تغيير اذ ليس للتنوع أي مكان عند هذه الشعوب وليس من المفروض أن يزيد الولد عن أبيه أو الابنة عن أمها ، فعندما يعرف الفتى أو الفتاة بقدر ما يعرف أبوه أو أمها تتوقف التربية . » (١٠)

وهكذا بدأ نوع من التخصص في القبيلة حيث تمكن شخص أو اكثر من الجماعة من عمل شيء مـــا بمهارة اكثر من الآخرين — وقد يتعلم أحد المتوحشين صدفة أو بالتجربة والخطأ أن يحسن صنع الحربة أو احدى آلات القتال أو احدى قطع الفخار أو السلال ، فيحتفظ بسره هذا أو يعطيه الى أولاده . ومن ثم يأخذ أبناء غيره يأتون اليه ليتعلموا المهارة الجديدة . وهكذا بدأ نوع من التخصص في المعرفة والمهارات وفي اعطائهما الى الأجيال الطالعة .

وكان التعليم الديني في البداية بيد العائلة — والأرواح التي كانت تهم العائلة في الدرجة الأولى كانت أرواح أفرادها الذين توفوا . فهؤلاء كانت شؤون العائلة تهمهم وكانوا يقفون منها موقف الصديق كما كانت هذه الأرواح هي الحافز الى العبادة . وكان المسؤول عن ارضاء هذه الآلهة (الأرواح) هو الأب بوصفه اكثر افراد العائلة خبرة واكبرهم وأقربهم الى

---

(9) **Monroe Paul...** op, cit. pp. 1 - 13.

(10) **Spencer, F. C;** Education of the Pueblo Child. New York, Columbia University press, 1899.

الأرواح التي غادرت العائلة . فكان عليه أن يدرب الأفراد الصغار على السلوك الذي يرضي الأرواح – وهكذا كان من واجب الأب أن يعلم أفراد عائلته قيمة العمل ، وضرورة القتال وفوائد العيش بانسجام مع الآخرين وأصول العلاقات الجنسية والمحرمات وكل الأمور الأخرى الضرورية للعيش الجيد ولارضاء الأرواح .

وعندما اتحدت العائلات فشكلت القبائل وأصبحت العادات القبلية جزءاً من الأرث الاجتماعي أصبح من الضرورة والحكمة أن تتم العبادة لا في نطاق العائلة بل في نطاق القبيلة ، لذا كان من الضروري أن يكون للقبيلة زعيم . وكان الزعيم يختار بالنسبة الى قوته أو سنه أو مظهره أو قدرته . وقد يسمى الطبيب أو الساحر أو الطبيب الساحر أو الكاهن . وكانت مهمته الأولى ارضاء الأرواح وبخاصة منها الأرواح الشريرة وقيادة الحفلات والمراسم والرقص وكل أنواع العبادة الشائعة بين الشعوب البدائية .

وهكذا نشأ نوع آخر من التخصص في التربية عند القبيلة المتوحشة ، التخصص في تعليم مراسم العبادة وأصولها والسبب الكامن وراءها مما اضطر الكاهن ومعاونيه الى معرفة هذه الأسباب لكي يعلموها بدورهم الى أبناء قبيلتهم – وهذه **المعرفة** كانت أول مجموعة من المعلومات الفكرية عرفها الإنسان .

وقد أنشأ الكاهن صفوفاً خاصة يلقن فيها أبناء القبيلة ، الذين يرشحون لأن يصبحوا كهنة ، هذه المعلومات ، وهكذا جمع هؤلاء الكهنة المعلومات النظامية واحتفظوا بها دون أن ينقلوها الى أبناء القبيلة العاديين – ومن هؤلاء الكهنة واسلوبهم في البحث عن سبب الأمور ومصيرها نشأ أول تطور فكري وأول تخصص في الشؤون الفكرية .. ونشأت من ذلك مجموعة كبيرة من المعلومات النظرية ومن ثم نشأت الحاجة الى ايجاد وسيلة للاحتفاظ بهذه المعلومات وتسجيلها . وهكذا نشأت الأبجدية والكتابة والأدب .

ومن نتيجة تأسيس هذه الطبقة من الكهنة تقدمت وظائف التربية وترقت من حيث (١) تكوين مجموعة معينة من المعرفة والمعلومات ، (٢) نشوء طبقة من المعلمين (٣) نشوء اللغة والأدب . وهذه النواحي التربوية الثلاث كانت أول مؤسسة تربوية .[١١]

---

(1) **Wilds ...** op, cit, pp. 26 - 28.

طرائق التربية :

١) كانت أولى طرائق التربية طريقة الطبيعة الأم ، وكانت نظرية « لامارك Lamarck » تفسيراً مقبولاً لنشأة مختلف الأجهزة والطرائق العاملة في سلوك البشر. كان «لامارك»[١٢] مقتنعاً بأن هذه الأجهزة نشأت بادىء الأمر كتكيف للبيئة حصل صدفة . ثم تطورت هذه الطرائق بالاستعمال أو اضمحلت بسبب عدم الاستعمال ، فقد تعلم الإنسان الأول مثلاً أن يكشر ويظهر أسنانه ، وتعلم آخر أن يطبق قبضة يديه، وآخر أن يرمي حجراً، وآخر أن يرمي المقلاع ، والآخر أن يتقن الصراخ أو التأشير الخ ... فاصبحت هذه الأعمال مرضية للمرء فثبتها ثم نقلها الى أنساله وأصبحت مع الزمن مثبتة في الأرث الاجتماعي للسلالة البشرية .

قال «لامارك» : كل ما اكتسبه الإنسان أو عدله في أثناء حياته، احتفظ به ثم نقله إلى الأفراد الذين انحدروا منه . وهكذا دعم لامارك نظرية النشوء عن طريق وراثة الخصال المكتسبة .

أما دارون فقد قدم نظرية أخرى عن منشأ الخصال المكتسبة ، فقال ان هذه الصفات نشأت عن طريق التنوع في المخلوق الحي الذي أتى بالصدفة . والصفات التي كانت نافعة للفرد في معركته لتنازع البقاء مكنته من العيش (من البقاء) حتى استطاع أن يولد أنساله وينقل هذه الصفات إلى الأجيال الطالعة ، أما الأفراد الذين كانت لهم صفات مغايرة فقد فشلوا في معركة تنازع البقاء وفي التناسل فماتت خصالهم هذه – هذه كانت طريقة الطبيعة ، أو الطريقة العفوية كما تسمى أيضاً .

٢) أما الطريقة الثانية فكانت طريقة التقليد غير الواعي أي غير المقصود حيث أسهم الإنسان ببعث هذه الطريقة ولكنه فعل ذلك بدون وعيه أو قصده وبدون التفكير في وضع نظرية حول هذا العمل . وقد تعلم الأولاد الكثير بطريقة التقليد غير المقصود زمناً طويلاً قبل أن يحاول الإنسان تعليم أبنائه عمداً . وكانت العاب الأولاد ووسائل تسليتهم تقليداً لنشاط الكبار . فالألعاب كانت مصغرات عن الأدوات التي يستعملها أهلهم . وعندما كان الأهل يكلفون أبناءهم القيام بمختلف النشاطات التي تقوم بها الجماعة لم يفكروا بانهم كانوا بالفعل يعلمون أولادهم وهكذا تعلم الأولاد بتقليد اللعب وبتقليد العمل .

٣) ثم تطورت الأمور فنشأت طريقة التقليد الواعي أو طريقة « المثل » فكان الكبار الذين يقلدهم الأولاد يعتبرون « المثل » الذي يتمشون على غراره .

---

(12) Grolier. Encyclopedia International, New York, 1971, Lamarck, Jean Baptist, Pierre Antoine De Monet, Chevalier de Lamarck. pp 327 - 328.

وهكذا لم تكن التربية البدائية ، كما هي التربية الحديثة المعقدة اليوم ، سوى تعريف الفرد إلى طرائق المجتمع باكسابه أو تعليمه ما توصلت اليه الحضارة . وقد اتسعت الآن هذه المنتجات الحضارية وانتظمت في مواضيع شتى تتطلب سنوات طويلة من الدرس والتحضير والاعداد — ان هذا النوع من التعليم هو تقليد صرف اذ على الصغار أن يتقبلوا بدون تساؤل أو تردد كل تقاليد قبيلتهم كما وصلت اليهم من أسلافهم — واجب الصغار أن يطيعوا بالتقليد عادات مجتمعهم وتقاليده . (١٣)

٤) وكانت الطريقة الأخرى المتبعة في التربية البدائية هي طريقة التجربة والخطأ ، وهذه الطريقة لا يمكن استعمالها الا في الحالات القليلة حين لا تتضارب مع العادات والتقاليد السائدة في القبيلة والمراسم المتبعة فيها . وعندما تنجح الطريقة تعاد وتمارس اما عندما تكون نتائجها مؤلمة فتترك وتهمل .

٥) وعندما انتظم أول صف ، بعد نقل عملية التعليم الى الكهنة ، أصبحت الطريقة المتبعة في التربية هي طريقة « التلقين » واقتصر معظم التعليم على نشاطات العبادة وممارساتها ، وتناولت : « ماذا يعمل الإنسان » و « كيف يعمل » . ولا تزال هذه الطريقة ، « طريقة التلقين » تمارس في مدارسنا اليوم.

تنظيم التعليم :

لم يكن للتعليم البدائي أي نظام أو تنظيم بالمعنى الذي نفهمه اليوم . لم تكن هنالك صفوف في المدارس أو مراحل للتدريس وكان التعليم يعطى بطريقة عرضية .

لم تكن هنالك إلا خطوة منظمة في التعليم البدائي وهذه كانت حفلة التكريس أو تخريج الراشد وادخاله في طور الرجولة وعضوية القبيلة . ويتم ذلك عادة عند بلوغ الرشد (أي سن البلوغ) بأخذ البنين ووضعهم في عهدة الكهنة أو الكبار الآخرين وتعريضهم لسلسلة طويلة من الحفلات والمراسم لاعدادهم للعضوية الكاملة في القبيلة . وفي اثنـاء هذه الاحتفالات يعلم الاولاد أسرار القبيلة والعلاقات بين الجنسين وكل التعاليم النظرية والعملية الضرورية لحيـاتهم ومصلحتهم ومصلحة القبيلة ، ويعـذبون أحياناً لاظهار قدرتهم على تحمل العذاب وتقبلهم له في سبيل القبيلة وقدرتهم على الاحتفاظ باسرارها . وقد استغل الكبار هذه المناسبات حيث يكون الشبان في أوج نشاطهم الفكري والعاطفي لكي يلقوا عليهم هذه الدروس المفيدة .

---

(13) **Monroe, Paul** ; op. cit. p 13.

« وبعد أن يجتاز المرشحون كل هذه المراسم والحفلات والامتحانات كانوا يصبحون أعضاء فاعلين في القبيلة . ويؤكد أفراد القبيلة ان هذه الاحتفالات والمراسم كانت تقوي جميع الذين يجتازونها وتثبتهم . فهي كانت تعطيهم القوة والشجاعة والحكمة وتجعل الرجال أقرب إلى الطبيعة وأبعد عن حب النزاع والخصام . وبالاختصار كانت تجعلهم رجالاً عظاماً طيبين . وقد كانت الأهداف الأساسية : (١) وضع الشبان تحت سلطة الكبار وجعلهم يطيعون أوامرهم ، و(٢) تعليم الصغار عادات حرمان النفس وتحمل المشقات و (٣) اعطاء الشبان الذين وصلوا إلى سن الرشد أسرار القبيلة المقدسة .

« ان هدف الاحتفالات والمراسم كان جعل الشبان أعضاء لائقين في القبيلة وفقاً لتقاليدها . كانوا يدربون في هذه الاحتفالات على بعض المبادىء لترشد حياتهم وأعمالهم . من هذه الأعمال مثلاً الاصغاء إلى الكبار وطاعتهم ، واشراك الآخرين في ثمار صيدهم ، وعدم التدخل في شؤون نساء القبيلة والتحرش بهن ، خاصة المقربين منهم وعدم أذية افراد قبيلتهم . وقبل أن يسمح للمبتدىء بأن يحتل محله في مجتمعه ويتزوج وينضم إلى مجلسه عليه أن يثبت بعض المؤهلات التي تمكنه من العمل على صالح الجماعة . » (١٤)

(14) **Hart, Joseph, K**; op, cit, pp 15 - 16.

مراجع الفصل الاول

1. **Aymard , André, et Auboyer, Jeannine ;** Histoire générale Des Civilisations, L'Orient et La Grèce Antique, Tome 1, Editions Ouedat, Beyrouth Liban, **1964.**

ايمار ، اندريه ؛ واوبوايه ، جانين : تاريخ الحضارات العام – الشرق واليونان القديمة – ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان . منشورات عويدات بيروت لبنان ١٩٦٤ .

2. **Browne, Lewis;** This Believing world, New York, Macmillan company, **1937.**
3. Grolier, Edcyclopedia International, New York, 1971. Lamarck Jean Baptist Piere Antoine De Monet, Chevalier de Lamarck.
4. **Hart, Joseph K ;** Creative Moments in Education, New York, Henry Holt & Comqany, **1931.**
5. **Monroe, Paul ;** Text Book in the History, of Education, New York, the Macmillan Company, **1905.**

٦. فريد نجار : قاموس الترجمة وعلم النفس التربوي ؛ منشورات دائرة التربية ، الجامعة الأميركية بيروت ، ص ١٦٩ .

7. **Shaw, Charles, Gray ;** Trends of Civilization and Culture' New York, American Book Company, **1932**
8. **Spencer, F. C.** Education of the Pueblo Child, New York, Columbia University Press, **1889.**
9. **Wilds, Elemer, Harrison ;** The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. **1950.**

الفصل الثاني

التربية الشرقية

المحافظة على الاستقرار الاجتماعي

(الشرق الأقصى والشرق الأدنى)

أخذت القبائل المتوحشة ، منذ الوف السنين ، تنطلق من حالتها البدائية إلى أولى الحضارات القديمة المتمدنة . فما هي مميزات هذا الانطلاق والانتقال من الهمجية إلى المدنية ؟ يقول البعض ان المدنيات القديمة بدأت عندما تعلم الإنسان السيطرة على قوى الطبيعة **كالنار والماء والهواء** ، واستخدام هذه القوى وتسخيرها لارضاء رغباته وسد حاجاته بواسطة صهر الحديد وصنع الأدوات والمعدات الحربية منه ، وري الأرض وزرعها ، واستخدام الصواري لتسيير القوارب فوق المياه . ويقول آخرون ان الحضارة بدأت أولاً عندما نشأت الطبقات الاجتماعية ، وأخذت الروابط الدموية التي كانت تربط القبائل البدائية تضعف ، وتحل محلها روابط المهنة الواحدة أو الواجبات والمسؤوليات المتشابهة التي أخذت تجمع المشتغلين بمهنة واحدة ، والذين يقومون بمسؤوليات واحدة وتربط بينهم . ثم نشأ التمييز بين الجنسين (الذكر والانثى) وبين العائلات وبين الأفراد وكانت هذه أولى نشأة نظام الطبقات . وأقدم الطبقات كانت طبقة « الكهنة » عند القبائل البدائية حيث انفصل الكهنة عن عامة الشعب . ثم تشكلت طبقة الصناعيين من أولئك الذين استطاعوا أن يصنعوا أفضل المعدات والأدوات ، أما طبقة الحاكمين فتشكلت من الأشداء الأقوياء الذين استطاعوا خوض الحروب والقتال . وهكذا نشأت الأقسام الاجتماعية الكبرى ، التي تعرف بالطبقات أو نظام الطبقات ، والتي لعبت دوراً مهماً في تاريخ العالم . (الجنود يحمون الشعب من الأعداء المنظورة ، والكهنة يحمونهم من الأعداء الخفية الخارقة للطبيعة ، والمنتجون يحمونهم من أخطار الجوع والبرد) .

وكان اختراع الكتابة أهم عامل ، بعد استخدام النار ، في نهوض الحضارات القديمة ،

لأن الكتابة مكنت الشعوب الأولى من جمع التقاليد والقوانين المقدسة التي تداولها الناس ثم حفظها ، وكانت هذه أول منهاج مدرسي وأول كتب مدرسية استخدمتها التربية ، كما كانت المدرسة هي المؤسسة التي تقوم بتعليم هذا المنهاج وهذه الكتب . (١)

من الصعب أن نحدد بالضبط أين بدأت الحضارات القديمة الأولى ، انما الأمر المتفق عليه ان آسيا كانت مهد الحضارات الأولى . ومن المرجح ان الحضارة ولدت أولاً في الأودية الخصيبة **ما بين النهرين** أو في سهول التيبت الماغولية ، ثم انتشرت شرقاً وجنوباً وغرباً . وتصنف المدنيات الأولى وجميعها شرقية (الشرقين الأقصى والأدنى) ، كما يلي(٢) : (١) **الحضارة الآرية** وتضم الهندوس والفرس ، (٢) **والحضارة الطورانية** وتضم المغول والصينيين . (٣) **والحضارة السامية** وتضم الحثيين ، والبابليين والاشوريين و (٤) **الحضارة الحامية** (نسبة الى حام) ، وتضم المصريين والمنوانيين (عصر البرونز) . ولكي نتعرف إلى موقف هذه المدنيات القديمة من التربية لا نحتاج إلى درسها جميعها بل يكفينا أن ندرس منها الصين ، والهند والفرس ، والمصريين والعبرانيين كنماذج تمثل الباقية .

فماذا كان ، بصورة عامة ، موقف هذه الشعوب الشرقية الأولى من التربية ؟ — ان التربية الشرقية هي مرحلة انتقال بين حضارة الشعوب البدائية وحضارات الشعوب الغربية . وكانت أهدافها وطرائقها خاضعة لسلطة خارجية . كانت الفردية مقموعة فالفرد لا قيمة له — ان التربية الشرقية تملي على الفرد ماذا يجب أن يفعل . وبماذا يجب أن يشعر ويفكر — وهي في الأساس اعادة الماضي ، أي جمع حياة الماضي في الفرد لكي لا يختلف عنها أو يتقدم عليها — وكان لسلطة التقليد قوة مطلقة في تحديد تربية الإنسان وتقرير مصيره . ففي الصين كانت السلطة للتقاليد العائلية وفي الهند لنظام الطبقات أما في فارس فللتقاليد العسكرية والعزة القومية وفي مصر للتربية العملية ، أما عند العبرانيين فكانت السلطة للتربية الدينية والقومية .

لم يكن هدف التربية الشرقية العام تكوين الإنسان الأمثل بل كان هدفها **اعداد الرجال والنساء لأن يكونوا لائقين لاحتلال مراكزهم في النظام القائم** ، والقيام بدورهم فيه ، وكانت محتويات التربية تتضمن الواجبات والمسؤوليات وتهمل الحقوق والامتيازات الفردية .

وسنجد عند درس مناهج التربية الشرقية التي سنتناولها في هذا الباب ميزة عامة ، هي ان التربية **كانت تهتم بتثبيت المقاييس والنظم القائمة وبالمحافظة على المثل العليا القومية** ولكنها لا تهتم بتكامل الفرد ونموه — هدفها انشاء حياة قومية مقبولة ثم المحافظة عليها — وكان النظام الذي

---

(1) **Wilds, Elemer, Harrison ;** The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. 1950, pp 35. 36, 37.

(٢) ايمار ، اندريه ؛ واو بوايه ، جانين : تاريخ الحضارات العام ، الشرق واليونان القديمة ، ترجمة فريد داغر وفؤاد ابو ريحان، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٤ .

تمشت عليه ناجحاً في تحقيق هذا الهدف . فقد حافظ الصينيون والهنود على حضارتهم القومية خمسة آلاف سنة .

الخلاصة ، لم يكن هدفهم تنمية الفرد أو تأمين التقدم الاجتماعي بل تأمين الاستقرار الاجتماعي ، استقرار المجتمع واستمرار الامبراطورية والعائلة والمحافظة على الماضي — وفي هذا كان يكمن سر نجاحهم ، لأن الهدف الجامد الثابت يسهل تحقيقه اكثر من الهدف المتحرك ، المتبدل .

« تجدر بنا الآن المقارنة بين أهدافهم ومثلهم العليا وأهداف العصر الحاضر ومثله العليا ، فنحن ننظر إلى المستقبل ونؤكد السير إلى الأمام (التقدم) ، هم نظروا إلى الماضي واكدوا المحافظة عليه لأجل الاستقرار .

« نحن نسعى إلى الفردية والحرية الشخصية ، وهذان أمران لهما فوائدهما ولكنه من الصعب جمعهما مع الاستقرار . ان السعي لابقاء الأشياء كما هي وللأخذ بالمكفول المجرب بدلاً من السعي وراء الجديد غير المجرب ، هما من عوامل الاستقرار ويجتمع هذان الأمران بقوة المثل العليا وليس بقوة الحكومة ، أما نحن فعلينا أن نسعى إلى نظام اجتماعي دائم وأن نحافظ بقدر ما نستطيع على فرديتنا .[٣]

ان النزعة للاكتفاء بالواقع والسير كالعميان وراء التقاليد (تقاليد الماضي) كانت ، وكأنها دوماً ، عائقاً في طريق التقدم الاجتماعي . ان فلسفة التسليم **بالأمر الواقع** التي سادت بين الشعوب الشرقية هي من أقدم الفلسفات التربوية . وكانت من أفعل المؤثرات في معظم تربيتنا النظامية ولا تزال من اكبر العوائق لانشاء نظام تربوي يكون قوة فعالة في توجيه الاصلاح الاجتماعي والتقدم .

التربية الصينية

رغم ان الصين من أقدم أمم العالم ، اذ تعود على الأقل إلى أربعة آلاف سنة خلت ، فانها لم تتقدم إلا قليلاً طوال تلك المدة . بقيت حياة الشعب مجمدة في أشكال ثابتة ولم تتغير مثلهم العليا ومعتقداتهم — وقد لخص مثلهم العليا الرئيسية كونفوشيوس ، في القرن السادس قبل الميلاد (٥٥٠ — ٤٧٨ ق م) الذي اعتبرت كتاباته عصارة حكمة القرون السالفة ودليل القرون اللاحقة — ومن كتاباته وكتابات تلاميذه من بعده والممارسات التربوية التي لا تزال تمارس

(3) **Messenger, J. F.; On Interpretive History Of Education, New York, Tomas Y, Company, 1931, pp 19 - 20.**

إلى حد كبير حتى يومنا هذا تجمعت معلوماتنا عن التربية الصينية .[٤]

أهداف التربية :

أهم أمنية الشعب الصيني أن يبقى كما هو وأن يحافظ على الماضي . فالانحراف عن العادات الموروثة ينظر اليه باستياء بالغ . كانت تربيتهم الرسمية مقتصرة على روائعهم (الكلاسيك) القديمة وكل مجهودهم يوجه لصب المستقبل في قالب الماضي . « كل وضع وكل حركة من حركات الجسم مقررة مسبقاً بنظام من القوانين كثير التعقيد . وكانت ديانتهم تقتصر تقريباً على احترام أسلافهم . كما كان هدفهم تأمين ساوك حسن النظام والانتظام بدلاً من مناقب أخلاقية قوية قائمة على أسس عميقة . وهدف التربية الوحيد هو اعداد الفرد لكي يحتل مكاناً في نظام اجتماعي ثابت »[٥]

والحقيقة بنظر الصينيين هي ما اتفق عليه في الماضي ، والفضيلة هي مراعاة العادات الثابتة . والأخلاق بنظرهم هي المعرفة ولذا أصبح نظامهم الخلقي (الأدبي) نتيجة تعلمهم تقاليد الأسلاف واتقانها .

وبما ان ديانتهم كانت في الدرجة الأولى عبادة الأسلاف بدأت تربيتهم بتدريب الولد على القيام بالواجبات « السير في طريق الواجب » كما سموه ، بجميع الدقائق والتفاصيل التي حددت واجبات الأجيال الأولى في حياتهم وعلاقاتهم ، تلك التفاصيل التي لم تتبدل منذ قرون والتي حظيت بموافقة الأسلاف في الأجيال الأولى . ولما كانت التربية الصينية تستهدف المحافظة على ما هو موجود دون تغيير أو تعديل لذلك أصبحت وظيفة التربية تدريب الزعماء على معرفة التعاليم القديمة أي جميع القواعد التقليدية التي تسيطر على نظام المجتمع والتي تشمل العلاقات الصحيحة في الحياة — كما تدرب عامة الشعب على أساليب السلوك الصحيح بكامل تفاصيلها وكل اعتبار من اعتبارات حياتهم .

ومن أجل ضمان استمرار الامبراطورية كان الحكم يسلم إلى القادة الذين اثبتوا تمسكهم بالتقاليد القديمة كما نصت عليها كتبهم المقدسة . وكان على هؤلاء أن يتدربوا على اتقان

---

(4) **Monroe, Paul ;** Text Book in the History of Education, New York, the Macmillan Company, 1922, pp 19 - 36.

(5) **Emerson, Mabel I.** Evolution of the Educational Ideal, Boston, Haughton Mifflin Company, 1914, pp 5,

المعرفة القديمة المتوافرة لدى النظام الاجتماعي المعترف به ، وعلى جماهير الشعب أن يتدربوا على السلوك وفقاً لمتطلبات الواجب .

نوع التربية :

ان نوع التربية الذي اكده الصينيون بشدة كان التربية الخلقية « Moral Training » وتستعمل هنا لفظة خلقي « Moral » بمعناها الاشتقاقي ،لأن الخلقية تأتي من لفظة « Mores » (العرف) [٦] اللاتينية ومعناها الآداب والعادات والسلوك المعترف به . وكانت التربية الصينية في الدرجة الأولى تدريباً في العادات والواجبات وقوانين السلوك . أما التربية المهنية وتدبير المنزل والتربية العسكرية والتربية الوطنية . الخ ... فكانت جميعها مؤمنة ولكنها تبنى على الأساس العام – الأخلاق –

أما التربية البدنية فلم يحسب لها حساب ولذا لم يشتهر الصينيون بهذا الباب كما وانهم لم يشتهروا بالممارسات الصحية – واكد الصينيون دوماً على السلم اكثر مما اكدوا على الحرب وكانوا يفضلون الفكر على القوة الجسدية .

منهج التربية :

ان أساس التربية الصينية ، هو فلسفة كونفوشيوس (من كبار مفكري العالم) وتعاليمه والكنفوشيوسيه هي فلسفة اجتماعية اخلاقية وليست ديانة وكان كونفوشيوس مؤسس نظام اخلاقي عملي نفعي يجب تلقينه لكل فرد بواسطة العائلة والدولة . ومنذ عهده ، في القرن السادس قبل الميلاد حتى منتصف القرن الحاضر كانت الكتابات المنسوبة إلى كونفوشيوس هي المواضيع الأساسية للدراسة في جميع المدارس الصينية ، وقد خصصت هذه الكتابات في معظمها لعرض تفاصيل السلوك والتصرف المتعلقة بكل ظرف من ظروف الحياة وعلاقات الناس بعضهم مع بعض .

وترتكز تعاليم كونفوشيوس حول العيش الشريف ، وتضع الأهمية الأولى على العلاقات البشرية والنظام والواجب والأخلاق ، وتوكد قيمة خمس علاقات أساسية هي : (١) العلاقة بين الحاكم (الملك) والمحكوم (الشعب) (٢) العلاقة بين الأب والابن (٣) العلاقة بين الزوج والزوجة (٤) العلاقة بين الأخ والأخ (٥) العلاقة بين الصديق والصديق . وتقوم هذه العلاقات على أساس الطاعة . فالشعب يجب أن يخضع للحاكم والابن يجب أن يخضع للاب ، والزوجة لزوجها ، والأخ لأخيه والصديق لصديقه . وقد وضع كونفوشيوس أيضاً خمس فضائل

---

(٦) نجار ، فريد؛ قاموس التربية وعلم النفس التربوي : منشورات دائرة التربية، الجامعة الأميركية بيروت، ص ١٦٩ .

أساسية ، (١) الاحسان أو عمل الخير العام – (٢) والعدالة أو عدم التحيز (٣) والنظام أو التمشي بحسب العادات والعرف المتبع . (٤) والحكمة أو استقامة القلب والعقل (٥) والامانة أو الاخلاص التام .

وهنالك تسعة كتب كلاسيكية صينية منسوبة إلى « كونفوشيوس » وتلاميذه . خمسة منها تدعى « الروائع » « Classics » وهي :[٧]

(١) « شوكنغ » (Shuking) أي كتاب التاريخ وهو خلاصة لتاريخ حقبة ما قبل عهد « كونفيوشيوس » .

(٢) «شَي كنغ » (Shi King) أي كتاب (أودس – O des) وهو خلاصة شعرية .

(٣) « يِي كنغ » (Yi King) أو كتاب التغيرات وهو خلاصة للتنبؤات والعرافة .

(٤) « لي كَي كنغ » (Li Ki King) أو كتاب الحقوق وهو خلاصة للآداب الاجتماعية .

(٥) « هِسِيْو كنغ » (H siao King) أو كتاب الورع البنوي .

لا ريب ان مضمون بعض هذه الكتب قد كتبه « كونفوشيوس » نفسه ، ولكن القسم الأكبر منها قد جمعه ونشره . أما الكتب الأربعة الأخرى فقد كتبت في عهد لاحق وكتبها تلاميذه ، وهذ الكتب هي الآتية :

(١) « تَا هِسيو » (Ta Hsio) أي التعليم العظيم .

(٢) « تشنغ ينغ » (Chung Yung) أي عقيدة الوسط .

(٣) « لُون يُو » (Lun Yu) أي أقوال « كونفوشيوس »

(٤) « منغ – تز » (Meng — Tze) أي أقوال « منسيوس » (Mencius) .

وتشتمل هذه الكتب الأربعة على تقارير ومناقشات جرت بين « كونفوشيوس » وتلاميذه وتتضمن أمثالاً وعقائد مختلفة ذات طابع أخلاقي وسياسي . وهي بمثابة الكتاب المقدس لدى الصينيين الذي يوجه حياتهم وسلوكهم اليومي . وكانت معرفة هذه الكتب معرفة وافية شرطاً ضرورياً لمن يود الحصول على مركز أو وظيفة رسمية .

---

(7) E by, Frederick, and Arrowood, F ; The History and Philosophy of Education Ancient and Medieval, New York, Prentice - Hall, Inc., 1940, pp 36 - 102.

وسائل التربية :

ان مركز التدريب لمعظم هذه الواجبات والفلسفة التي تقوم عليها كان من الطبيعي البيت. فمعظم العلاقات التي بحثها كونفوشيوس كانت تدور حول حياة العائلة . وحتى بعد ان اعتمد الصينيون المدرسة كوسيلة نظامية للتربية بقيت العائلة الوسيلة لتربية الولد التربية العملية كما كانت عند الشعوب البدائية . فجميع الأشياء العملية والمنزلية كان يتم التدريب عليها في العائلة .

لم يقم في الصين نظام للتعليم الرسمي لكن المدارس الخاصة كانت تشجع حتى أصبح في كل قرية مدرسة ابتدائية تقريباً . وكان التلاميذ يدفعون أقساطاً مدرسية ويختار للتعليم في هذه المدارس المرشحون الذين لم ينجحوا في الحصول على وظائف رسمية . ولم تقم أبنية للمدارس بل كانت المدرسة أو الصفوف تعقد في بيت المعلم أو في بيت أحد الآباء الأغنياء أو في معبد قديم أو أي مكان آخر ولم يحاولوا أن يزينوا غرفة الصف أو يجملوها . اما الإقبال عليها فكان قليلاً لأن المدارس لم تحضر إلا أولئك الذين يودون الدخول في الوظائف الحكومية بعد اجتياز الامتحانات الرسمية المعدة لذلك ، فالمدارس لم تحضر إذاً للمهن الأخرى كمهن الحياة اليومية والحرف المختلفة .

وكانت هذه المدارس الخاصة تفتح أبوابها نظرياً لجميع أفراد الشعب وكذلك كانت الامتحانات الرسمية ، ولكن لما كان الاستعداد لهذه الامتحانات يتطلب وقتاً طويلاً مما يحتم وجود فراغ كاف لدى التلميذ فلم يتقدم اليها إلا أولاد الطبقة العليا ، الذين كان بامكان أهلهم الاستغناء عن خدماتهم وتفريغهم كلياً إلى الدراسة .

تنظيم التربية :

كانت المدارس الصينية على مرحلتين :

(١) المرحلة الابتدائية وكانت متناهية في الرسميات والشكليات .

(٢) المدارس العليا ، وكانت تعد التلاميذ لاجتياز الامتحانات الحكومية ، وهذه كانت أعلى درجة في النظام التعليمي .

يدخل الولد المدرسة في سن السابعة ، وتبدأ الدروس عند شروق الشمس في الصباح حتى الساعة الخامسة مساءً مع فرصة ساعة واحدة للغداء . أما السنة الدراسية فهي اثنا عشر شهراً وبعد أن ينهي الولد مرحلة الدراسة الابتدائية يتابع دراسته على نفسه ، وهذه المرحلة من الدراسة العليا كانت تتميز بسلسلة من الامتحانات التي تشرف عليها الحكومة وينال التلميذ في نهايتها شهاداته ، أما هذه الشهادات وما يصحبها من امتيازات وحقوق ، فكانت لا تمنح إلا للاقلية الذين يبرزون في الامتحانات الرسمية .

أما الامتحانات التي تسبق الامتحانات العليا فتجري في كل من المقاطعات والملحقات والذين يجتازونها بنجاح يمنحون القاب شرف تشابه لحد ما الشهادات التي نسميها اليوم الاجازة أو بكالوريوس عاوم ، ثم ينتخبون ليحتلوا مراكز شرف بين طبقة الأشراف ويستطيع هؤلاء أن يقدموا فيما بعد امتحاناً آخر ينظم في الأقاليم المختلفة واذا ما اجتازوا هذا الامتحان نالوا شهادة مماثلة نوعاً ما لشهادة الماجستر (M.A.)، ثم ترتفع مكانتهم الاجتماعية، أما الامتحانات في المرحلة الأخيرة فتستمر ١٣ يوماً وهي معادلة لحد ما امتحانات الدكتورا عندنا اليوم وتجرى في العاصمة فقط والذين ينجحون في هذه الامتحانات يحق لهم أن يعينوا في الوظائف الحكومية فوراً ، واذا اجتازوا هذه الامتحانات بتفوق حق لهم أن يعينوا أعضاء في **الوزارة الامبراطورية**[٨].

طرائق التربية :

لقد كان كونفوشيوس معلماً ممتازاً جذب اليه التلاميذ من كل صوب ، وارتبطوا به بروابط من الاخلاص والولاء ، وتشبه طرائقه الطرائق التي استعملها سقراط بعد قرنين من ذلك التاريخ « فقد كان يسير من مكان إلى مكان يصحبه أولئك الذين كانوا يتلقون أراءه » . وكان يطلب من تلاميذه أن يفكروا بتعاليمه اذ كان يقول : « التعلم دون تفكير عملٌ ضائع ، والتفكير دون تعلّم خطر » . وكان يتوقع تطبيق تعاليمه تطبيقاً عملياً ، ويقول : « قد يكون باستطاعة الإنسان أنْ يحفظ ويسمع **ثلاثماية قصيدة** ولكنه لا يعرف كيف يتصرف أو يسلك ، فما نفع علمه ؟ »[٩]

وكان يحترم تلاميذه ككل المعلمين العظام ويقول : « ان التلميذ الصغير جدير بالاحترام ، فمن يدري بأن معرفته قد تكون في المستقبل مساوية لمعرفتي » . — كما وانه يكيف تعاليمه وفقاً **لحاجات تلاميذه وامكاناتهم** فاذا ما سأله تلاميذه ما اذا كان يجب أن يطبقوا فوراً ما تعلموه : كان يجيب الواحد « اسأل أباك وأخاك أولاً » ، ويجيب الآخر نعم باشر بذلك فوراً » وعندما سئل لماذا أجبت هكذا أجاب قائلاً : « ان الأول يتمتع بنشاط فائق لذا استمهلته ، أما الثاني فبطيء متهامل لذا حثثته على التقدم » — وهكذا نرى ان الفروق الفردية كانت تعالج منذ ذلك العهد البعيد .

يلح المربون اليوم على مواجهة التلاميذ بظروف الحياة العملية وانهم بذلك يعودون إلى **طريقة كونفوشيوس** لأن هذا لم يكن يحصر تعليمه في غرفة الصف فقط . وكان يقيم علاقات وثيقة بينه وبين تلاميذه ولم يخذل يوماً تلميذاً كان مُجدّاً في طلب العلم .

لكن اتباعه أخذوا من بعده يبتعدون عن طريقته تدريجياً ، فاصبحت المدارس تتقيد

---

(8) **Wilds,** op cit, pp 44 - 46.
(9) **Wilds,** op cit, pp 46 - 47.

بالشكليات كثيراً ولم تعد تنمية الفكر هدفاً من أهداف التربية بل أصبح هدف المعلم اجبار التلميذ على الحفظ والتذكر وأصبحت عملية التعلم مقتصرة على الحفظ فقط ، مع التأكيد على التقليد المباشر الحرفي ، واما الانضباط فكان شديداً وقاسياً ، والتلميذ ينفق كل وقته في حفظ الألفاظ أما اذا لعب أو اشتغل فذلك معيب له .

وقد خُصصت السنوات الأولى من حياة الطفل لتعلم قراءة اللغة الصينية وكتابتها وهذه عملية شاقة جداً بسبب تعقد الحُروف المستعملة . وكان التعليم يتم بالترديد « بصوت عال » يقوم فيه كل تلميذ إلى أن يتم حفظ الكلمات ، ثم يسلم الكتاب إلى المعلم ويسمع له غيباً ما حفظه ، وكان عليه أن يعيد لفظ الأحرف بسرعة وبدقة وبالترتيب كما ورد في الكتاب دون أخطاء .

وكان يطلب إلى التلميذ حفظ الكتب المقدسة حفظاً تاماً . أما في الصفوف المتقدمة فكان يطلب إلى التلاميذ بعض التفسير لهذه الكتب ثم كتابة بعض المقالات على نمط الكتب المقدسة وكان التقليد الواعي (القصدي) هو الأسلوب المتبع ، وكلما قرب المقال بالأسلوب والتركيب والفكر من الكتب الأصلية كلما زادت قيمته .

ان هذه الطرائق والأساليب التي تمشت عليها التربية الصينية بعد كونفوشيوس لا تنمي المبادرة في التلميذ ولا تنشط قوة الابداع والخلق فيه بل تنمي الحفظ والملاحظة لدقائق ما يحفظ والقدرة على التقليد .

التربية عند الهنود

أهلتْ شبه الجزيرة الهندية منذ اكثر من اربعة آلاف سنة حيث نزح اليها فرع من العرق الاري (Aryan) المعروف بال « بروتونوردك Proto – Nordic » وهؤلاء هم من العرق نفسه الذي انحدر منه الأوروبيون الحديثون. ولما كان مناخ الهند، ولا يزال، يوهن القوى الجسدية ويمنع النشاط الجسماني ، فلم يتمكن الهنود من بذل الطاقة الجسدية الضرورية للقيام بالأعمال التي تتطلب نشاطاً جسدياً كافياً وقوة بدنية وفكرية ، بيد ان خصب الأرض وغناها مكّنا الهنود من العيش دون كثير عناء . لكن جودة الأرض جذبت اليها أنظار شعوب أخرى مما اضطر الهنود إلى انشاء قوة عسكرية لحماية البلاد من عدوان الغزاة . على أن طبقة الجند لم تكن الطبقة المسيطرة لأنها كانت خاضعة لسلطان طبقة الكهنة .

ان المناخ الحار وطبيعة الشعب الفاترة من حيث النشاط الجسماني ، جعلت الهنود ينحون إلى فلسفة حالمة ، فتزايد الشعب وتزايدت الآلام بسبب الأمراض والفقر والبؤس . وكان من هذه الأعباء وظروف الحياة وتقلبات الزمان ، التي كانت خارج نطاق السلطة البشرية ، ان نشأ دين يقوم على الاعتقاد بالقضاء والقدر والتصوف . كان الدين السائد في الهند وما يزال

دين « البرهمية » . ومن تعاليم هذا الدين ان العالم « وهم وخداع » ، وان « البرهما » « روح الكون العليا » « الذات العليا » هي الحقيقة الوحيدة ، وان هدف الحياة هو ضياع الشخصية الفردية والاندماج « بالبرهما » . ولما كانوا يعتقدون ان « البرهما » موجود في كل شيء أخذ الشعب يمارس نوعاً من تعدد الآلهة فعبدوا أشياء مختلفة في الطبيعة باعتبار هذه الأشياء أجزاء القاها « البراهما » . وكان الدين بين الطبقات العليا « فلسفة التصوف » بينما كان بين الطبقات الدنيا « خرافة » .

لم ينشأ في مكان ما في العالم نظام طبقي متحجر كما نشأ في الهند . فقد كان هذا النظام تمييزاً اجتماعياً معقداً يمنع أفراد الطبقة الواحدة من الأكل أو النوم أو التزاوج مع أي فرد من أفراد الطبقة الأخرى . وقد يفقد الهندي طبقته إذا خالف أياً من القواعد الكثيرة المعقدة التي تتمشى عليها قبيلته ، ولن يستطيع أن يرتفع من طبقته إلى طبقة أعلى ، قد يستطيع الانحدار إلى طبقة أدنى من طبقته أو قد يطرد من الطبقة التي هو فيها ، ولكنه لن يترفع إلى طبقة أعلى .

انقسم الهنود منذ القدم إلى أربع طبقات وكل طبقة كانت مقسمة إلى طبقات فرعية . كان البراهميون على رأس هذه الطبقات الاجتماعية، وهم يتألفون من الكهنة والمعلمين والحكام المفكرين ، وتأتي بعدهم الطبقة الثانية وهي طبقة «الكشاتريا» (Kashatriyas)،وتتألف من الجنود والمحاربين ، ثم تأتي طبقة « الفازيا» (Vaisyas)، وتتألف من الصناعيين والتجار والصيارفة . أما الطبقة الدنيا فهي طبقة «السودرا» (Sudras) أي العمال والخدم والعبيد[١٠] .

أهداف التربية :

لقد سيطرت على التربية الهندية المعتقدات الدينية ونظام الطبقات ، فكان هدف التربية عندهم ، أولاً . الاستعداد إلى الحياة المقبلة وليس النشاط في الحياة الحاضرة،والمحافظة على نظام الطبقات ، ثانياً .

لذلك كان على النظام التربوي أن يهتم بتنشئة المواقف العاطفية بدلاً من تحريك الرغبة في طلب المعرفة . وكان هدف التربية الأخير بلوغ « النيرفانا » (Nirvana) أي الفناء ، أو الانطفاء والاتحاد بالبراهما . وهي حالة من الطمأنينة والراحة التامة الهنيئة التي يمكن التوصل اليها عن جدارة تتمثل بضبط النفس . ولم تكن إلا طبقة الكهنة بحاجة إلى تربية فكرية ، واكثر ما تحتاج اليه هذه الطبقة هو القدرة على انشاد الأناشيد الوطنية الدينية القديمة ، وعلى ترتيل الصلوات والقيام بالأسرار المقدسة . وقد أنشأ البراهمة ، بوصفهم الممثلين الرسميين

---

(10) **Knight, Edgar w ; : Twenty Centuries of Education, pp. 40 - 44, Boston Grin and company, 1940.**

للدين ، نظاماً دقيقاً من الطقوس على كل كاهن أن يتدرب عليه . وكانت الطبقات الأخرى تعتمد كلياً على البراهمة من أجل خلاصهم لأنهم يعتقدون ان هذه الطقوس كانت من القوة بدرجة تجعل الآلهة تحت أمرة الكهنة ورهن طلبهم ، كما كانوا يعتقدون ان هذه الطقوس الكهنوتية هي أملهم الوحيد للحصول على السعادة في هذا العالم وفي العالم الآتي .

لقد فعل البراهمة ، بواسطة تعاليمهم ، كل ما في وسعهم للاحتفاظ بالحقوق الخاصة والمميزات الطبقية التي اكتسبوها عن طريق نظام الطبقات . وبوصفهم أعلى طبقة ويتمتعون بأعظم نفوذ، فقد كانوا القوة الدائمة التي حافظت على النظام . وكانوا يقدمون للفرد أقل مقدار من التربية ، المقدار الذي يكفيه للقيام بواجباته الدينية التي تلائم طبقته ، ثم يسمحون له أن يحصل بمجهوده الخاص أو بمجهود عائلته على التعليم المهني الضروري للقيام بدوره في الحياة ، فان كان صناعياً يتعلم صنعة ، أو مزارعاً يتعلم الزراعة، أو تاجراً يتعلم التجارة الخ .. لقد حاول البراهمة عمداً قمع أية حركة ديمقراطية في الهند منذ عهد « غوتاما » (Guatama) « بوذا » حتى « ماهاتاما غاندي » .

نوع التربية :

ان التربية الهندية هي في الدرجة الأولى دينية — كما كانت اخلاقية مثل التربية الصينية بحيث تلقن المرء العادات وتقاليد السلوك التي تعده لاحتلال مكانه في الحياة .

أما التربية الفكرية فقد كانت وقفاً على أعلى الطبقات، ومحرمة على باقي الطبقات، وكانت نظرية ومحصورة بمعرفة التقاليد القديمة ، وينقصها التطبيق العملي لتحسين أحوال الحياة أو التقدم العلمي للجنس البشري . أما الطبقة السفلى وطبقة النساء فلم يسمح لهما بالتربية الفكرية البتة . فالمرأة ليست سوى لخدمة الرجل ولانجاب الأولاد .

أما التربية البدنية أو الصحية فلم يكن لها مكان في التربية الهندية كما كانت الحال عند الصينيين . وكان التعليم المهني والمنزلي والعسكري يتم بالطرق البدائية أي التقليد والممارسة .

منهج التربية :

كان منهج التربية « البرهمية » الرئيسي تعليم الأدب المقدس المكتوب باللغة السنسكريتية وقد درس البراهمة « الفيدا »(Vedas) أي كتب الهنود المقدسة ، و « الانكا» (Angas)أي الكتب العلمية والفلسفية ، وكتاب الآداب والعادات التقليدية . وتضمن منهج التدريس في كليات البراهمة أنواع المعرفة التي نسميها اليوم التاريخ والنحو والشعر والقانون والرياضيات والفلك والطب ...

وقد اهتم الهنود الأول، بعض الاهتمام، بالعلوم الرياضية والتأملية ، فالأرقام الحسابية التي

يقول الغربيون أنها عربية ، نشأت أول الأمر في الهند ، ونحن العرب نسميها أرقاماً هندية . وقد استنبط الهنود ، في القرن الخامس قبل الميلاد ، نوعاً من الجبر كان أرقى بكثير من الجبر الذي استخدمه اليونان . كما كانت لهم بعض المعرفة بالطب والقواعد وعلم البيان (الفصاحة) . لكنهم لم ينجزوا بواسطة هذه المعرفة إلا القليل لأنفسهم أو للحضارة .

لم تتناول تربية الهنود الفضائل الناشطة كالطموح والاعتماد على النفس والمسؤولية الشخصية ، بل اهتمت بالفضائل الجامدة كالصبر وحب السلام واللطف والهدوء والوداعة ، فتعلم الهنود اللطف واحترام الأهل والكبار واطاعة السلطة . وكان التقدم والازدهار والوطنية بالنسبة اليهم أموراً غريبة[١١] .

الوسائل والتنظيم :

كانت تربية الهنود تتم في معظمها بواسطة العائلة والبيت . كان لديهم بعض المدارس الابتدائية لكنها كانت بسيطة جداً . فالولد يذهب إلى المدرسة في سن السابعة ، والمعلمون كانوا من البراهمة وكان بدل خدماتهم يدفع عن طريق الهدايا لأنه كان من العار أن يقبل المعلم اجراً . وكان المعلم محترماً جداً يفوق احترامه احياناً احترام الأهل . وكانت المدرسة في الفضاء تحت شجرة .

أما التعليم العالي فكان يتم في ال « باريشاد »(Parishad) أي الكلية حيث كان يتعلم البراهمة ، وكانت الدراسة في هذه المدارس تمتد حتى اثنتي عشرة سنة . ولم يسمح بادىء الأمر إلا للبراهمة بدخول هذه المدارس ثم سمح فيما بعد لأعضاء طبقة الجنود والتجار بدخولها بعض الأحيان .

طرائق التربية :

كان الحفظ والتقليد الطريقتين الأساسيتين في التعليم عند الهنود . وقد كتبت كتبهم الدينية باسلوب غنائي بحيث يسهل حفظها ، وكان الأولاد يرددون هذه الأناشيد حتى يحفظوها دون خطأ . أما الكتابة فكانت تعلم بتقليد المعلم أولاً بالكتابة على الرمل ثم بالكتابة على صفائح النخيل . والمقطع الآتي المأخوذ من موسوعة التربية يلخص بوضوح طريقتهم الشفوية في التعليم[١٢] :

« يجب أن يجتاز المعلم المنهاج المقرر وأن يقوم بجميع الواجبات المفروضة على التلميذ البرهمي قبل أن يسمح له بالقيام بمهمة التعليم ولا يجوز أن يعلم إلا الذين يخضعون لجميع قواعد

---

(11) Knight, Ibid, pp. 50 - 52

(12) Sonnenschein, Cyclopedia of Education, «School of Antiquity», P. 382.

التلمذة في اثناء الدراسة . ويجب أن يقيم في مكان مناسب ، واذا كان له تلميذ أو تلميذان يجب أن يجلسا إلى يمينه واذا كان العدد أكثر من ذلك فيجلسون حيث يشاؤون . وعند بدء كل درس يقبّل التلاميذ قدمَ استاذهم ويقولون له اقرأ يا سيدي . ثم يبدأ المعلم بقراءة الكلمات والتلاميذ يعيدون من بعده حتى يتعلموها ، ويستمرون هكذا حتى ينهوا حوالي ثلاث فقرات ، ثم يعيدونها مرة أخرى ، ويباشرون بعد ذلك بحفظها غيباً فيلفظون كل مقطع بتشديد » .

ان النتائج العملية لهذا النظام في التحفيظ تظهر في اللغة السنسكريتية التي حافظت على نقاوتها وسلامتها وخلت من أي لفظ دخيل - حتى ان كتب « الفيدا »(Vedas) وصلت إلى عهدنا هذا دون أي تغيير في لفظة واحدة أو مقطع واحد .

لم يكن الانضباط شديداً . لأن التعليم الجيد يجب أن يُلقن إلى التلميذ في جو بهيج ويجب أن يكون المعلم لطيفاً مع التلميذ ويستعمل معه عبارات لطيفة .

التربية عند الفرس

كان الفرس فرعاً من العرق الآري الذين نزحوا غرباً واستوطنوا في السهول الواقعة جنوبي بحر قزوين المعروفة في الأصل باسم ايران ثم فارس . وقد كان مناخ هذه السهول منعشاً وأرضهـــا قليلة الخصب وهكذا وجد العرق الآري مجالاً لاستخدام مميزاته الناشطة القوية ، هذا المجال الذي لم يجدوه في الهند . وعندما أخذ السكان بالتكاثر بدأوا يغزون جيرانهم خاصة في الغرب وهكذا نشأت فيهم رغبة قوية للاحتلال العسكري وتأليف امبراطورية عالمية . وقد تسببت هذه الظروف القاسية في ايجاد شعب محارب لم يلبث ان امتص البلدان المجاورة وأسس حضارة عالمية . وبسبب هذا الطموح العسكري نشأت طبقة محاربة بدلاً من طبقة الكهنة واحتلت الأهمية الأولى .

وبما ان حياة الفرس كانت نزاعاً من الناحية الاقتصادية والناحية العسكرية ، كان من الطبيعي ان تكون ديانتهم وفلسفتهم ذات طبيعة محاربة وميالة إلى جذب الناس إلى ديانتهم . وكان « زرادشت » (Zoroaster) (سنة ٥٠٠ ق م) وهو أعظم زعيم ديني ايراني ، محارباً وقد اخذت روحه ، بعد وفاته ، ترافق « الزرادشتية » المحاربة وتنتشر بسرعة فائقة انتشار النار التي كانت رمزها المقدس . ان الجيوش الجرارة التي كانت تتأثر بوحي ديانته جعلت امبراطورية « مادي وفارس » من أعظم الامبراطوريات التي عرفها العالم ، وقد أصبحت تعاليم « زرادشت » ، « شريعة مادي وفارس » وبعد وفاته بقرن واحد كان أحد ملوك الفرس

« الزرادشتيين » على أبواب أثينا وقد انتشرت ديانة النبي الايراني من الهند حتى اليونان وكانت ديانة الشرق .

أهداف التربية :

لقد استهدفت التربية الفارسية القوة في التثقيف بدلاً من التهذيب والرقة . وكان هدف التعليم الغالب هدفاً عملياً وليس أدبياً أو مدرسياً . لم يرغب الفرس في انشاء مجموعة عظيمة من العلوم والآداب بل شاؤوا انشاء أمة محاربة تتألف من جنود أقوياء وشجعان يتمتعون بجميع الفضائل التي تتضمنها لفظة « الجندي الجيد ». كانت تربيتهم عسكرية في أهدافها الرئيسية بدلاً من أن تكون دينية ، وكانت تستهدف التركيز على المثل العليا القومية ونشرها ، وبالخلاصة كانت تعمل على انشاء حياة قومية .

لم يؤكد الفرس المحافظة على نظام الطبقات بواسطة التربية كما فعل الهنود . وكان التمييز الطبقي ، باستثناء السلالة الملكية وسلالة الكهنة ، قائماً على أساس الثروة وليس على أساس الوراثة . وقد مارس الفرس نوعاً من الحرية الفردية بدرجة لم نجد لها مثيلاً في البلدان الشرقية . وبنتيجة احتكاكهم بالشعوب الأخرى ونمو امبراطوريتهم نشأ فيهم موقف ملائم للتغيير والتطور .

كان الهدف الأخير للفرس كسب الممتلكات المادية والثروة ، وربما كان هذا هو السبب في قصر حياة حضارتهم بالنسبة إلى الحضارتين الصينية والهندية . كانت ثقافة الفرس قائمة كلياً على أسس مادية وعندما فقدت هذه الأسس ذهبت حضارتهم . أما إذا فقد الهنود ثروتهم المادية فتبقى لهم الأهداف الصوفية ، واذا فقد الصينيون ثروتهم المادية تبقى لهم تقاليدهم العائلية الثابتة . ولكن عندما فقد الفرس ثروتهم المادية فقد فقدوا كل شيء وانتهى أمرهم[١٣] .

نوع التربية :

نتيجة لهذه المثل العليا ، المادية والقومية ، أصبح التدريب العسكري والتربية البدنية كل أنواع التربية المهمة — وكان هذان النوعان من التدريب اجباريين لكل فتى وبخاصة أولاد الطبقة الارستقراطية . وكانت تقدم تربية دينية نظامية لطبقة الكهنة الذين يسمون « الماغي »(Magi) . أما التربية الخلقية فقد كانت تتم تحت سلطان معتقداتهم الدينية بحيث يُعلّم كل ولد فضائل الحياة الفاضلة الضرورية لخلاصه في الآخرة .

أما التربية المهنية الضرورية للعمل في النشاط اليومي فكانت تؤمن لأبناء الطبقات الدنيا

---

(13) **Graves, F. P.**; Education before the Middle Ages, pp. **55 - 102**, New York The Macmillan Company, **1909**.

كما تؤمن التربية المنزلية للبنات في بيوتهن . وكانت المرأة محرومة من التعليم النظامي كما كانت في معظم بلدان الشرق .

منهج التربية :

ان أهم ما يتضمنه المنهاج الفارسي التمارين الرياضية والألعاب والتربية البدنية . وذلك لكي ينشأ في الولد الصبر والجلد ونكران الذات وضبط النفس . فكانوا يمرنونهم بشدة وحماسة على الركض وحمل الحجارة والرماية بالقوس والنشاب ورمي الحربة وما أشبه ذلك من ركوب الخيل والصيد والسباحة وتحمل البرد والجوع والنوم في العراء وقطع المسافات البعيدة والاكتفاء بكميات قليلة من الطعام . كل ذلك كان يجريه الولد ويخضع اليه لكي يعده لكسب المؤهلات والمهارات الضرورية للحرب .

وتأتي في المرتبة الثانية من الأهمية الخصال الخلقية كالصدق والعدالة والشكر والامتنان والشفقة والأمانة والطهارة والاجتهاد التي كانت تنشأ في الولد من تعاليم « زرادشت » كما جاءت في كتبه المقدسة ، وتقع هذه الكتابات في « زند – افستا » (Zend—Avesta) الذي يعتبر توراة الفرس . وقد تناقل القوم اجزاءه القديمة بالسماع ، لأنهم لم يلجأوا إلى الكتابة إلا في أواخر القرن السادس[١٤] . ويتكون من « فنديداد » (Vendidad) وهو عبارة عن مجموعة من الشرائع والقصص ، و « فسبراد» (Visperad) وهو عبارة عن المراسم ، و « ياسنا» (Yasna) وهو عبارة عن مجموعة من الترانيم . بواسطة هذه الكتابات كان الفتيان يتلقنون تعاليمهم الدينية والمعلومات الخلقية .

أما الكهنة فكان لهم نظامهم التربوي الخاص ، وكان يتضمن هذا المنهج بالاضافة إلى « زند – افستا» (Zend—Avesta) تعلم الفلك والطب والقانون والتكهن (العرافة) . وكان الكهنة طبقة الحكماء يستشيرهم الملوك والنبلاء في القضايا المهمة .

وسائل التربية :

كانت العائلة هي المدرسة الرسمية لجميع الطبقات . فيتعلم الولد في البيت على يدي أمه حتى سن السابعة ، وحتى بعد السابعة ، وكان ينال تربيته الدينية والخلقية في البيت . أما الفتيات فكانت تقتصر تربيتهن على التدريب المنزلي وكان يتم هذا في البيت . أما التدريب العسكري فتقدمه الدولة ، ونجد في فارس أول سلطة حكومية في التاريخ تشرف على التعليم. على انه قام

---

(١٤) ايمار ، اندريا ، واو بوايه ، جانين ، تاريخ الحضارات العام – الشرق واليونان القديمة – ترجمة فريد داغر وفؤاد ابو ريحان ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٤

تعاون وثيق بين البيت والدولة فقد وافقت هذه على أن يقوم الفرس بتعليم أبنائهم تعليماً جيداً لجعلهم ، على الأقل ، رجالاً وجنوداً أفاضل .

تنظيم التربية :

لم ينشىء الفرس نظاماً تربوياً خاصاً . فالبنون كانوا ينالون تدريبهم العسكري والبدني في بلاطات النبلاء باشراف الطبقة الحاكمة . وعندما يؤخذ الولد من عهدة أمه في سن السابعة يعتبر ملكاً للدولة ويدخل في فترة طويلة من التعليم الرسمي ، تستمر حتى الخامسة عشرة ، وتتضمن التدريب البدني والتمرين على الفضائل العسكرية والطاعة للكبار . ويمارس بعد الخامسة عشرة خدمة فعلية فيقوم بالواجبات العسكرية . وعندما يبلغ الرشد في سن العشرين يتمتع بكامل امتيازاته كرجل كامل ويصبح مؤهلاً للخدمة العسكرية الفعلية وللوظائف العامة .

طرائق التربية :

ان الطرائق التي اتبعها الفرس في التعليم كانت الملاحظة والتقليد والمشاركة ، وكان التأكيد على القابلية ، وليس على التأمل والتفكير . فالولد يكتسب المهارة الحسدية والعسكرية والفضائل الخلقية المستحبة بتقليد الكبار . وقد اتبعت طريقة التتلمذ في الطبقات الدنيا .

أما القراءة والكتابة فكانتا تدرسان بمقدار محدود جداً ، هذا اذا دُرستا ، ويبدو ان تعلم القراءة لم يشكل جزءاً من تربية الشاب الفارسي . أما تعاليمه الدينية والخلقية فكان يكتسبها من الأشعار الأساطير التي كانت تمجد أفعال آلهتهم وأبطالهم — وكان المعلم يلقي هـذه الأشعار والأساطير والقصص أمامهم وعليهم أن يحفظوها او يكرروها أو على الأقل ان يلخصوها . وهذا التعلم هو نموذج من التعلم بالمثل والقدوة .

التربية عند المصريين القدامى

كانت الحضارة المصرية وليدة وادي النيل . وقد قال « هيرودوتس » المؤرخ اليوناني المشهور : « مصر هبة النيل » ، ذلك لأن النيل كان يفيض بين حزيران وتشرين الأول من كل سنة فيغمر ضفتيه على مسافة عشرة أميال من كل جهة ثم يترك ، بعد جفافه ، تربة غنية خصبة ، تعطي الفلاح محصولاً كبيراً جداً . كما وان الطقس الحار والحدود الطبيعية التي تحمي البلاد ، وقرب المواد الأولية كالنحاس ومواد البناء كالحجارة كل هذه العوامل ساعدت على انتشار العمران وتأمين الازدهار على ضفتي النيل .

لم تكن معرفتنا لتاريخ مصر ترجع إلى أبعد من عهد بناء الأهرام أي عهد الملك «مينس» (Menes) عام ٣٢٠٠ ق.م الذي يعتبر مؤسس الأسرة الأولى . ولكن ما لا ريب فيه ان بناء الأهرام وما تضمنه من فن معماري رفيع يفترض درجة رفيعة من الحضارة ، فمن أين أتت تلك الحضارة ؟ لقد اعتبر بعض علماء التاريخ ان تلك الحضارة هي من أصل « بابلي » غير ان الحفريات الأخيرة قد ابطلت صحة هذه النظرية . ويمكننا أن نعود ببدء الحضارة المصرية إلى العصر « نيو ليتي » (Neolithic) أي العصر الحجري الجديد أو حتى قبل ذلك إلى العصر الـ « باليو ليتي » (Paleolithic) أي العصر الحجري القديم . ومما يدعم قولنا هذا الدرجة الرفيعة التي بلغها علم الفلك عند المصريين بحيث استطاعوا عام ٤٢٤١ ق.م ادخال تقويم جديد يجعل من السنة ٣٦٥ يوماً[١٥] .

ولكننا في الحقيقة أمام نشأة حضارتين متعاصرتين تقريباً ، فالحضارة المصرية وأختها الحضارة البابلية شارفتا على التمام وتمت لهما الخصائص المقررة بضعة قرون قبل أواخر الألف الرابع قبل الميلاد أي حوالي ٣٢٠٠ ق.م بحيث يستحيل على المؤرخ اليوم أن يقطع في أي منهما سبق الأخرى في الظهور . هذه هي الحضارة الفرعونية التي ازدهرت في مصر منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد أي حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م وعمّرت نحواً من ثلاثة آلاف وخمسماية سنة[١٦] .

لقد وجد المصريون الزاحفون من اطراف الصحراء إلى وادي النيل أرضاً من أخصب بقع الأرض ، ولكن كان عليهم الاستمرار في محاربة الطبيعة لأن الأمطار قلما تهطل في أرض مصر ، وكان عليهم استخدام مياه النيل لري أرضهم واستثمارها ، وقد استطاع المصريون الأولون اقامة نظام متقن للري تمكنوا بواسطته من تأمين ثروة زراعية كافية لاعالة شعب كثيف في بلد تزيد نسبة كثافة سكانه على أي بلد في أوروبا اليوم . وكانت هذه الثروة الزراعية هي الأساس الذي بنيت عليه حضارة مصر . لقد سميت مصر أم الفنون الميكانيكية ، ذلك لأن المصري مدعو لأن يسخّر نبوغه إلى أقصى حد لكي يجد الطرق والوسائل التي من شأنها أن تمكنه من استثمار موارد بلاده الطبيعية أفضل استثمار ، وهذا ما يفسر لنا لماذا لم يطلب المصريون المعرفة لأجل المعرفة ولم يسعوا وراء الأمور النظرية . فقد كانت التربية المصرية تربية عملية في جميع عصورها لكي تمكنهم من مواجهة الطبيعة واستثمار الأرض[١٧] .

---

(15) A Cyclopedia of Education, Edited by Paul Monroe, p. 423 New York, The Macmillan Company, 1911.

(١٦) ايمار ، اندره ، واوبوايه ، جانين ، تاريخ الحضارات العام ، الشرق واليونان القديمة ، ص ٣٦ – ٣٩ منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٤

(17) Cyclopedia of Education op. cit. p. 423

أهداف التربية :

كانت أهداف التربية عند المصريين السعي وراء المعرفة لأجل الاستفادة منها في استثمار أرضهم واستغلالها ولاعداد الموظفين لاحتلال وظائف الدولة . وقد درسوا الأدب واتقنوا الكتابة كما اتقنوا استعمال اللغة لأجل استنساخ التعاليم والوصايا الأدبية والصحية والاجتماعية. وينسب إلى أحد حكماء المصريين مخاطبته لابنه قائلاً : « اعط قلبك للعلم واحببه كما تحب أمك ، لأنه لا شيء يضاهي العلم ثمناً ، وتأكد ان كل المهن خاضعة لسلطان ما ، وليس من لا يخضع لسلطان إلا العالِم»[١٨] ولأن التربية جعلت المتعلم متفوقاً على غير المتعلم، فقد تمسك بها المصريون وتتبعوها بنشاط وفتحت التربية الباب أمام المتعلمين للوظائف الرسمية .

نوع التربية :

أما من حيث نوع التربية فقد كانت التربية المصرية عملية في جميع عصورها . وهذا ما كانت تفرضه الأهداف التي كانوا يريدون تحقيقها . كان يحتم على المصري ، بسبب ظروف حياته ومواجهته فيضان النيل والعمل على التسلط عليه والتقليل من ضرره وتحويله إلى منافع ، أن يكون رجلاً عملياً . فقد اضطر أن يتعلم شيئاً عن الهندسة والحساب والمساحة وفن البناء . وكان من الطبيعي له ، بعد أن ينال هذا المقدار من المعرفة ويتمكن بواسطتها من تحقيق أهدافه المباشرة ، الا يسعى لزيادة معرفته أو تطويرها وبنائها على قواعد نظرية ، لذلك لم ينغمس المصري في بحث الفرضيات والفلسفة وما بعد الطبيعة . « ماتا فيزيك » بل ترك ذلك لليونان الذين تعلموا في وادي النيل الكثير من الرياضيات والطب[١٩] .

وقد ازدهر « الأدب التهذيبي » لدى المصريين في هذا العهد ، ومن الذين كتبوا في هذا الباب وتركوا أثراً طيباً وزيران في عهد الاسرة الرابعة والاسرة الخامسة هما « كاجمني » (Kagemni) وزير « سنفرو » (Snefru) من الاسرة الرابعة و « پتاح – حوتب » (Ptah-Hotep) وزير « ايزي (Isesi) من الاسرة الخامسة . وفيما يلي بعض الأمثلة عن هذا النوع من الأدب : « لا تُغَرَّنَ بعملك بل استشر جميع الناس إذ قد تتعلم شيئاً منهم ، عامل الحكماء المحترمين باحترام ، واصلح زميلك إذا ما ارتكب خطأ ، تجنب الوشاية ... إذا كنت في بيت غريب لا تنظر إلى المرأة ، تزوج واكف أفراد عائلتك ولا تدع الخصام يتسرب اليكم في أثناء توزيع الحصص » ... وأيضاً ... « دع عينيك مفتوحتين لئلا تصبح مستعطياً ، لأن الرجل الكسول العديم اليقظة لا كرامة له . لا تدخل إلى بيت غيرك ان لم تدع اليه ، لأنك إذا دعيت

---

(18) **Cyclopedia of Education** : op. cit. p. 423.

(19) **Encyclopedia International**, Grolier, New York 1971, vol. 6. p. 326.

إلى الدخول فقد نالك شرف ، لا تنظر إلى بيت غيرك ، واذا ما رأت عيناك شيئاً ما فاسكت عنه . لا تجلس إذا كان من هو اكبر منك سناً أو مركزاً لا يزال واقفاً . »[٢٠]

كان هذا النوع من « الأدب التهذيبي » أو « أدب الحكمة » من أهم الانتاج الأدبي الذي خلقه المصريون القدامى وكان منتشراً بكثرة في مصر القديمة ، كما كان على نمط واحد ومعظمه نثراً على انه كان عملياً يتضمن النصح والارشاد في أمور كثيرة ، كالامانة ، والصدق ، والاعتدال ، وأداب المائدة ، وأداب السلوك مع الكبار ، وبايجاز كيف ينجح المرء في الحياة . ويعتبر الكثيرون من علماء التاريخ ان أحد هذه المنتجات الأدبية كان المصدر المباشر لسفر « الأمثال » عند اليهود ولادبهم التهذيبي[٢١].

على أن هنالك أنواعاً أخرى من الأدب استنسخها التلاميذ ودرسوها ، ومن احب هذا النوع من الأدب كانت قصة « سنوهي » (Sinuhe) التي كتبت في عهد المملكة الوسطى وتتضمن مغامرات هذا النبيل « سنوهي » الذي اضطر ، لأسباب سياسية ، إلى الهرب من مصر بعد تبوء « سيزوستريس الأول » (Sesostris I) (١٩٨٠ — ١٩٣٥ ق.م) العرش ، ولكنه بعد أن قضى زمناً طويلاً في سوريا عفا عنه فرعون وسمح له بالعودة إلى مصر وكان ذلك بعد أن بلغ الشيخوخة .

كان عصر المملكة الوسطى عصر الأدب الكلاسيكي في مصر ، فبالاضافة إلى قصة « سنوهي » هنالك وصف لمغامرات على غرار مغامرات السندباد البحري وقصص عن الجن منتشرة بين عامة الشعب . كما وان حوادث الحياة اليومية أضحت مواضيع تتداولها الكتابات الأدبية وتنتشر بسهولة بين الناس[٢٢] .

« وقد كتبت قصة الفلاح الفصيح لكي تزود الفلاح الذكي بسلسلة من الأقوال الجميلة يدافع بها عن قضيته ضد المأمور الذي أساء اليه ، وقد بلغت فصاحة هذا الفلاح درجة رفيعة حملته إلى حضرة فرعون لكي يتمتع هذا بالاصغاء إلى حلاوة أدب قصته يتدفق من فمه »[٢٣] كما انتج هذا العصر الكتب الفلسفية . أما الشعر فقد تراوح بين الشعر البسيط كاغاني الحصادين ، والأغاني الرفيعة في مدح الملك .

وقد ضم المنهاج أيضاً دروساً في التجارة والقانون والحساب والعقود والاتفاقيات ووصايا الارث والايصالات .. الخ وقد استغرقت هذه الدروس معظم وقت التلميذ .

---

(20) Cyclopedia of Education (Monroe) op. cit. p. 424.
(21) Encyclopedia International. op. cit. p. 327.
(22) Breasted, J· H; A History of Egypt, p. 203, New York 1905.
(23) Breasted. Ibd. p. 204.

لقد وجد في جزيرة « الفيلة » (Elphantine) كثير من الوثائق التي تعود إلى عهد المملكة القديمة ، وهي محفوظة حتى الآن في متحف برلين[٢٤] .

وتوجد وثيقة مهمة من الـ « بابيروس » (رق البَردي) يعود تاريخها إلى المملكة الوسطى ، تبين طبيعة الرياضيات العملية عند المصريين ، وتضم هذه الوثيقة قوانين لقياس مساحات الأراضي وتحديد سعة الاهراءات (مخازن الاغلال) ، ومعرفة مساحة الدائرة . وقد درس المصريون السموات ووضعوا خرائط للنجوم واستطاعوا بواسطة جداول دقيقة تحديد مواقع كثير من هذه النجوم بدقة متناهية . وكانوا ، كما رأينا ، أول من اكتشف ان السنة تتكون من ٣٦٥ يوماً ، وقد قسموها إلى اثني عشر شهراً ، وجعلوا كل شهر ثلاثين يوماً أو ثلاثة أسابيع والأسبوع يتألف من عشرة أيام . ثم أضافوا في آخر السنة خمسة أيام أخرى على الأشهر الاثني عشر لتصبح السنة ٣٦٥ يوماً . ويعتبر تقويمهم هذا ، السلف الذي نشأ منه تقويمنا الحاضر[٢٥] .

وقد درس المصريون الطب بتعمق وطبقوه بنجاح ، أما الأدوية التي وصفوها فكان معظمها من النوع الذي يمكن بلعه . وقد اقتبس اليونان الكثير من وصفاتهم الطبية ، ومن بينها واحدة لتحديد جنس الجنين قبل الولادة وصلت إلى أوروبا الحديثة وشاع استعمالها في الطب الشعبي[٢٦] .

« وكان أمام الطب ، بفضل معالجة الجثث وتحنيطها ، حقل اختبار واسع وكبير الفائدة ، فاستثمره الطب أفضل استثمار بحيث بلغ شهرة واسعة جداً اعترفت بها الشعوب المجاورة . وقد طلب الملك الفارسي « قوروش » طبيباً للعيون من الفرعون ، واعجب الاغريق بعدد الأطباء المصريين وبتخصصهم في شتى الحقول الصحية : كالعيون والرأس والأسنان والبطن والأمراض الداخلية ، كما يذكر المؤرخ « هيرودوتس » . وأعجب الاغريق أيضاً بآراء المصريين الصحية الدقيقة حول تناول الأطعمة مع ما تفرضه من أدوية مُنظِّفة ومُقيئة استعملها المصريون بانقياد وطواعية فجعلت منهم ، بمساعدة المناخ ، « أوفر الناس صحة سليمة » . وربما كانت هنالك « كتب مقدسة » طبية أي مستظهرة ومحفوظة في المعابد ، لكن البرديات التي تعطينا اليوم فكرة عنها توحي لنا ان العلم الذي انطوت عليه ، بما في ذلك علم التشريح ، كان علماً موجزاً ويفتقر ، في اكثر الأحيان ، إلى مبادىء الأساليب العلمية نفسها »[٢٧]

أما علم الكيمياء فقد اقتصر على الاختبار التقني في صنع المعجونات الملونة والزجاج وفي استخراج المعادن ومزجها .

---

(24) Cyclopedia of Education, Monroe, op. cit. p. 423.

(25) Encyclopedia International, op. cit. p.p. 326 - 327.

(26) Cyclopedia of Education, Monroe, op. cit. p. 425.

(٢٧) ايمار .. تاريخ الحضارة .. المرجع السابق ص (١٣٠) .

أما علم الحساب ، الضروري للادارة ، فقد احتل مركزاً رفيعاً مرموقاً ، ومع ذلك فقد بقي علماً ناقصاً . لقد طبق المصريون القاعدة العشرية ، لكنهم ، كغيرهم من الشعوب القديمة ، قد جهلوا الصفر . عرفوا الجمع والطرح وجهلوا العمليات الحسابية الأخرى ولم يستطيعوا اجراءها إلا بالاستناد إلى العمليتين الأوليين »[٢٨]

ولا ريب في ان الهندسة المعمارية قد بلغت شأواً بعيداً عند المصريين ، تشهد بذلك مهاراتهم في حفر الأقنية وتشييد الأبنية الفخمة . واذا ما قمت بزيارة إلى متاحف أوروبا أو مصر تكوّن فكرة واضحة عن مستوى المهارة التقنية المدهشة التي توصل اليها المصريون في فن البناء ونحت الخشب والعاج وفي أشغال المعادن ونحت التماثيل وفي الرسم[٢٩]. ولا ريب في ان عقل الفنان المصمم المبدع كان وراء جميع هذه المهارات . لكن نبوغ الحضارة المصرية يتجسد في بناء الاهرام التي تمثل روعة فن البناء وعظمة المصريين في هذا المضمار . لقد نالت معابد مصر اعجاب اليونان والرومان والعالم الحديث على السواء ولا يزال المهندسون وطلاب الهندسة يتابعون دراسة هذه الهياكل ليتعرفوا إلى أسرار الفن الرفيع والعلم الوافر اللذين أسهما في تشييدها . لقد كان المهندس المصري القديم متضلعاً في جميع علوم زمانه ، وأول هؤلاء المهندسين كان الحكيم « امحوتب » (Imhotep) الذي درس حكمة الكهنة والسحر والطب والهندسة وقد اصبح بعد وفاته بالفين وخمسماية سنة (٢٥٠٠) اله الطب واعترف به اليونان[٣٠].

وكثيراً ما كان يحتل رئيس الوزراء في عهد المملكة القديمة مركز رئيس المهندسين أيضاً . وبفضل نبوغ مهندسي الفراعنة في عهد الاسرة الثامنة عشرة وصلت الينا الأهرام ، هذه الأبنية الفخمة التي شيدوها في عاصمة المملكة القديمة .

ومما لا ريب فيه ان اليونان تأثروا كثيراً بالتربية المصرية فقد آمن اليونان بحكمة المصريين ونقلوها إلى العصر الحديث .

الوسائل والتنظيم :

لقد قضى الولد المصري السنوات الأربع الأولى من حياته بين العابه ، ولا يزال الكثير من هذه الألعاب محفوظاً في متاحف العالم الكبيرة ، كتمساح بفك يتحرك ، ولعبةباذرع متحركة وغير ذلك . أما تعليم الدين فقد كان متروكاً ، من الناحية النظرية ، إلى مسؤولية الأب لكن الواقع ان الولد كان يرسل إلى المدارس الملحقة بالبلاط[٣١] .

---

(٢٨) ايمار .. تاريخ الحضارة .. المرجع السابق ص (١٢٩) .

(29) Breasted... op. cit. p. 245

(30) Breasted... op. cit. p. 113

(31) Monroe, Cyclopedia of Education op. cit. p.p. 423 - 424

كانت المدارس مرتبطة بدوائر الحكومة، ويقوم بالتعليم فيها كبار الموظفين حيث يعين لكل استاذ عدد من التلاميذ يتتلمذون على يديه . وقد كتب أحد هؤلاء التلاميذ إلى استاذه يقول : « لقد كنت بصحبتك منذ طفولتي وكنت تضربني على ظهري فيدخل العلم في أذني »[٣٢] ويبدو ان هذا النوع من المدارس ، وكانت تسمى « بيوت التعليم » ، كان كثيراً لكي تتمكن من القيام بمسؤولياتها في اعداد العدد الكبير من الموظفين الذين توكل اليهم شؤون الحكومة . أما التلاميذ فكانوا يختارون من الطبقة الوسطى .

وكان ، بالاضافة إلى ذلك ، يوجد في بعض المعابد ، إلى جانب مدارس الكتبة ، معاهد تعرف بـ « بيوت الحياة » وكان الطب أحد التعاليم الرئيسية التي تتلقاها فيها نخبة من الطلاب . وقوام هذه « البيوت » مكتبة كاملة ، أما التدريس فيها فيتناول الحساب وتدوين حوليات الإله أو الملك المقدسة ، كما يتناول التعمق في العقائد الدينية[٣٣] .

الطريقة :

كانت طريقة التعليم المحببة لدى المصريين ، طريقة الرسائل والمراسلات بين الأستاذ والتلاميذ ، فكان الاستاذ يلقن بواسطة هذه الرسائل الحكمة والمعرفة إلى تلاميذه كما يعلمهم طريقة الكتابة الصحيحة . ولا تزال بعض هذه الرسائل محفوظة حتى يومنا هذا ويظهر التصحيح الذي أجراه الاستاذ في حواشيها ، كما تبدو على ظهرها اشارات إلى الأعمال التي كان يقوم بها هؤلاء التلاميذ في اثناء قيامهم بدروسهم . وهذا دليل آخر على ان التربية عند المصريين كانت عملية[٣٤] .

لقد مارس المصريون الكتابة منذ أواخر الألف الرابع قبل المسيح . وقد توصلوا اليها بانفسهم دون أن ينقلوا شيئاً عن أسلوب غريب ، لأن الرموز التي اعتمدوها مستعارة من المشهد الذي تبسطه بلادهم امامهم ، لا سيما الحيوانات والأزهار الخاصة بها . ولكنهم لم يعرفوا أو انهم لم يشاؤوا تبسيط طريقتهم في سبيل جعلها أسهل منالاً .

تنطلق هذه الطريقة من مبدأ رسم الكلمات أو اجزائها ، بصورة المسمى بها . فصورة الساق تعني « الساق » مثلاً ، وصورة الساعد تعني « الساعد » ، ولكن ما لبث الرسم الواحد ان انطوى على معان أخرى كثيرة : المعنى الرمزي ، لتجريد العمل الذي يقوم به المسمى المرسوم ، أو الفكرة التي توحيها رؤيته ، والمعنى الصوتي ، لنسخ الكلمات يؤديها صوت واحد ، والمعنى المقطعي ، لكتابة كلمة مركبة من اكثر من مقطع واحد برموز يقابل كل منها

---

(32) Monroe, Cyclopedia of Education op. cit. P. 424

(٣٣) ايمار ، تاريخ الحضارة .. المرجع السابق ص ١٢٨ .

(34) **Monroe, Encyclopedia of Education ; op. cit. p. 425**

كلمة ذات مقطع واحد ، والمعنى الأبجدي أخيراً لأربعة وعشرين رمزاً يقابل كلاً منها حرف اما صحيحاً واما قريباً من حروف العلة . وقد وجب ، أمام خطر الالتباس والتشويش ، توضيح معنى كل رمز من الرموز بسبب انطوائه على مثل هذه الفروق الكثيرة . لذلك وضعت اشارات تحديدية إلى جانب الكلمة التي يراد كتابتها بهذا الشكل أو ذاك . وهكذا ، بعد أن توصل المصريون إلى الأبجدية بتحليل الأصداء التي ترافق الصوت ، لم يهملوا ، حين اعتمدوها ، الأساليب الكتابية القديمة ، بل جعلوا من الأبجدية لريقة أخرى جديدة واستعملوها بالاضافة إلى الأساليب الأخرى ، فكانت النتيجة تعقيداً كلياً[٣٥] .

وهكذا كان تعلم القراءة والكتابة أمراً شاقاً يتطلب سنوات من المراس الطويل . وكان هناك « علم » حقيقي للكتابة يحصّل ببطء في مدارس القصر أو المعابد التي يتردد اليها التلاميذ منذ الصغر . وتبدأ التمارين على الواح من الحجر الطري ، أو على قطع خزفية ، قبل أن تدون على البردي . وقد توافر في مصر النبات المائي الذي يؤمن المادة الخام ، ولكن اليافه تقتضي تحضيراً طويلاً قبل أن تصبح لفافات ترسم عليها الرموز بواسطة منقش مخضل في الحبر .

ولم يقتصر التمرين على الناحية المادية ، بل رافقه ، بحكم الضرورة ، ترويض عقلي صاعد يستلزم قراءة النصوص ونسخها وتفسيرها واستظهارها . وبهذه الطريقة ، كانت معارف كثيرة تسلك طريقها إلى ذهن التلميذ . فكان من الطبيعي والحالة هذه أن يسود الاعتقاد بان العلوم جميعها ، من حيث انها تؤلف كلاً مع الكتابة التي هي بمثابة المفتاح لها ، أوحاها للبشر الإله الكاتب « طوخ »[٣٦]

أما النظام فقد كان شديداً وكثيراً ما لجأوا إلى الفلق وكان المصريون يعتقدون انهم بالضرب والقسوة يستطيعون أن يعلموا الحيوانات فكيف الإنسان ؟ ويقولون : « للشاب ظهر فاذا ما ضربته عليه انتبه وتعلم » ويقولون أيضاً : « لا تُضيّع نهارك بالكسل والا تتعرض للضرب ... الخ » فلا عجب والحالة هكذا إذا جاء وقت الظهر وترك الأولاد المدرسة وهم يصرخون من الفرح . وكانوا يعطون البنين القليل من الطعام كي لا تغلظ عقولهم ، ويعلمونهم الوصايا والأمثال كقولهم : « لا تكن شرهاً فتمتلىء معدتك ويغلظ ذهنك » « شارك الآخرين بطعامك »

---

(٣٥) ايمار ، تاريخ الحضارة .. المرجع السابق . ص ١٢٧ – ١٢٨ .

(٣٦) ايمار ، تاريخ الحضارة .. المرجع نفسه . ص . ١٢٧–١٢٨ .

التربية عند العبرانيين

منذ اكثر من اربعة آلاف سنة كان العبرانيون قبائل ساميّة نصف بدوية يعيشون على رعاية المواشي والقطعان يتنقلون بها من واحة إلى واحة في الصحراء العربية وبوادي الشام . وكان الخوف والرعب يسيطران عليهم لأن ديانتهم كانت لا تزال بدائية تقوم على مذهب التأنيس « Animism » ، كما كانت حياتهم مشحونة بالصعاب والمتاعب الناتجة عن طبيعة العيش في الصحراء . وقد حاول العبرانيون مراراً الدخول إلى منطقة الهلال الخصيب ولكنهم كانوا في كل مرة يطردون فيعودون على أعقابهم . وقد استطاعوا أخيراً بقيادة « ابراهيم » أن يتمركزوا قليلاً في أرض كنعان ثم انتقلوا إلى مصر في عهد يوسف حيث ذاقوا طعم العبودية والذل ثم خرجوا من مصر بقيادة موسى وتاهوا في صحراء سيناء إلى أن وصلوا أخيراً إلى أرض كنعان الجنوبية حيث استطاعوا أن يبقوا ردحاً من الزمن ويؤسسوا ملكاً بلغ أوجه في عهد داود وسليمان . على ان هذه المملكة لم تعش طويلاً إذ دب الشقاق بينهم فضعفت المملكة وقضى عليها الأشوريون والبابليون وتقاسموها وأخذوا معظم اليهود اسرى . ثم أعادهم الفرس إلى فلسطين حيث خضعوا لسلطة سياسية فرضت عليهم من السلطات الحاكمة وبقي الأمر كذلك حتى هدم الرومان كيانهم الذاتي ودمروا هيكل سليمان سنة (٧٠) ميلادية .

كان للتربية عند اليهود طابع خاص يختلف عن غيره من أنواع التربية عند الشعوب الشرقية. فقد أنشأوا مُثلاً عليا لهم تختلف كلياً عن مثل الشعوب الشرقية الأخرى ، ولكنها في الحقيقة استقيت باجزاء منها من التراث الكنعاني .

وقد بدأ الطابع المميز للشعب اليهودي يظهر بعد خروجهم من مصر إذ قبل ذلك لم تختلف عاداتهم الاجتماعية وأراؤهم الدينية وممارساتهم التربوية كثيراً عن الشعوب الشرقية الأخرى . لم يكن موسى حوالي (١٢٥٠ق.م) منقذهم العظيم من العبودية فحسب، بل كان أيضاً واضع الشريعة ، وهو بلا ريب من المفكرين والمصلحين العظام فبفضله أولاً ثم بفضل الأنبياء العبرانيين وتأثيرهم على الشعب الاسرائيلي استطاع اليهود أن ينشؤوا مثلهم العليا القومية والدينية والاجتماعية التي بنوا عليها مفاهيمهم التربوية .

لقد خضع اليهود للتشريد في بلدان العالم ولكنهم تمسكوا بعاداتهم واعتقاداتهم ومشاعرهم القومية ومثلهم العليا تمسكاً قوياً ، والفضل في ذلك يعود إلى قوة التربية الدينية والقومية التي نقلها قدماء اليهود إلى أحفادهم .

أهداف التربية :

ان الأهداف التربوية عند اليهود تسجل تقدماً ملحوظاً بالنسبة إلى أهداف التربية عند غيرهم من الشعوب الشرقية التي درسنا أهدافها التربوية حتى الآن . فالفرد ، وان كان لا يزال يخضع لقوة خارجية ، الا ان هذه القوة لم تعد قوة الأسلاف أو الطبقة أو الدولة ، بل هي قوة « يهوه » نفسه وقد تفرد اليهود بهذا المفهوم التربوي الخاص .

كان هدف التربية منذ أيام موسى وما بعده اعتبار اليهود خداماً أمناء مطيعين للاله الحي ، وتأمين الانسجام والتعاون في حياتهم المدنية والازدهار لامتهم . هذا الشعور بالمصير القومي كان عند اليهود أقوى منه عند الفرس أو عند الرومان . وكان هدف التربية واضحاً ، فهو الاعداد لهذا المصير القومي بتلقين الأجيال الطالعة ، جيلاً بعد جيل ، ضرورة قيام كل جيل بدوره في تحقيق هذا المصير والعمل في سبيل ذلك بامانة وجدية ، يثبت ذلك الفقرات الآتية المأخوذة من التوراة : تثنية — الاصحاح الرابع (٣٣ ، ٣٥ ، ٤٠).

«هل سمع شعب صوت الله يتكلم من وسط النار كما سمعت أنت وعاش ؟ انك قد أُريت لتعلم ان الرب هو الإله ليس آخر سواه . من السماء اسمعك صوته لينذرك . وعلى الأرض أراك ناره العظيمة وسمعت كلامه من وسط النار . ولاجل انه احب آباءك واختار نسلهم من بعدهم أخرجك بحضرته بقوته العظيمة من مصر .. فاعلم اليوم وردد في قلبك ان الرب هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ليس سواه . واحفظ فرائضه ووصاياه التي أنا أوصيك بها لكي يحسن اليك وإلى أولادك من بعدك ولكي تطيل أيامك على الأرض التي الرب الهك يعطيك »(٣٧)

لقد جعل موسى العبرانيين ينظرون إلى « يهوه » وكأنه اله قومي يحمي شعبه ان هم اطاعوا أوامره . وكان هذا المفهوم يقول باله واحد للعبرانيين ، بينما قد يكون لباقي الأمم آلهة متعددة . لقد أوصى موسى شعبه بالالتزام بالطاعة لوصايا « يهوه » حتى تكون لهم عناية يهوه بهم . كان اله موسى إلهاً جباراً منتقماً مخيفاً ، لذلك كان من الطبيعي في البداية أن تكون مهمة العبادة ارضاء هذا الإله الساخط . ولذلك أعد موسى ، بمعاونة الكهنة ، نظاماً دقيقاً للمراسم والطقوس الدينية والعلاقات الاجتماعية والعادات المنزلية اضافة إلى الوصايا العشر . وما لبث هذه المجموعة من القوانين والأنظمة ان جمعت ونظمت لتتكون منها التوراة أو « الشريعة » . وهكذا أصبح الدين مؤسسة والعبادة تطبيقاً نظامياً لما تتطلبه الشريعة . واصبحت التربية التدريب على مراعاة هذه القوانين والمراسم .

---

(٣٧) تثنية ، الاصحاح الرابع ، (٣٣ ، ٣٥ — ٤٠) .

ثم جاء الأنبياء ووجدوا ان الحضارة اليهودية آخذة في التقدم وسط ظروف سياسية واقتصادية متغيرة . وان علاقات جديدة تنشأ بينهم وبين الأمم والشعوب المجاورة ، وان أديان جيرانهم المغرية أخذت تجذبهم وتستهويهم ويخشى عليهم من الارتداد عن عبادة يهوه وبالفعل فقد ارتدوا مراراً . وقد قام في اسرائيل ، في هذه الأثناء ، مفكرون مبدعون (الأنبياء) استطاعوا أن يعيدوا اليهود إلى ايمان آبائهم واجدادهم عن طريق تقديمهم مفهوماً جديداً لله — فالله هو اله عادل ، اله للجميع . ومن خلال هذا المفهوم الجديد قدموا لليهود ميثاقاً جديداً ووصايا جديدة ومستويات اخلاقية جديدة ، كما جاء في الاشعار الآتية من التوراة :

عاموس : الاصحاح الخامس من ٢١ — ٢٤ :

٢١ — بغضت كرهت أعيادكم ولست التذ باعتكافاتكم .

٢٢ — اني إذا قدمتم لي محرماتكم وتقدماتكم لا أرتضي وذبائح السلامة من سمناتكم لا التفت اليها .

٢٣ — ابعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع .

٢٤ — وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم .

ميخا : الاصحاح السادس من ٦ — ٨ :

٦ — بما أتقدم إلى الرب وانحني للاله العلي . هل أتقدم بمحرقات بعجول ابناء سنه .

٧ — هل يسر الرب بالوف الأكباش بربوات أنهار زيت . هل اعطي بكري عن معصيتي ثمرة جسدي عن خطيئة نفسي .

٨ — قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح وماذا يطلبه منك الرب إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك .

بمثل هذه الأقوال خاطب الأنبياء الشعب اليهودي ولكن تاثيرهم كان ضئيلاً .

لقد وضع هؤلاء الأنبياء المصلحون هدفاً جديداً للتربية . شاؤوا أن يعمقوا الشعور بالدين ويزيدوا الحماسة له لكي يعطوا الشعب معلومات أفضل عن الرب وفكرة أصدق عن الاستقامة والتقوى . لكن اليهود لم يحققوا هذا الهدف في تربيتهم ، فبقيت المدارس توجه عنايتها بالممارسات الدينية السطحية القديمة .

نوع التربية :

من الصعب أن نحدد أي النوعين من التربية كان مسيطراً عند اليهود ، التربية الدينية أم التربية الوطنية – والواقع ان الاثنتين كانتا واحدة ، فالدين عند اليهود كان مرادفاً للوطنية ، « يهوه » هو إله اسرائيل فالولاء له يعني الولاء للامة . واذا ما تعلم الأولاد اطاعة وصايا الله فانما يحافظون على عظمة الأمة ومجدها ، وهذا التعليم كان يتضمن أيضاً التربية الخلقية في أسمى معانيها ، لأن جميع العادات والعلاقات بين الناس كانت موجهة نحو الخير العام .

كانت التربية واحدة للجميع وعامة للجميع ، بصرف النظر عن الطبقة أو المركز ، ما دام الجميع متساوين أمام الله . وكذلك كانت الشريعة واحدة للجميع ولم تكن المراسم والطقوس المقدسة سراً لطبقة معينة بل مفتوحة للجميع . وهكذا كان التعليم عاماً لأنهم اعتقدوا انه لكي تكتب الحياة لأمتهم يجب أن يتعلم كل ابنائها . وقد تعرض الجاهل إلى الحرمان من الحقوق المدنية وإلى النفي أو الابعاد عن المجتمع ، لأن الجاهل لا يستطيع أن يكون متديناً وغير المتدين يكون عبئاً على الأمة . وهكذا كان اليهود من أوائل من قال بالتعليم لجميع أبناء الشعب ومن أوائل من أنشأ المدارس لهذه الغاية (٣٨)

لقد اهتم اليهود بالتعليم المهني كثيراً وأعطوه أهمية كبرى ، فكان من واجب كل أب أن يعلم مهنته لابنه وكان شعارهم « ان من لا يعلم ابنه صنعة انما يعلمه اللصوصية » . وهكذا احترموا العمل اليدوي وقدروه .

وقد رفع اليهود مستوى التربية المنزلية وأنشأوا حياة عائلية جيدة . فالمرأة بنظرهم لم تولد لتكون عبدة للرجل بل لتكون شريكاً مساعداً له ، لذلك كان للام مكانة محترمة عند اليهود فكانت تساعد الأب في تعليم الأولاد وتلقينهم الدروس الأولى في معنى الدين وممارسة الطقوس الدينية . وكانت الأمهات تقوم بتدريب الفتيات على كل الأعمال البيتية التي كان بعضها معقداً ، فطعامهم يعد بحسب تعليمات خاصة . وقد وضعوا تعليمات مفصلة لكيفية معاملة الأهل والأقارب والغرباء والخدم . وكان على الأم أن تلقن بناتها جميع ذلك . (٣٩)

لم يعر اليهود أهمية كبرى للتربية البدنية على الرغم من أن شريعة موسى تضمنت بعض القوانين الصحية ، كما كان على الآباء أن يعلموا ابناءهم السباحة .

---

(38) Davidson; Thomas: A History of Education, pp. 77 - 86 New York Charles Scribner's & Sons, 1900.

(39) Wilds... op. cit. pp. 69 - 70.

المنهج :

كان مضمون منهاج التربية عند اليهود درس تاريخ الشعب اليهودي وعلاقته « بيهوه » الرب ، وتفسير الاحتفالات باعياد « الفصح » و « العنصرة » و « المظلة » ، ثم درس الشريعة العبرية ، والمزامير و « الأمثال » . وأهم قسم من هذا المنهاج يتكون من دراسة التوراة والتلمود، وهذا الأخير نشأ بعد عودتهم من سبي بابل حين أهملوا حياة الرعاة وركزوا على الزراعة والتجارة ، وأصبح من الضروري تفسير التوراة « شريعة موسى » وتوسيعها لكي تماشي الظروف الجديدة والمواقف الجديدة .

ان تفسير « الشريعة » والتعليقات الكثيرة التي كتبت حولها فيما بعد تشكل ما نسميه « الثلمود » وقد أصبح التلمود ، بعد تشتت اليهود متساوياً ، من حيث الأهمية ، بالشريعة نفسها . لقد اقتصرت التربية على تعليم الشريعة وتفسيراتها وممارستها . وكانت شريعة اليهود مزيجاً من القوانين الجنائية والمدنية والصحية والعائلية والمراسم الدينية . وقد افترض اليهود ان كل الحقائق المهمة تتضمنها الشريعة فما علينا إلا أن نفهم الشريعة لكي نتمكن من مجابهة جميع الحالات والحاجات . لذلك كان « الكتبة » اليهود يدققون في كل كلمة وكل حرف من التوراة ، تدقيقاً وافياً لمعرفة معانيها بدقة . وفي الحقيقة ان التلمود بقي أساس المعرفة لدى اليهود لعدة قرون ، وكان بذلك أساس تربيتهم ومناهجهم التربوية .

وشكلت الموسيقى جزءاً من التربية عند اليهود ، فكانوا ينشدون المزامير ، كما كانوا يعزفون على بعض الآلات الموسيقية لكن موسيقاهم كانت غير مهذبة . والفتيات كن يتعلمن الرقص .

وقد تم تعليم القراءة والكتابة والحساب في المدارس التي أنشئت في القرن الثاني قبل الميلاد . وأهم كتب للقراءة في هذه المدارس كانت « التلمود » وكتاب « أسفار موسى الخمسة » .

وسائل التربية :

في البداية كانت العائلة هي المؤسسة التعليمية الوحيدة ، فالأب ، وهو صاحب السلطة على أفراد العائلة ، يقوم بدور المعلم ، والأم تشاركه في أعباء التعليم . وقد بقيت الأم طوال تاريخ اليهود تقوم بدور تعليم الفتيات .

وأخذ الكتبة ، الذين كانت مهمتهم كتابية ، يقومون ، بعد السبي ، بمهام التعليم ، إذ أخذوا يعلمون في المدارس الابتدائية التي بدأت تتأسس في ذلك العهد ، بالاضافة إلى قيامهم بصفة قضاة في تفسير الشريعة وبالاضافة إلى عملهم في الكنيس ككهنة ومفسرين للشريعة . وكانت هذه المدارس الابتدائية ملحقة بالكنيس في معظم القرى وأصبحت الحاجة اليها ضرورة عامة مثل ضرورة الكنيس نفسه وحرم العيش في الأماكن التي لا مدارس فيها .

وقد نظر اليهود إلى المدرسة والمعلم بكل احترام ووقار وجاء في التلمود :

« ان الذي يدرس ويعلم الآخرين يملك كنوزاً وثروة » .

« ان الذي تعلم ولا يعطي المعرفة إلى الآخرين لا يحترم كلام الله » .

« يحظر العيش في مكان لا يوجد فيه معلم أو مدرسة »

« ان معلمك رابك بحاجة إلى مساعدتك ، ساعد معلمك قبل أن تساعد أباك ، لأن هذا قد أعطاك الحياة في هذا العالم أما معلمك فقد أمن لك الحياة في العالم الآخر » .

أما الجدارات المطلوبة من المعلم فكانت كبيرة جداً ، ويتم اختيار المرشحين للتعليم بعناية بالغة ثم يدربون تدريباً جيداً لكي يكونوا في مرتبة خلقية رفيعة . ويحتم أن يكون المعلم متزوجاً ناضجاً وقادراً في جميع الحقول . وكان المعلم يقوم عادة ، بعمل آخر غير التعليم يؤمن به عيشه ، إذ لا يجوز أن يتقاضى اجراً على التعليم وانما يستطيع أن يتلقى الهدايا من تلاميذه .

تنظيم التربية :

خلال الفترة الواقعة بين الخروج من مصر والسبي في القرن السادس قبل الميلاد كانت التربية اليهودية لا تزال منظمة على أساس العائلة كما كانت في العهود السالفة . وقد كان للهيكل والعبادة إلى جانب العائلة تاثير تربوي ليس بقليل . فقد كان على كل ذكر أن يزور الهيكل ثلاث مرات في السنة وذلك عند حلول عيد الفصح وعيد العنصرة وعيد المظلة . وكان لهذه الاحتفالات الدينية أثر تربوي على اليهود ، كالذي كان للالعاب الأولمبية على اليونان ، في تكوين وحدة وطنية قوية .

أما التعليم العالي لتدريب الكهنة والكتبة فقد تم تنظيمه قبل تنظيم المدارس الابتدائية إذ قامت بينهم قبل السبي ، مؤسسات سميت « مدارس الأنبياء » كانت تعد الأنبياء للقيام باعمالهم . وكانت هذه المدارس تعلم شروح الموسيقى وفن الموسيقى المقدسة والشعر ومبادىء القداسة والتقوى . ثم أنشأوا فيما بعد مدارس لتدريب الكتبة سميت « بيوت التعليم » . انشئت هذه المدارس بادىء الأمر في بيت ابرز الكتبة وانصرفت إلى درس تحليلي دقيق مفصل للتوراة والتلمود . وكانت تؤكد هذه المدارس فضائل الفطنة والعفة والرحمة والصدق والاجتهاد والاعتدال . كما وان هذه المدارس درست فيما بعد بعضاً من علوم الفلك والرياضيات واللغات الأجنبية والجغرافية . وعندما أنشئت المدارس الابتدائية النظامية ، الحقت بالكنيس وكان يؤمها البنون، أما البنات فكانت تربيتهن تتم في البيت . وقد نظم التعليم في المدارس الابتدائية على أساس ثلاث مراحل : المرحلة الأولى لمن كانت أعمارهم بين السادسة والعاشرة ، والمرحلة الثانية لمن كانت أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة ، والمرحلة الثالثة لمن كانت أعمارهم

فوق الخامسة عشرة . وكانت المرحلتان الأولى والثانية الزاميتين لجميع الذكور . وقد اجتمع أولاد الأغنياء وأولاد الفقراء في مدرسة واحدة . وكان الكتاب الرئيسي في المرحلة الأولى كتاب « أسفار موسى الخمسة » وفي المرحلة الثانية « المشنا » أي كتاب التعاليم التقليدية عند اليهود أو القسم الأول من التلمود ، وفي المرحلة الثالثة ينصرف الولد لدرس القسم الثاني من التلمود .(٤٠)

طرائق التربية :

ان الطريقة التي استعملت في جميع بلدان الشرق كانت الطريقة الشفوية لعدم توافر وسائل الكتابة ، وكانت الكتابة تتم على صفائح الشمع . حتى في التعليم العالي اتبعت طريقة العرض من قبل الأستاذ ثم الأسئلة والنقاش من قبل التلاميذ . في مثل هذه المدارس وجد يوسف ومريم يسوع عندما أضاعاه في سن الثانية عشرة « حيث كان جالساً في الهيكل وسط الحكماء يصغي اليهم ويوجه اليهم الأسئلة » .

كانت الطريقة في المدرسة الابتدائية شفوية تؤكد على الحفظ . يجلس الأولاد على الأرض أو على مقعد يواجهون المعلم — ولم يكن عددهم ليزيد عن خمس وعشرين تلميذاً — ويرددون المقاطع من بعده ترديداً صحيحاً ، وبصوت عال ، لأن قراءة العبارة بصوت عال تثبتها في الذاكرة . وكان المعلمون ماهرون في التوفيق بين جميع أنواع الذاكرة — البصرية والسمعية والحسية — واستخدموا كل الوسائل التي تساعد الذاكرة على الحفظ ، وبذلك كان لهم بعض الالمام في مبادىء الطريقة كما يبدو مما يلي :

« يجب أن يحاول المعلم جعل الدرس شيقاً لجميع التلاميذ عن طريق التفكير الواضح وكثرة الاعادة والتكرار حتى يفهم التلاميذ المادة جيداً ويصبح في امكانهم تسميع الدرس بسلاسة جيدة » .

« لا يجوز للمعلم أن يعاقب إلا التلاميذ الذين يتأكد ان لهم القدرة على التعلم ولكنهم لا يتعلمون ، أما التلميذ البليد الذي لا يمكنه أن يتعلم فلا يجوز معاقبته » .

تثبت الفقرات السابقة المأخوذة من التلمود انه كان للمربين اليهود بعض الالمام البدائي في مبدأ الرغبة ومبدأ الفروق الفردية .

كان النهار المدرسي عند العبرانين طويلاً إذ يبدأ من الصباح الباكر ويستمر حتى المساء ولم تكن المدارس تعطل إلا في الأعياد الدينية . أما الانضباط فقد كان شديداً والعقاب البدني كان بنظرهم وسيلة مشروعة للضبط . على ان هذه الشدة والقساوة في العقاب كانت تُلطف كما يبدو من القول الآتي المأخوذ عنهم : « عاقب بيد واحدة وداعب بيديك الاثنتين » .

---

(40) **Cubberly, Ellwood P;** Readings in the History of Education pp. 41 - 42, Boston, Haughton Mifflin Company 1920.

مراجع الفصل الثاني

١. التورات : تثنية – الاصحاح الرابع : ٣٣ ، ٣٥ – ٤٠
عاموس – الاصحاح الخامس : ٢١ – ٢٤
ميخا – الاصحاح السادس : ٦ –٨

2. The Bible - Deuteronomy.

3. Breasted, J. H ; A History of Egypt, New York, 1905

4. Cubberly, Ellwood P. ; Readings in the History of Education, Boston, Haughton Mifflin Company, 1920.

5. Davidson, Thomas ; A History of Education, New York, Charles Scribners' sons, 1900.

6. Eby, Frederick, and Arrowood, Charles F. ; The History and Philosophy of Education Ancient and Medieval, New York, Prentice - Hall Inc. 1940.

7. Emerson, Mabel I ; Evolution of the Educational Ideal, Boston, Haughton Mifflin Company, 1914,

8. Edcyclopedia International, Grolier, New York, 1971, vol. 6

9. Graves, F. P., Education Before the middle ages, New York, The Macmillan Company 1909

10. Knight, Edgar W ; Twenty Centuries of Education, Boston Ginn and Company 1940.

١١. ايمار ، اندريه ؛ واو بوايه ، جانين : تاريخ الحضارات العام ، الشرق واليونان القديمة ، ترجمة فريد داغر وفؤاد ابو ريحان، المجلد الاول، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٤ .

12. **Messenger, J. F.;** An Interpretive History of Education, New York, Thomas Y. Crowell Company, **1931**

13. **Monroe, Paul; (Editor):** A cyclopedia of Education, New York, The Macmillan Company, **1911**

١٤. فريد نجار. قاموس التربية وعلم النفس التربوي منشورات دائرة التربية بالجامعة الأميركية بيروت ١٩٦٠.

15. **Sonnenschein,** Cyclopedia of Education, « Schools of Antiquity »

16. **Wilds, Elemer, Harrison** ; The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. **1950,**

17. **Aymard, André,** (Professeur a la Sorbone) **et Auboyer, Jeannine;** Histoire générale Des Civilisations, Tome **1,** L'Orient et La Grèce Antique, Editions Ouedat, Beyrouth - Liban, **1964.**

الفصل الثالث

مفهوم التربية عند اليونان

« نشوء الفردية »

لننتقل الآن إلى اليونان حيث سمت الحضارة القديمة حتى بلغت أعلى القمم . لقد قدمت اليونان إلى الحضارة الحديثة ، في ميدان الفن والأدب والفلسفة والعلم والسياسة ، اكثر من أية أمة أخرى .

ففي الفن أنتج اليونان روائع في النحت وفن البناء أصبحت نماذج على مدى العصور ، كما وضعوا أسس النماذج التي بُني عليها الكثير من الفن فيما بعد . ومن أجمل روائع الأدب العالمي بعض ما كتبه الأدباء اليونانيون، كالالياذة والأوديسه وسواهما، والعالم مدين لهم بمعظم فنونه الأدبية نثراً وشعراً .(١)

كان مفكرو اليونان أول من شق طريق الفلسفة . فلعب فلاسفتهم أمثال أفلاطون وأرسطو وسقراط دوراً مهماً في الفكر الإنساني . فالكثير من نظرياتنا الاجتماعية والسياسية التي نعمل بها اليوم نشأت عنـــد اليونانيين . كما وان الكثير من المفاهيم العلمية اليونانية كانت أول الأساليب العلمية في البحث والتنقيب . فاعمال اقليدوس في الرياضيات (٤٠٠ ق.م) وارخميدس في الفيزياء (٢٨٣ ق.م) وارسطو في المنطق (٣٢٢ ق.م) لا تزال من العناصر الأساسية في مناهجنا التعليمية اليوم .

من المسلم به ان المفاهيم التربوية والمثل العليا التي أنشأها هذا الشعب الناشط المثقف كان لها الفضل الكبير في تطوير الفكر التربوي (فلسفة التربية) ولأول مرة في التاريخ نجد مفهوماً جديداً للتربية يعتبرها « التكيف التقدمي » ويسلم بضرورة تنمية شخصية الإنسان .

---

(1) **Aymard, André,** (Professeur à la Sorbone) **et Auboyer, Jennine,** Histoire Générale des Civilisation, Tome I, L'Orient et la Grèce Antique, Edition Ouweidat, pp. 298 - 300, Beyroutg, 1964

لا تكمن أهمية التربية اليونانية في كونها تتضمن مفهوماً ومستوى للحياة متطورين ، وبالتالي مفهوماً للتربية يتسع مع الزمن ويفسح مجالاً للتغيير والتطور كما يؤمن نمو الفرد . ان نمو المستويات الاجتماعية الجديدة هو نتيجة التنوع (الاختلاف) بين الأفراد في التقاليد والعادات الاجتماعية ؛ ويحصل النمو والتقدم عندما يُقبل هذا التنوع (الاختلاف) وتتمشى عليه الجماعة وتثبته . وهكذا ولأول مرة في التاريخ ، نجد في التربية اليونانية نظاماً لا يقمع الفرد أو يحجز حريته ، إن عمداً أو بدون عمد ، لا بل بالعكس فان بعض أنواع التعبير عن الفردية أمر ضروري بنظرهم لا بل مستحب لأجل الاستقرار الاجتماعي والخير العام » (٢)

وهكذا ، ولأول مرة في التاريخ ، نجد في اليونان ساعات من الخلق والابداع في التربية ، كما نجد بداية فلسفة تربوية تبتعد عن الفلسفة القائمة التي تؤمن بالمحافظة على الوضع الراهن . وبتقبل مبدأ التقدم والنمو كان أول اعتراف بان التربية مشكلة . وهكذا نشأ أول تفكير بنّاء في التربية عند اليونان .

ما هي الظروف والعوامل التي جعلت الشعب اليوناني يقدم للفكر الإنساني ما قدم ؟ ما هو سر عظمة هذا الشعب ؟

لقد استوطن الآريون أسلاف اليونان بعد رحلة قاموا بها ، قبل سنة ١٢٠٠ ق.م ، من شمالي البحر الأسود ، في شبه جزيرة نسميها اليوم اليونان ، ولما كانت هذه المنطقة جبلية وليس فيها طرق تسهل النقل والانتقال انعزل اليونانيون في مدن منفصلة وشكلوا ولايات صغيرة مستقلة ليس بينها علاقات أو اتصال ، وكان من نتيجة هذا الانفصال أو الانعزال نشوء وحدات سياسية صغيرة متعددة لها رغبات واهتمامات مختلفة أيضاً . « وكان من نتيجة هذه المراكز المتعددة نمو روح الاستقلال والحرية بسرعة ، هذه الروح التي تميز بها اليونانيون والتي كانت أول بداية الحرية للجنس البشري عامة » (٣)

على ان جميع اليونانيين ، على الرغم من مصالحهم الخاصة واهتماماتهم المستقلة ، تكلموا لغة واحدة وعبدوا آلهة واحدة ، وشعروا انهم يتميزون عن كل الشعوب التي حولهم فسموها « البرابرة » . وكان لهذا الفخر العرقي تأثير بالغ في تاريخهم . وكان لهم ما يبرر هذا الشعور ، إذ لو قارنا بينهم وبين شعوب جنوب أوروبا لوجدنا ان اليونانيين جميلو التقاطيع فاتحو اللون يعيشون باعتدال اكثر من جيرانهم ويمتازون عنهم قوة ونشاطاً وحيوية ويعمرون اكثر منهم ، وساعدهم مناخ بلادهم الجيد وعاداتهم المعتدلة والحياة الرياضية التي عاشوها ، على التمتع

---

(2) **Monroe, Paul :** Text Book in the History of Education, New York, the Macmilan Company, 1922, p. 52.

(3) Laurie, Simon S., Historical Survey of Prechristian Education p. 229, New York, Longmans, Green & Co. 1915

بصحة ممتازة ، والشعب الذي يتمتع بصحة جيدة ومزاج مرح وروح رياضية سمحة يستطيع الانتاج في جميع الحقول وقد ساعدهم جمالهم الطبيعي وذوقهم السليم على تقدير الجمال وعدم الصبر على البشاعة .

لقد قامت الدويلات اليونانية على أساس المدينة (الدولة) وكان عدد هذه المدن الدولة يعد بالمئات بادىء الأمر ولكن بعضهم أخذ يندمج تحت شعارات دينية أو شعارات سياسية واحدة وبقيادة أقوى المدن المنضوية في الاتحاد . فاتحدت جميع « المدن الدولة » الواقعة في (أتيكا) في دولة واحدة بقيادة أثينا ، كما اتحدت المدن الباقية وشكلت دولة واحدة بقيادة « اسبارطة » وعند درس تاريخ التربية ندرس هاتين الدولتين كنوعين من الحضارة الهلينة .

ولما كانت التربية اليونانية تقدمية فمن الضروري أن ندرسها في فترات مختلفة لكي نتفهم تطورها ، ولذا سنقسم بحثنا إلى الأقسام الآتية :(٤)

١ — التربية الهوميروسية وتمتد منذ ما قبل التاريخ حتى سنة ٧٧٦ ق.م وهي عامة لجميع اليونانيين .

٢ — التربية في اسبارطه وقد امتدت طوال تاريخ اليونان .

٣ — التربية الأثينية الأولى وتمتد من الأولمبياد الأول والأولمبياد هو (مقياس الزمن باربع سنوات) حتى نهاية الحروب الفارسية عام ٤٨٠ ق.م .

٤ — التربية الأثينية الأخيرة وتمتد من نهاية الحروب الفارسية حتى احتلال مكدونيا عام ٣٣٨ ق.م. وتسمى عادة بعصر « بيركليس » أو العصر الذهبي اليوناني .

التربية الهوميروسية(٥)

أهداف التربية :

لا نستطيع القول انه كان للتربية عند اليونان هدف ديني في هذا العهد . فالدين عند اليونان الهوميروسيين كان يتألف من خرافات وأساطير مرحة وخفيفة الروح . وعندما أنشد المنشدون المتجولون عن الآلهة انما كانوا ينشدون عن رجال عظام، عن ابطال فرحين محاربين شرهين يقطنون جبال أولمبيوس (Olympus) ويمارسون أعمال البطولة والشجاعة والحكمة والحيلة والدهاء . ولم يحب اليونانيون آلهتهم كما انهم لم يخافوهم . وكانوا يحاولون تقليدهم والتشبه

(4) **Paul Monroe...** op. cit. p. **61 - 65**
(5) **Paul Monroe...** op. cit, p. **67 - 108**

بهم ، لأن الآلهة كانوا بنظرهم كالبشر ، ولا يمتازون عنهم الا بضخامة الجسم والقوة وعدم الموت . ولما لم يكن الآلهة سوى رجال مكبرة فقد كانت لهم صفات جيدة وصفات رديئة كالبشر . فكان للدين تأثير خلقي وتأثير لا خلقي عليهم ، وقد علمتهم الآلهة العدالة والرحمة والكرم والصبر كما علموهم الكذب والسرقة والقتل ... الخ ...

وكان لليونان القدامى مثالان للرجل الكامل ، المثال الأول كان « رجل الحكمة » ، وقد تجسد في شخص « أوديسيوس » (Odysseus) ، وكان يمثل المحاكمة العقلية والتعقل والتبصر والفصاحة والذكاء . وكان المثال الثاني « رجل العمل » ، وقد تجسد في شخص « أخلّيس » (Achilles) ، ومن فضائلة القوة والشجاعة والجرأة والتحمل ، وهكذا كان هدف التربية أن تنمي في كل رجل من الاشراف مجموعة من صفات هذين المثالين – العمل باحترام الآلهة ، والحكمة بسيطرة العقل على الشهوات . ولم تعط أهمية لأهل الريف والعمال الذين كان عليهم أن يتعلموا مهنهم بتقليد أهلهم على غرار الأساليب البدائية .

وكانت التربية اليونانية تهدف منذ البداية إلى امتياز الفرد وقيمته : أي كمال الجسم في القوة والجمال ، وكمال العقل في الحكمة والطبع والصبر والعدل . وكان هذا الهدف عملياً واجتماعياً لأن امتياز الفرد (الشخص) لم يُفصل البتة عن النفع العام ، فقيمة الفرد كانت تعني أيضاً قيمة الأهداف العامة ، وقيمة الحياة الاجتماعية والسياسية في السلم والحرب . وخير الجماعة كان الاعتبار الأول . (٦)

نوع التربية :

كانت التربية الهوميروسية عملية واجتماعية في الدرجة الأولى ، فكانت تُعنى بتكوين كل المؤهلات والصفات والمهارات الضرورية للحياة السعيدة وسط الجماعة ، كما كانت تتناول التدريب على الفنون العملية في الحرب والسلم وهذه تشمل المهارات العسكرية والحرف اليدوية للرجال وتدبير المنزل للفتيات – على ان التربية لم تكن ديمقراطية لأن الشعب كان مقسماً إلى طبقات ولكل من هذه الطبقات طريقة معيشتها وتدريبها الخاصة بها .

منهج التربية :

لقد ملك الاشراف الأراضي والمزارع والمواشي ، وعمل فيها العبيد والعمال المأجورون أما الأسياد أصحابها فعاشوا في المدن أو قاموا برحلات وغزوات حربية طويلة وكانوا ينعمون في الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية التي كانت من حقهم والتي أعدوا لها . ولذلك كانوا ينظرون إلى أنفسهم وكأنهم المفضلون بشجاعتهم وقدرتهم وقوتهم بالنسبة إلى أفراد الطبقة

---

(6) **Aymard, op cit, pp 308 - 310.**

العاملة الجبناء غير المدربين وغير الماهرين الذين يعيشون حياة بائسة في الأرياف والمزارع ويقومون بالأعمال اليدوية البسيطة .

أما العمال المأجورون الذين تدربوا على أصول مهنتهم فكانوا محترمين جداً ، وفي الواقع كثيراً ما شاركهم في أعمالهم الأسياد والسيدات . وتدريب العبدات الماهرات على الخياطة والصباغ والتطريز ، وكان من بين الرجال الماهرين الحداد الذي ينصرف إلى صنع الأسلحة والخزّاف (صانع الخزف) الذي يجلس إلى دولابه ، والممرض الذي يعالج الجروح ، والفلكي الذي يناجي النجوم ويتنبأ بالغيب ، والمنشدون المتجولون الذين يطربون الناس ويجلبون البهجة إلى قلوبهم ... الخ ... وقد سمى اليونانيون جميع هؤلاء باصحاب الحرف واحترموهم كثيراً . وقد تعلم الشبان والشابات فن الرقص والعزف على الآلات الموسيقية لكي يزيدوا الحياة في البلاط بهجة . وكان النقاش (الحوار) فناً ، وقد تدرب الرجال والنساء على النقاش لكي يتوصلوا إلى القرارات والمحاكمات العقلية عن طريق النقاش (الحوار) الجماعي .

الوسائل والتنظيم :

لم توجد في عهد هوميروس مؤسسات تربوية نظامية ، بل نظم التعليم على أساس العائلة والقبيلة في بيت السيد وفي مجلس الأشراف . وقد علم المنشدون المتجولون فضائل العيش الجيد بواسطة الأناشيد التي تتناول أعمال الآلهة والأبطال . أما الحرف والأشغال اليدوية فكان يقوم بتعليمها مَن مَهر في هذه الفنون وحذق بها .

كانت الحياة العائلية جميلة وكانت النساء متساويات بالرجال ضمن جدران البيت ، وقد تعلمت ربات المنزل الحرف المنزلية ، وكانت الملكة هيلانة نفسها تجلس بين خادماتها وتعين لهن الأشغال اليدوية وتسهم معهن في ذلك .(٧)

طرائق التربية :

أما الطريقة التي اعتمدت في نظام تعليمي كهذا فقد كانت طريقة المثال والتقليد . فقد تعلم الفتيان الفضائل المرغوب فيها من سماع الأمثلة التي وضعها الآلهة والأبطال القدامى ، وتعلموا المهارات العملية بالاسهام الفعلي في الحملات العسكرية وفي الحرف البيتية وفي مجالس الشيوخ ؛ كما تعلمت الفتيات بالطريقة نفسها المهارات المنزلية بالاسهام الفعلي في القيام بالواجبات البيتية .

---

(7) **Wilds, Elemer Harrison ;** The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. **1950, pp. 60 - 61.**

التربية عند اسبارطة (اسبارطيين)

ان أحد أفعل العوامل في التاريخ السياسي والاجتماعي والتربوي هو الموقع الجغرافي ، وقد نشأ الكثير من المفاهيم التربوية عند مختلف الشعوب بسبب الظروف الجغرافية التي وجدوا فيها ، وفي « اسبارطة » مثال جيد على ذلك : كان السبارطيون فرعاً من اليونانيين « الدوريانيين » (نسبة إلى « Dorio » « دوريو ») الذين استوطنوا « البيلوبونزس » (Peloponnesus) حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد فاخضعوا القبائل التي كانت تحتل تلك الأرض . وقد بلغ عددهم في القرن التاسع قبل الميلاد حوالي تسعة آلاف عائلة يحيط بهم عدد من الرعايا الخاضعين لهم والبالغ عددهم حوالي ثلاثين ضعف عدد « السبارطيين » وكان هؤلاء يقومون بجميع الأشغال والأعمال اليدوية لأسيادهم « السبارطيين » ولما كان « السبارطيون » مهددين .. دوماً بهجوم من الخارج وبتمرد من الداخل فقد كلفوا « ليكورغوس » (Lycurgus) عام (٨٠٠ ق.م) لأن يضع لهم دستوراً جديداً ونظاماً جديداً للتشريع والقوانين ، يجمعهم ويشدهم ليقفوا في وجه ما يهددهم من الأخطار ، فاصبحت قوانين « ليكورغوس » هذه ، أساس النظام التربوي في « اسبارطة » ومنها نستمد أحسن المعلومات عن التربية عند « السبارطيين » .

أهداف التربية :

لقد استهدف الدستور الذي وضعه ليكورغوس ، تدريب جنود أقوياء بقصد جعل اسبارطه قوة عسكرية لا بل معسكراً دائماً — وكان هدف التربية مصلحة الجماعة ، والجماعة بالنسبة إلى اسبارطه كانت الدولة أي دولة اسبارطه . فكان هذا الهدف متفقاً نوعاً ما مع الهدف اليوناني القائل بضرورة جعل الفرد متفوقاً لخدمة الدولة . إلا ان تفوق الفرد عني في اسبارطه التفوق العسكري وخدمة الدولة في حالتي السلم والحرب . وقد تمشى أهل اسبارطه على مثل « هوميريوس » القائل بتفضيل « رجل العمل » على « رجل الحكمة » وكان هدفهم جعل كل فرد يتمتع بجسد كامل النشاط والحيوية وبعادات الطاعة التامة لكي يكون جندياً مثالياً .

وكان مثل « السبارطيين » للمواطن الصالح يعني التمتع بالقوة والجرأة وتحمل المشاق والوطنية واستنباط الحيلة والكفاءة العسكرية . لقد ضحت « اسبارطه » بجميع الخصال النبيلة لاستكمال كمال الجسم الذي كان هدفها الرسمي . وكان القصد انشاء أمة لا تقهر جسدياً قادرة على تحمل الجوع والعطش والعذاب حتى الموت وخلق شعب لا مثيل له في القدرة العسكرية وفي الاخلاص إلى الدولة .

« كان هدف التربية في « اسبارطه » بسيطاً جداً ، ولم يأت نتيجة درس الطبيعة البشرية للكشف عن مختلف طاقاتها. فقد استهدفت تربيتهم تدريب المواطن، الذي يعيش وسط المتاعب والمخاطر ، على تأمين سلامته بالسيطرة على الآخرين . فعليه أن يكون دوماً قادراً على الدفاع عن نفسه وعن بلاده في أرض الوطن وخارجها ، وأن يكون قادراً على اعطاء الأوامر والطاعة في آن واحد . فجسده وعقله وأخلاقه جميعها أعدت لهذه الغاية وليس لغاية أخرى » [٨] .

وهكذا كان هدف التربية عندهم ، أن يتمتع كل رجل بالكمال الجسدي والشجاعة وعادات الطاعة الكاملة فيذوب الفرد فيه بالمواطن الصالح . وقال أرسطو بهذا الصدد : « لقد اهتم « السبارطيون » بتربية أولادهم اهتماماً بالغاً مما جعل الدولة تقوم هي بهذه المهمة »[٩]

واستطاعت « اسبارطه » بفضل ذلك أن تسجل استقراراً سياسياً ومستوى عسكرياً لم تماشها فيه أية دولة يونانية أخرى . وقد تحلى الرجل « السبارطي » بالشجاعة والقوة والصبر والتحمل وضبط النفس مما لا يعرفه اليونان الآخرون . ولكن من الجهة الثانية لم يكن للسبارطيين من الصفات الشخصية التي تحلى بها الأثينيون كالعطف والاهتمام بالآخرين والاخوة بينهم ، كما فقدوا المثال الأعلى لحياة « جميلة وسعيدة » الذي تمتع به الأثينيون . ولم يسهموا إلى أي مدى في المنجزات الفنية والأدبية والفلسفية التي أعطت اثينا مجدها . [١٠]

لقد استمر النظام التربوي الذي قام على هذا الهدف سبعماية سنة دون تغيير يذكر ولذلك لم تقدم اسبارطه إلى العالم ، بسبب هذا الهدف الضيق المحدود ، إلا عقيدتها بالاخلاص الأعمى لهدف واحد .

نوع التربية :

من الطبيعي حين يكون هدف التربية كما رأينا أعلاه ، أن يكون نوع التربية مقتصراً على الناحيتين الجسدية والعسكرية . ولما كان هذا النوع يعود بالفائدة على الفرد ، ويضمن المحافظة على الدولة ، كان بالامكان تسمية هذه التربية تربية اجتماعية بمعناها الشامل كما يمكن تسميتها وطنية من حيث المحافظة على الوطن . وقد اتجهت كل التربية في اسبارطه خلقياً وفنياً نحو الاستعداد العسكري .

---

(8) **Painter, Franklin**; A History of Education, pp. 39 - 77, New York, D. Appelton - Century Company, 1904

(9) **Monroe, Paul**; Text Book in the History of Education, New York, the Macmillan Company, 1922, pp 32 - 73.

(10) **Monroe, Paul**... Ibd. p. 73.

أما التربية البيتية فكانت ثانوية بالنسبة إلى الدولة ، والعائلة يجب أن تضحي بمصالحها في سبيل الاستعداد العسكري ، وهكذا كانت تترك معظم الأشغال والواجبات البيتية إلى العبدات ولم يكن لدى السبارطيين تربية مهنية لأن الأعمال المهنية كانت تعهد إلى العبيد وهؤلاء كان عليهم أن يعدوا أنفسهم لهذه المهمة .

أما العناية في التربية الفكرية فكانت قليلة وكانت تقتصر على استظهار شريعة ليكورغوس وبعض الأشعار المختارة من هوميريوس .

منهج التربية :

كان المنهج يتكون في الدرجة الأولى ، من التمارين الرياضية والعسكرية وممارسة العادات الاخلاقية والاجتماعية الضرورية للعيش باخلاص وولاء للدولة وخدمتها . فالبنون كانوا يُعلمون السيطرة الكاملة على شهواتهم والاعتصام بالاعتدال في جميع عاداتهم وطاعة الكبار واحترامهم . وقد تعلموا التواضع والهدوء حتى يحين العمل إذ ذاك عليهم أن يكونوا مهاجمين شجعان .

ولم تهمل تربية البنات في اسبارطه لانهم اعتقدوا ان النساء يجب أن يكنّ قويات البنية وشجاعات أيضاً لذلك أعطوهن تدريباً رياضياً لم يراع فيه انوثتهن وذلك لكي يتمكن من انجاب أولاد أقوياء أصحاء ويدربنهم على تحمل مشاق الحياة ومتاعبها .

أما القراءة والكتابة فكانت تعلم بمقادير قليلة جداً . انما كان على الفتيان أن يتعلموا قوانين الدولة واخبار الأبطال والاصغاء إلى محادثات الشيوخ ومناقشاتهم ، وكانوا يدربون على النطق الصحيح والاجابة الموجزة على ما يطلب منهم . وكانت الموسيقى تعلم ، بيد ان الأغاني كانت جدية واخلاقية ومعظمها يتناول مديح الأبطال الذين ماتوا في خدمة البلاد ، كما كانت تثير الحماسة في صدور الشبان والاندفاع نحو العمل وكذلك كانت الغاية من الرقص . إلا انه لم يمارس لقيمته الفنية أو لتنمية الجمال والفن بل لتنمية القوة والنشاط الجسمانيين .

الوسائل والتنظيم :

ان المؤسسة الوحيدة التي كانت تسيطر على التربية في « اسبارطه » هي الدولة التي كانت تتسلم تربية الولد منذ الولادة حتى الممات . وكانت الحياة الزوجية بكاملها من تخطيط الدولة ، فالزواج اجباري ويتم باشراف الدولة ، والأولاد ملك الدولة . وكان مجلس خاص يقرر ، عند الولادة ، إذا كان يسمح للمخلوق أن يعيش أم لا ؟ فالمولود الضعيف أو الناقص كان يلقى في البراري ويترك للطبيعة فاما أن يموت أو تفترسه الوحوش أو أن ينقذه البعض ويربوه كعبد . أما البنات الضعيفات فكان معظمهن ينقذن ويربين كعبدات .

أما الصبيان الاصحاء فكانوا يسلمون لامهاتهم حتى السن السابعة ، لكن تربيتهم كانت ، حتى في هذه السن ، خاضعة لمتطلبات الدولة . فكان الولد منذ اليوم الأول بعد الولادة يدرب على ضبط النفس . فكان يترك وحيداً في الظلمة ليتغلب على الخوف ، ويُجوَّع ليتعود على تحمل المشاق . كان طعامه بسيطاً وملبسه خفيفاً ، ويقوم بالتمارين الرياضية في الهواء الطلق ويأخذ قسطاً كافياً من النوم، كل ذلك لجعل بنيته قوية . وقد تعلم في هذه السن أن يكوِّن عادات الاصغاء والاحترام والطاعة للكبار . وعندما يبلغ الولد السابعة يدخل احدى المعسكرات الرسمية التي كانت تشكل المعاهد التعليمية فيعيش فيها تحت رقابة أولاد اكبر منه وبادارة ضابط ، ويبقى هناك حتى سن الثامنة عشرة . وكان يحيا في هذه المعسكرات حياة خشنة وتحت نظام صارم جداً من حيث قوانين السلوك والعمل ، فينام على فراش من القش دون غطاء ويسير دون حذاء وبقليل من الثياب . أما طعامه فكان بسيطاً ومحدود الكمية والنوع ، وكان الصبيان يدربون على السرقة فاذا ضبطوا كان عقابهم شديداً وصارماً جداً . أما تربيتهم في المعسكرات فكانت بواسطة التمارين الجسدية والألعاب والقفز والركض والمصارعة واللعب بالسيف والرمح وغير ذلك من التمارين التي تؤهلهم للعمل العسكري . وعند الاجتماعات العامة كانوا يدربون بواسطة الحديث عن القضايا الاخلاقية والمدنية وشؤون الدولة — وقد تعلموا التحدث بذكاء وأدب ووضوح كما تدربوا على احترام النفس وعلى الحكمة .

أما السنتان من سن الثامنة عشرة حتى العشرين فيقضيها معظم الصبيان في التدريب على الحرب تدريباً فنياً ، فالذين يبرزون ويظهرون صفات القيادة والزعامة يبقون في المعسكرات لتدريب الصغار ، وعند بلوغ سن العشرين يقسم الجميع يمين الولاء للدولة ثم يرسلون إلى مختلف المراكز العسكرية وفي حملات عسكرية للمناورة الفعلية — وفي سن الثلاثين يصبح الرجل مواطناً كاملاً ويجبر على الزواج ثم يحتل مركزه في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ . كما كان يطلب اليهم أحياناً أن يذهبوا إلى المعسكرات ليقوموا بدور يكون قدوة للصغار وهكذا كان كل مواطن معلماً .

أما البيت فقد كان مدرسة الفتيات ولم يكن هنالك معهد للفتيات مماثل لمعسكرات الفتيان، على ان الدولة كانت تعتني بتربيتهن لكي يصبحن قادرات على انجاب الأولاد الأشداء الاصحاء.

الطريقة :

كانت طريقة التربية في اسبارطه « طريقة التدريب » لا طريقة التعليم وكان يتم التعليم بالاسهام الفعلي في النشاط والعمل تحت اشراف الكبار فكانت الطريقة إذاً طريقة الفعالية وليست طريقة الكتاب وكانت تجرى امتحانات من وقت لآخر ولكن لم يكن انقصد منها اختبار الذاكرة بل اختبار العادات الاخلاقية والقدرة الجسدية .

أما الانضباط فكان شديداً وصارماً جداً ، وكان العقاب البدني يستعمل عند المخالفات الاخلاقية وقلة الانتباه أو الذكاء . وكان من المفروض على كل مواطن أن يعاقب أي ولد يذنب أو يخالف قواعد السلوك المعروفة ، كما كان الخوف من انتقاد الرأي العام اكبر عامل محرك للسلوك الصحيح وكانت المناقشة والحوار والمبادرة تستعملان بوفرة للترغيب وتنشيط التعلم .

التربية عند الأثينيين القدامى

(العهد الأثيني الأول)

كان اليونان في عهد هوميريوس فلاحين ورعاة ولم تكن لهم تجارة أو صناعة أو نقود، لكن بعد الأولمبياد الأول (أي اربع سنوات بين عيد وعيد) حصل تبديل ، فقد بدأت الصناعة والتجارة بخاصة في « اتيكا » وبدأ استعمال النقود يحل تدريجياً محل المقايضة ، وقد صحب هذا التبديل مشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية خطيرة ، ونتجت عنها مصاعب محيرة . في هذه الفترة الصعبة جاء صولون « Solon » (٦٣٩–٥٥٩ ق م) الشارع الأثيني العظيم ، فاصلح الادارة الحكومية وأقامها على أسس (ديمقراطية حقة) فازدهرت اثينا منذ عهده كما انه شجع التربية ووضع المثل العليا التي يجب أن تقوم عليها .

« انحدر « صولون » « Solon » ، الشارع الأثيني العظيم ، من عائلة تعد من أنبل عائلات اثينا ، ونظراً لتفوقه في الحكمة اعتبر أحد الحكماء السبعة . لم يكن مثالياً فقط بل كان ذا عقل صاف رصين ، وكان سياسياً عملياً واقعياً ، أدخل اصلاحات في حكومة « أثينا » جعلتها ديمقراطية حقة . ووضع مجموعة من القوانين حلت الكثير من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية المخيفة التي كانت تواجه الشعب الأثيني ، كما سيّرت حياة اثينا لعدة قرون من بعده . وفي الواقع ان ازدهار « أثينا » بدأ في عهده . وكان له أثر فعال في التربية الإثينية الأولى فشجّعها وصاغ لها المثل العليا التي يجب أن تتمشى عليها . فكان له بذلك أثر فعال في التربية »[١١]

أهداف التربية :

لم تلتق أهداف التربية الأثينية الأولى باهداف اسبارطه إلا قليلاً جداً . وذلك اللقاء كان ببساطة الأهداف والطريقة المباشرة التي حُققت بها الأهداف . لقد أكد الأثينيون المثل الأعلى

(11) **Wilds,** op. cit. p. 92

اليوناني القاضي بامتياز الفرد في سبيل « الصالح العام » ، ولكن امتياز الفرد عنى عند الأثينيين نشأة الشخص نشأة كاملة من الناحيتين العقلية والجسدية ، كما عنى « الصالح العام » القدرة على الاسهام الفعلي في جميع شؤون الدولة في عهدي السلم والحرب . وقد اكد الأثينيون على « رجل العقل » اكبر من « رجل العمل » بينما كان هدف السبارطيين نشأة القوة والتحمل وخشونة الجسم والعادات ، فيما سعى الأثينيون نحو جمال الجسم والروح والعقل .

واعتقد الأثينيون ان أفضل المؤهلات للمواطنة هي ثقافة عامة شاملة يكتسبها الفرد ، وكانوا ينظرون إلى التربية كحمى للدولة ، واعتقدوا ان افضل طريقة لاعداد الفرد للمواطنة الجيدة هي بجعله يسهم في النشاط الديني والاجتماعي والسياسي والعسكري مع التأكيد الشديد على التمسك بالمثل العليا الاخلاقية التقليدية ، ومع التمسك بالاحترام والولاء والاعتدال على أساس انها مهارات فكرية . وهكذا كان الهدف الأول للتربية الأثينية تنمية الفضيلة ، وكانت الفضائل لديهم هي الفضائل الوطنية . وقد استهدف الأثينيون تنمية جميع جوانب شخصية الفرد للصالح العام .

نوع التربية :

نرى ان التربية المدنية كانت تحتل المقام الأول في التربية الأثينية الأولى وكل شيء آخر كان ثانوياً بالنسبة اليها . كانوا يعتنون بالتربية البدنية ولكن لأجل جمال الجسم وتناسقه وليس لأجل القوة فقط . وقد اكدت التربية الخلقية الفضائل القديمة التي تحلى بها أبطال عهد هوميريوس والصفات الضرورية لخدمة الدولة — أما التربية الفكرية فكانت تتناول ما هو ضروري لتسيير شؤون المجالس والأعمال التجارية — وكانت الموسيقى والشعر والرقص تعلم من أجل تقوية نمو العقل ، والأخلاق لأجل تنمية الشخصية ورفع « روح » الإنسان والسعي للوصول إلى ثقافة حقة ، لقد اعتقد الاثنيون الأول ان اتحاد الشعر بالموسيقى يرفع « النفس » إلى الفضيلة ويطبعها بطابع الشجاعة .

أما التربية المنزلية والتربية المهنية فقد اهملتا في اثينا ، إذ كان في اثينا حوالي اربعماية الف عبد من أصل نصف مليون من السُكّان ، وكان هؤلاء العبيد يقومون بالأعمال اليدوية التي احتقرها المواطنون . وكان التعليم الرسمي موجهاً لطبقة خاصة من المواطنين وإلى الذكور بالذات ، أما البنات والعبيد فقد منعوا من التربية.

منهج التربية :

تعلم الأثينيون القراءة بالطريقة الهجائية، والكتابة على صفائح من الشمع ، وتعلموا من الحساب المقدار الكافي للقيام بعمليات الشراء والبيع ، وتعلموا مختارات من « هوميريوس »

(Homer) وغيره من شعرائهم باملائها عليهم وحفظها ثم انشادها ، كما تعلموا العزف على القيثارة والناي وكانت الموسيقى ترافق الشعر .

وكان الصبيان يعطون تمارين والعاب رياضية ، وكانت هذه الألعاب منوعة وشيقة ، أما الرياضة فكانت تضم القفز والركض والمصارعة ورمي القرص والرمح والحربة والسباحة .. الخ. كما كان الولد يُدرب على المهارات العسكرية ويمارس الفضائل المدنية وكل ما هو ضروري للقيام بدوره كمواطن في دولة ديمقراطية .

وسائل التربية :

لقد تُرك قسم كبير من التربية ، في العهد الأثيني الأول ، إلى مسؤولية الفرد . نعم كانت التربية مراقبة من قبل الدولة ولكنها لم تكن اجبارية . لأن قضية تربية البنين كانت تتعلق بكبرياء العائلة وشرفها ، فاذا اهمل الوالد تربية ابنه فلا يستطيع أن يُحمّل ابنه مسؤولية العناية به في شيخوخته .

وكان يقوم بتعليم الأولاد في المدرسة معلمون خصوصيون لكن مركزهم الاجتماعي كان منخفضاً لأنهم من العبيد . وكان الولد يترك منذ صغره في عهدة « بيداغوغ » « Bedagogue »[١٢] وهو عادة عبد متقدم في السن لكنه كفوء . « والبيداغوغ » يتعهد الولد طوال مدة دراسته ، وكان للولد بمثابة خادم وحارس وناصح ومراقب اخلاقي ، فكان له التأثير الخلقي الأول على حياة الولد . أما اختيار « البيداغوغ » لهذه المهمة فيتم لعدم تمكنه من القيام بعمل آخر . وعندما يصبح الولد شاباً يوضع تحت اشراف موظفي الدولة الذين يقومون بتدريبه والاشراف على تلقينه الأخلاق الجيدة .

لم تكن في أثينا حياة عائلية حقة ولذلك لم يكن للبيت حساب كبير كعامل من عوامل التربية . فالامهات كن جاهلات لم يستطعن مساعدة أولادهن بل على العكس أكسبتهم عادات رديئة . أما تدريب الفتاة ، وكان قليلاً جداً ، فقد قامت به الأم وفي أغلب الأحيان العبدات الممرضات ، وهكذا نرى انه لم يكن للمرأة مقام رفيع في أثينا كما كان لها في « اسبارطة » .

وكانت متابعة تعلم الولد ، بعد انهاء المدرسة ، متوقفة على اسهامه العَرَضي في نشاط حياة المدنية ، لأن المؤسسات الأثينية كانت عاملاً مربياً كبيراً ، فقد تعلم الشبان الكثير من الاجتماعات العامة في المجالس حيث كانوا يصغون إلى مجادلات الكبار ونقاشهم . واستفادوا

---

(١٢) « بيداغوغ » « Pedagogue » أو « Paidagogas » لفظة من أصل يوناني تعني المربي وهي مركبة من لفظة « Paid » أي الولد و « agogue » أي يقود أو يربي ، لذا كان معناها مربي الولد . وهو عادة عبد مثقف يكون خادماً ومعلماً للولد .

أيضاً من حضور المحاكمات حيث شاهدوا القوانين تطبق وتنفذ ، وفي المسرح شاهدوا التمثيليات العظيمة ، وفي الألعاب الأولمبية اطلعوا على أفضل ما في الحضارة اليونانية . لقد كانت حياة المدينة (أثينا) بكاملها عاملاً كبيراً من عوامل التربية ، لقد تعلم الأثينيون بالعمل بالحياة ، بالممارسة .

تنظيم التربية :

كان للاب في أثينا ، وليس للدولة ، أن يقرر ما اذا كان يجب أن يعيش الطفل أو ان يُعرَّض للموت بعد ولادته . فاذا قرر الوالد أن يعيش الطفل بقي في البيت حتى سن السابعة من عمره بعناية الممرضات العبدات وكانت طفولته بسيطة وحرة .

وقد أمضى الولد وقته ، ما بين السابعة والسادسة عشرة من عمره ، بين مدرستين كان يداوم فيهما مصحوباً بعبده المربي « بيداغوغ » . المدرسة الأولى واسمها مدرسة الموسيقى « Didascaleume » ، وتعلم القراءة والكتابة والحساب والشعر والموسيقى . والمدرسة الثانية واسمها مدرسة الرياضة « Palaestra » ، وتعلم التمارين الرياضية والألعاب ومختلف أنواع الرياضة البدنية . لم يعرف بالضبط ما إذا كان الولد يذهب أولاً إلى المدرسة الأولى أو إلى المدرسة الثانية أو بالعكس ، أو اذا كان يقضي قسماً من نهاره في الأولى والقسم الآخر في الثانية وانما المرجح هو الأخير .

أما من سن (١٦—١٨) السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة ، فيعتق الولد من الدروس الأدبية والموسيقية لكنه يتابع في « الجمنازيوم » الرسمية دروسه في التربية البدنية التي بدأها في « مدرسة الرياضة » . وهنا يجتمع بحرية مع الشبان الآخرين ومع الكبار ، يُدرب على تمارين ، معظمها رياضية وعسكرية ، على يدي مدرب خاص وتحت رقابة موظف أخلاقي من الدولة .

بعد انتهاء هاتين السنتين من التدريب الأولي ، وبعد أن يثبت كفاءته الجسدية والخلقية أمام مراقبي الدولة ، يقسم الشاب اليَمينَ الآتي الذي يعلن فيه الولاء للدولة : « لن أسبب باهانه سلاحنا المقدس ولن أترك رفيقي المحارب بجانبي أياً كان ، وأحارب في سبيل بلادي وقوانينها منفرداً أو مع الآخرين ، ولن أترك بلادي في حال أردأ بل في حال أفضل مما هي عليه ، واخضع دوماً إلى القضاة والأنظمة القائمة ولن أقبل أن يخالفها أحد أو يعتدي عليها ، كما واني احترم النظام الديني القائم ، يشهد الآلهة عليّ بذلك » (١٣) .

أما السنتان من (١٨—٢٠) الثامنة عشرة حتى العشرين ، فيقضيهما الشاب بالخدمة العسكرية في الدولة ، حيث يوضع في حماية الحدود ويُعرض لأقسى أنواع النظام العسكري ، ويعطى

---

(13) Wilds ... op, cit, pp. 94 - 96.

في سن العشرين امتيازات المواطن الكامل ، فيقوم ببعض الواجبات في المجلس وفي اللجان وفي هيئات المحلفين ويدخل في حياة المدينة بكامل مظاهرها ويقضي معظم وقته في الاجتماعات العامة أو الفضاء ، ومن النادر أن يبقى في البيت ، شأنه بذلك شأن رجل العصر اليوم الذي يقضي معظم وقته في النادي خارج بيته .

طريقة التربية :

لقد تعلم الأثينيون الكثير بالتقليد والتشبه بالأمثلة الحية فقلدوا معلميهم بتعلم الكتابة مثلهم ، كما فعلوا في تعلم الموسيقى والرياضة البدنية . فكانت الطريقة طريقة التدريب كما هي الحال في « اسبارطه » وليست طريقة التعليم . وقد حفظوا بعض القراءات غيباً ، ولكن معظم تعلمهم كان نتيجة اسهامهم الفعلي في نشاط الحياة فلم يتعلموا المعلومات الدينية والتربية الوطنية من الكتب بل من الحضور في الأماكن حيث كان يمارس النشاط المدني . ولم يكن الغرض من الامتحانات قياس المعلومات بل قياس القدرة الجسدية والكفاءة والمهارات المدنية .

أما النظام فكان شديداً جداً وكان العقاب البدني يستعمل بشدة وكثرة ، وحتى كان « للبيداغوغ » حق استخدامه . وعلى الرغم من أن عدد الطلاب في الصف كان قليلاً فلم تكن هنالك رابطة عطف ومحبة بين التلاميذ والمعلمين . وبذلت كل محاولة لتنشئة الولد بالطريقة التي يرغب في أن ينشأ عليها .

التربية في العهد الأثيني الأخير

بعد الظفر العظيم في الحروب الفارسية وما رافقها من نتائج ممتازة ، حصلت تبدلات مهمة في حياة أهل أثينا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتجلت هذه التغيرات في نظرياتهم وأساليبهم التربوية . فقد كانت قوة أثينا العامل الأول في الظفر على الفرس فاصبحت بعد ذلك مركز الحياة اليونانية ورئيسة « الاتحاد الدليوسي » (Delian) . وأخذت أثينا ، بصفتها سيدة الدول المجاورة ، تحتل مركز الصدارة فاصبحت المدينة التي يعتبرها الجميع مدينتهم « كوزموبولس » وامّها الناس من جميع الأطراف فتبادلوا الآراء ، ووسعوا أفق حياتهم ورغباتهم[١٤] .

وكان من نتيجة هذا الاحتكاك بالوافدين الى المدينة من تجار ومسافرين واجانب وسواح من كل اطراف العالم ان نشط النقد والتعديل لنظام حياتهم ، ومن ثمّ التخلي عن التقاليد القديمة

(14) **Wilds, op cit, pp 97 - 99.**

والمثل العليا الاساسية التي كانت اثينا القديمة تتمسك بها . كما وان النشاط التجاري وفّر نوعاً من الازدهار وامكانية جمع ثروات شخصية لم يُحلم بها من قبل . ومن جراء تجمع الثروة انفتحت امـــام الناس ابواب جديدة من التمتع بالملذات والعناية بالفنون الحضارية . وقيست العظمة بمعيار الثروة والقوة وليس بمعيار العائلة او الخدمة الى الدولة . وهكذا لم تعد المهارة السياسية محصورة في المجلس المحلي ، بل اصبح بالامكان استخدامها على نطاق واسع في الدبلوماسية والسياسة – وفتح باب المواطنة لجميع السكان الأحرار ، ولجميع الذين يستطيعون ان يبرزوا بفضل طموحهم وكفاءاتهم الفردية ، كما هي الحال اليوم في كل بلدٍ ديمقراطي .

الأهداف :

بانقضاء مثل الولاء إلى الصالح العام ، وبرفض المثل الدينية والخلقية القديمة ، وبحلول الرغبة في الشهرة والمستقبل والمكافأة الشخصية محل الصالح العام ، أصبحت المتطلبات من التربية في هذا العصر الاعداد لتقدم الشخص ونجاحه . وأصبح غرض الشباب الأثيني السعي وراء الامتياز الشخصي أي « التقدم الشخصي » والنجاح الشخصي » . فحل الصالح الفردي الأناني محل الصالح العام والخدمة الاجتماعية . وسعى الشباب الأثيني إلى التربية التي تحررهم من القيود التي وضعت عليهم والتي كانت تمنع تقدمهم الشخصي ونجاحهم .

وقد قام بتحقيق هذه المطالب الجديدة جماعة من السفسطائيين ، وهم معلمون أتوا إلى أثينا من المستعمرات وحملوا معهم نوعاً جديداً من التربية ملائماً للاحوال الجديدة . وقد وضع هؤلاء السفسطائيون قواعد جديدة للسلوك لتحل محل السلطات الخارجية التقليدية – كالعائلة والطبقة والآلهة والدولة – التي كانت تقرر نوع السلوك ، أما السلطة الجديدة فقد كانت الفرد نفسه . وقد عبر أحد هؤلاء « بروتاغوراس » (Protagoras) عام (٤٨١ – ٤١١ ق.م) عن هذه السلطة بقوله ان الإنسان هو مقياس كل الأشياء، أي ان كل الأشياء هي بالنسبة إلى الإنسان كما يعتقد فيها هو ، وكل المعرفة تأتي عن طريق الحواس وليس هنالك مبادىء عامة شاملة للحقيقة . كل فرد يجب أن يقرر بنفسه ماذا يجب أن تكون مواقفه وسلوكه تجاه الآخرين وتجاه الدولة والمجتمع . وقد حاول هؤلاء السفسطائيون بوصفهم أساتذة الحكمة العملية ، اعداد تلاميذهم عن طريق التربية إلى حياة ناشطة خاصة في حقلي الشؤون السياسية والعامة .

وقد حارب القدامى المحافظون أمثال « أرسطوفانيس » (Aristophanes) و «اكسنوفون» (Xenophan) هذا التيار ولكنهم لم يتمكنوا من وقفه لأن الظروف الجديدة كانت تتطلب ذلك .

ثم جاء الفلاسفة اليونان العظام سقراط (٤٦٩ – ٣٩٩ ق.م) وأفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م)

وأرسطو (٣٨٦ – ٣٢٢ ق.م) وحاولوا ايجاد حل للمشكلة الدائمة وهي التوفيق بين « الفردية » والاستقرار الاجتماعي . وقد اقتنع هؤلاء المفكرون بأن الفردية الضيقة التي قال بها السفسطائيون لا تكفي لتكون أساساً للاخلاق أو للتربية وبحثوا عن مبررات أفضل للاخلاق وأهداف أشمل وأشرف للتربية .

« أما سقراط فقد وجد الحل بجعل المعرفة « أساس الأخلاق » ، وقد رفض موقف السفسطائيين بان الفرد هو مقياس كل الأشياء ، وقال ان هنالك مفاهيم عامة شاملة مثل التقوى والعدالة والاعتدال التي يتفق عليها جميع الناس لأن العناصر التي تتكون منها هذه المفاهيم توجد في وعي كل إنسان ويمكن تفهمها بوضوح بالتفكير الدقيق . ان معرفة هذه المفاهيم وتطبيقها في حياة الناس هما الفضيلة التي هي هدف التربية . وهكذا كان هدف تعاليم سقراط تنمية قوة التفكير لتمكن الإنسان من الوصول إلى هذه المفاهيم الأساسية أو المبادىء الاخلاقية للعالم »[١٥] .

أما أفلاطون ، وهو تلميذ سقراط ، فقد ذهب إلى أن نوع المعرفة التي يتطلبها سقراط لا يستطيع التوصل اليه الا من كانت لهم قدرة فائقة من الذكاء، وسماهم الفلاسفة . وقال ان هذه المعرفة تتكون من أفكار مجردة ذات صحة كونية « Universal Validity » ، أفكار فوق متناول الحواس ، ويُنسج على نمطها الوجود الظاهري[١٦] « Phenomenal Existence » ولا يستطيع جميع الناس فهم هذه المجردات ، فلا يفهمها إلا الفلاسفة الذين يستطيعون رؤية ما وراء الظاهرات ويدركون الحقيقة . أما « النظام الاجتماعي الأمثل » الذي شرحه أفلاطون في « الجمهورية » ، فيمكن أن تسيطر عليه وتضبطه كلياً ، طبقة الحكام الأذكياء المفكرين حيث يعد كل فرد منهم لاحتلال المكان الاجتماعي اللائق به وللقيام بالعمل الذي أعدته له الطبيعة . واعتقد افلاطون ان هنالك ثلاث صفات بشرية مسيطرة : أولاً . العقل (الفكر) (Intellect) ثانياً : العاطفـــة (الانفعال) (Passion) وثالثاً : الشهية أو الشهوة (Appetite) . وقد قسم المجتمع إلى طبقات بحسب هذه الصفات : (١) طبقة الحكام ، (٢) طبقة الجنود ، و (٣) طبقة العمال . ويتوقف تصنيف الإنسان في احدى هذه الطبقات على الصفة الغالبة التي تسيطر على شخصيته . ورأى أفلاطون انه يجب أن يكون هدف التربية سعادة الفرد ، وخير المجتمع ، وان مهمة التربية هي تحقيق هذه الأهداف بتحديد المركز الاجتماعي الذي يليق له الإنسان (الفرد) ، أما هذا التحديد فيتم بالاختيار والغربلة ثم الاختبار .

ثم جاء أرسطو ، تلميذ أفلاطون ، وأعلن ان هدف التربية هو بلوغ ذروة الحياة العقلانية ،

---

(15) **Monroe, Paul ;** op. cit. pp. 122 - 127.

(١٦) الوجود « الظاهري » نسبة الى الظاهري « Phenomenon » ويقال الوجود الظاهراني لكنه من الأفضل حذف حرف « النا » فتصبح الوجود الظاهري .

فشاء اقامة نظام تربوي يمكّن الفرد ، بالتعاون مع الجماعة ، من تسيير أعماله بالعقل . ومن أهم وظائف الإنسان أن يكون عاقلاً في تفكيره وسلوكه ، ومن أهم وظائف الدولة أن تدير المجتمع بطريقة تؤمّن أقصى حد من الخير للجنس البشري . ان الجسم السليم (الصحة) والعمل السليم (عمل الخير العام) ، القائمين على أساس التفكير السليم ، هما الفضيلة الحقة والهدف الأخير للتربية . هذه هي الأهداف التربوية التي قال بها أرسطو في كتابيه الأخلاق والسياسة [١٧]

نوع التربية :

اهتم جميع قادة التربية خلال هذه الفترة اهتماماً بالغاً بمشكلة التربية الاخلاقيـــة . فالسفسطائيون لم يبحثوا المسائل الاخلاقية ويحلوها ، من الناحية الدينية أو الاجتماعية أو المدنية ، بل من الناحية « البرغماتيكية » النفعية . وكان أساس الأخلاق عندهم فردياً وعقلانياً بحيث ظهروا بنظر اليونان المحافظين وكأنهم يُعلّمون فعلاً علوم الأخلاق . لأن آراءهم في الأخلاق اكدت حرية الفرد في الاختيار بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد قالوا ان للفرد أن يختار أهدافه الخاصة في الحياة ، وأن يقرر مستويات سلوكه وخدماته الخاصة للدولة ، وتكيفه وفقاً لعادات الجماعة وتقاليدها الاخلاقية :

وقد درس كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو هذا الموضوع بدقة ، وانهم وان اختلفوا في تحديدهم « للفضيلة » و « الخير »، إلا أنهم اكدوا جميعاً على التربية لأجل « الفضيلة » « والحياة الخيرة » . فقد أصر سقراط على نوع من التربية يوصل إلى اكتشاف الحق وبالتالي إلى تحقيق « الحياة الكاملة » . وقال أفلاطون : التربية هي « التطبع » وهي التي تقرر ما اذا كانت طبيعة الولد ستكون متوحشة ضارة أم مؤنسة مفيدة للجنس البشري ، واعتبر ان تربية الأخلاق هي الأمر الأهم . وقال أرسطو : هدف الحياة وبالتالي التربية ، هو تحقيق الذكاء والفضيلة الاخلاقية ، وهذان يجلبان معهما أصدق أنواع المسرات التي يستطيع الإنسان أن ينالها ، واعتبر أرسطو ان السعادة تتحقق عن طريق الفضيلة الكاملة [١٨] .

كانت التربية الفكرية في هذا العهد من أسمى ما عرفته البشرية حتى الآن ، وعلى الرغم من أن تفكير السفسطائيين كان سطحياً ، إلا انه تميز بحدة ذهنية متزايدة في التميز بين الكلام ، ومهارة متزايدة في مجابهة مشكلات الحياة العملية . أما سقراط ، فقد أنشأ بمحاولته تنمية نظام فكري عميق ودقيق ، نوعاً من التدريب الفكري لم يتفوق عليه ، من حيث فعاليته ، نظام آخر حتى الآن . كما وان أفلاطون الذي حصر التدريب الفكري بالذين كانت لهم القدرة الطبيعية على ذلك أعد نظاماً دقيقاً لتحقيق هذا التدريب . وأوصى بتدريب الفكر بواسطة درس

---

(17) **Monroe,** op. cit pp. 149 - 151.

(18) **Monroe,** op. cit. pp. 150 - 160.

العلوم والفلسفة ، وأنشأ طريقة التفكير الاستنتاجي التي بُنيَ عليها الكثير من نشاطنا الذهني فيما بعد ، والتي أعطت العالم أول لغة للتفكير .

« كان هذا العهد عهد نشاط ذهني فائق ، وكان معدل الادراك أو الانتاج الفكري فيه أرفع من أي معدل حققه أي شعب حتى الآن ، ولم يلحق هذا العهد عهد آخر في المنتجات الفكرية ، فالنشاط الذهني عند كل شعب كان فائقاً ، وافقهم الذهني كان واسعاً ومحتويات فكرهم كانت غنية »(١٩) .

وأدخلت في هذا العهد التربية المهنية بالاضافة إلى التربية الحرفية (اليدوية) فالسفسطائيون دربوا الخطباء في وقت كانت القدرة على الكلام بحجة وإقناع ، الطريق إلى المراكز المفيدة . وقد اكد أفلاطون أيضاً التدريب المهني والحرفي الدقيق لانه اعتقد ان العدالة العظمى تتحقق في الدولة عندما يدرب على فن الصناعة من أعدتهم الطبيعة لمثل ذلك ، وعلى فن الجندية من أعدتهم الطبيعة للجندية وعلى فن الحكم من أعدتهم الطبيعة للوظائف العامة .

وقد خف في هذا العهد التأكيد على التدريب البدني والعسكري والمدني لخدمة الدولة . واستمروا في اهمال التربية المنزلية للمرأة ، على الرغم من أن أفلاطون الح على ضرورة تأمين جميع أنواع التعليم للمرأة والرجل على السواء بما فيه التربية الفكرية والاعداد للجيش .

وقد تقدمت في هذا العهد التربية الفنية ، فدرسوا الأدب ، ليس من أجل الناحية النحوية والصرفية والفوائد العملية ، بل للمتعة التي نتجت عنه . وقد أدت زيادة أوقات الفراغ إلى طلب المزيد من المتعة الفنية . وكان الفن والموسيقى والأدب والرياضة وسائل لسد هذه الحاجة . وقد شجع هذا المفهوم الجديد للتربية انماء أدوات جديدة من الموسيقى ، وتوسع مدى الأشكال الأدبية واستخدام الرياضة والألعاب للمتعة والتسلية . أما الفلاسفة فلم يسروا باستخدام الفنون للمتعة الفنية فحاولوا رفعها مرة ثانية إلى مكانتها الأولى لجعلها وسائل للتربية الخلقية ولكنهم لم ينجحوا كثيراً .

منهج التربية :

بقي منهج التعليم الابتدائي كما كان تقريباً في العهد السابق ، يتألف من القراءة والكتابة والحساب وانشاد الشعر والقيام بالتمارين الرياضية ، مع بعض التغيير في التأكيد والاسلوب . أما في المراحل الأعلى فقد حلت المواضيع الأدبية والفكرية محل التمارين البدنية والعسكرية . وأدخل السفسطائيون الصرف والنحو والعروض والالقاء والحوار والجدل مع درس الطبيعة

---

(19) **Davidson, Thomas,** Education of the Greek People, pp. 103 - 126, New York, D. Appleton - Century Company, 1904.

البشرية وقواعد السلوك العملية . وكان محور مناهجهم « فن الخطابة » أو التحدث أمام الجماعة . وادخلت دروس الهندسة وعلم الفلك والرسم والصرف والنحو والعروض والبلاغة في المدارس الثانوية محل التمارين الرياضية والعسكرية ، كما أدخلت الفلسفة والرياضيات والعلوم في مراحل التعليم العالي .

لم يؤمن سقراط بأي منهاج رسمي ، وهو نفسه ، لم يقرأ إلاّ قليلاً ، لقد اعتقد ان كسب المعرفة يتم بواسطة الاحتكاك بالناس مباشرة ، وبالملاحظة الشخصية والاختبار المباشر . وقد اكد على مضامين التعلم المهمة ، ولم يعر أشكال التعلم ووسائله كقواعد الصرف والنحو والبلاغة والمهارات اللغوية كالنطق والكتابة ، الا الاهتمام القليل .

أما أفلاطون فقد أوصى بان يتبع في مرحلة التعليم الابتدائي المنهاج الأثيني التقليدي الذي يشمل القراءة والكتابة وانشاد الشعر والرياضة والتدريب العسكري ، وان تتبع مرحلة التعليم الثانوي الموضوعات الأربعة التي سُميت فيما بعد « الرباعي »، وتشمل : الحساب والفلك والهندسة والموسيقى . أما مرحلة التعليم العالي فقد أوصى بان تتبع درس الفلسفة .

أما أرسطو فقد أوصى بان يُباشر منذ المرحلة الابتدائية بتكوين العادات الجسدية والخلقية وبان تدرب العواطف في المرحلة الثانوية بواسطة الرياضة والموسيقى والرسم . أما مرحلة التعليم العالي فيتم فيها التدريب على التربية الوطنية وتنمية الفكر بواسطة الرياضيات والمنطق والعلوم . لقد كان أرسطو كاتباً كثير الانتاج وفي مواضيع شتى ، وقد بحث عن الحقيقة في كل مكان ، في عالم الطبيعة وفي عالم الإنسان . وقد جعلته طريقته الاستقرائية التي تمشى عليها في الكشف عن الحقيقة ، أعظم مفكر أنجبته البشرية حتى الآن . وقد وضع أسس علم الفيزياء والفزيولوجيا والمنطق والسياسة كما قدم الكثير من المعارف والمعلومات التي بنيت عليها مناهج التربية في الأجيال اللاحقة[٢٠] .

وسائل التربية :

بقيت المدارس الابتدائية ، ومدارس الرياضة ومدارس الموسيقى ، على حالها تقريباً في هذا العهد، كما في العهد الأثيني الأول، مع تعديلات طفيفة ادخلت عليها .

أما التغير الجذري فقد حصل في مرحلة التعليم العالي ، حيث يبدأ الولد منذ سن السادسة عشرة درس الأمور الأدبية والفكرية البحتة تاركاً التمارين الرياضية والعسكرية . لم ينشىء السفسطائيون بادىء الأمر مدارس نظامية بل كانوا يعقدون اجتماعات غير نظامية مع تلاميذهم الذين يدفعون لهم اجرة هذه الاجتماعات ، وكانت تعقد هذه الاجتماعات في غرف خاصة

(20) Monroe.. op. cit. pp. 143 - 160

أو في الشوارع والحقول والبساتين المحيطة بالملاعب ويلقي السفسطائيون الدروس المطلوبة .

وكان السفسطائيون علماء ماهرين ذوي اطلاع واسع بسبب اسفارهم الكثيرة واتصالاتهم الواسعة وملاحظتهم الدقيقة للحياة التجارية والاجتماعية والسياسية في مختلف أنحاء العالم مما جعلهم حكماء عمليين .

وقد قام سقراط وأفلاطون وأرسطو بالتعليم بنفس الطريقة غير الرسمية التي اتبعها السفسطائيون . ولما كان أفلاطون يعلم دائماً في مكان اسمه « الأكاديميا » (Academy) فقد سميت مدرسة الفلسفة التي نظمها اتباعه فيما بعد « (بالاكاديميا) . ولما كان أرسطو يعلم في المكان المعروف باسم « الليسوم » (Lyceum) فقد سميت المدرسة التي أنشأت على أساس تعاليمه « الليسوم » .

وهكذا نجد أن التربية التي بدأها السفسطائيون أخذت تؤثر في اتجاهات انتهت بالنتيجة بتأسيس جهازين للتعليم العالي – الأول سار بطريق سقراط ونتج عنه المعاهد المعروفة « بالمدارس الفلسفية » والآخر سار بطريق « ايزوكراتيس » (Isocrates) ونتج عنه المعاهد المعروفة باسم « مدارس البلاغة » وقد اتحد هذان المعهدان مع الزمن وتشكل منهما ما سماه الكتاب العصريون « جامعة أثينا » كما حصل في الاسكندرية بعد الاحتلال المكدوني فنشأت « جامعة الاسكندرية » التي أصبحت مركزاً عظيماً للتربية .

تنظيم التربية :

وهكذا نجد ان التعليم في العهد الأثيني الأخير نظم في أربع مراحل (١) مرحلة التربية البيتية وتمتد من الولادة حتى سن السابعة ويقوم بها العبيد (٢) مرحلة التربية الابتدائية وتتم في المدارس الخاصة وتمتد من السن السابعة حتى الثالثة عشرة (٣) مرحلة التربية الثانوية وتتم في المدارس الخاصة أيضاً ، وتمتد من الثالثة عشرة حتى السادسة عشرة (٤) مرحلة التعليم العالي وتتم في مدارس البلاغة والفلسفة وتبدأ في السن السادسة عشرة .

لقد أوصى أفلاطون بأن يكون التعليم تحت نظام ثابت وبادارة الدولة ، ويستثنى منه العبيد ولكنه يفتح الأبواب أمام النساء مثل الرجال . وقال بضرورة الغاء التربية البيتية وجعل الأولاد في تلك السن ملكاً للدولة واقترح التنظيم الآتي : (١) منذ الولادة حتى السن العاشرة تتم التربية الابتدائية باللعب والتمارين والألعاب والقصص (٢) من العاشرة حتى العشرين ، مرحلة التعليم الثانوي يقضيها التلميذ في درس الموسيقى والرياضة والمهارات العسكرية (٣) من العشرين حتى الثلاثين مرحلة التعليم العالي وتتناول درس الرياضيات والفلك والمنطق والفلسفة . ويحصل نوع من الغربلة في السن العاشرة حتى يستثنى من التعليم الثانوي التلاميذ المؤهلون

للعمل اليدوي ، وفي العشرين يستثنى من التعليم العالي المؤهلون للعمل العسكري . ولا يبقى في التعليم العالي إلا من كانوا مؤهلين حقاً لذلك .

أما أرسطو فقد اقترح نظاماً يكون فيه لكل من البيت والدولة دور في التربية — فالبيت يتولى الولد من الولادة حتى السابعة ويدربه على العادات الجسمية والأخلاقية الجيدة ، أما ترك الولد بعهدة العبد الجاهل فقد ثار عليه ومنعه . ومن السابعة حتى المراهقة يعرض الولد لتربية العواطف ، ومن المراهقة حتى العشرين يدرب الولد في الفضائل المدنية والتفكير . وآمن أرسطو مثل أفلاطون بان هنالك نخبة يجب أن تنال تعليماً عالياً يهيئهم لحياة أرفع من الحياة المدنية البسيطة ، حياة درس وتفكير وتأمل .

طرائق التربية :

بقيت طريقة التعليم في المدارس الابتدائية إلى حد كبير مثلما كانت عليه في العهد السابق . أما في التعليم العالي فقد أدخل السفسطائيون طريقة جديدة « طريقة المحاضرة » التي تعد السامع للتقبل السريع لما يسمعه بدلاً من التفكير الفردي ، ويضمن نظام السفسطائيين اكساب الولد معلومات سطحية وحفظ نماذج خطابية حول موضوعات مختلفة ، وحتى أفضل السفسطائيين ، كان الشكل والمظهر والادعاء ، يسيطر على تفكيرهم وعملهم . وقد سادت طريقة المحاضرة في مدارس البلاغة والفلسفة . وفي العموم كانت التربية تؤكد الكتاب والمعلومات الكتابية والطرق المدرسية حيث يسود التعليم على العمل أو على طريقة النشاط (الفعالية) في التعلم التي سادت في العهود السابقة .

وأهم ما تم في سبيل وضع مبادىء الطريقة هو ما قام به سقراط ، الذي يعد من أفضل المعلمين في كل العصور ، وعلى الرغم من أن طريقته التي سنشرحها فيما يلي ، قد استعملها هو باستمرار وبنجاح ، إلا أنها لم تعمم وتنشر على أيدي اتباعه إلا قليلاً ولم تجد الطريق إلى التطبيق إلا في عهد التربية الحديثة .

« كان سقراط ، كمعلم ، ناقداً ، مشككاً ، صبوراً ، عطوفاً وذا طبيعة جيدة . وكانت طريقته تحاول جعل التلميذ يفكر لنفسه ويرى الأشياء كما هي على حقيقتها . وآمن ان روح المتعلم هي التي يجب أن يحاول المعلم تنميتها . ووظيفة المعلم هي تحريك النشاط الذهني في المتعلم وذلك بتوجيهه واعطائه الاقتراحات الضرورية . وكان هدف « طريقة سقراط » أن يمكن التلميذ من أن يرى جهله بنفسه ويتخذ موقف المتعلم الحق . وهكذا نجد انه طبق آنذاك ما أصبح اليوم وظيفة أساسية من وظائف طرق التعليم الحديثة .

وطريقته هذه – أي طريقة المناقشة أو الاختبار ، كما سميت « طريقة الحوار » هي على مرحلتين كما استعملها سقراط – (١) المرحلة الهدامة أو التهكمية، وخلالها ينتقل التلميذ بواسطة الاستجواب والأسئلة ، من الجهل غير الواعي إلى الجهل الواعي . (٢) المرحلة البناءة، وينتقل التلميذ خلالها بواسطة الأسئلة والاستجواب ايضاً من الجهل الواعي الى الحقيقة الواضحة العقلانية . وقد سمي سقراط المعلم « محرك » الفكر ومولد « الذكاء » . ولو اتبعت طريقة سقراط من قبل المعلمين عبر التاريخ منذ أيامه لكان فعل التربية وفعاليتها زادا بحيث تغير وجه التاريخ باكمله »[٢١].

لا ريب ان الطريقة في التربية ليست كافية وحدها ، فهي ليست العلاج العام الشافي لجميع الأمراض التربوية . وقد أكد سقراط على الطريقة ولم يعط المحتويات (المادة) الاهتمام الكافي فبالغ بالمناقشة للمناقشة فقط . وعلى الرغم من كل ذلك لم تستطع طريقة ما أن تضاهي طريقة سقراط « الحوار » في اثارة التفكير وتحريكه .

وقد أخذ خلال هذه الفترة الانضباط في المدرسة يفقد من صرامته وشدته تدريجياً واصبحت الحياة في المدرسة والمجتمع اكثر بهجة وأسهل منالاً .

(21) **Wilds...** op, cit. p. **112.**

مراجع الفصل الثالث

١. ايمار ، اندريه ؛ واوبوايه، جانين ؛ : تاريخ الحضارات العام – المجلد الاول – الشرق واليونان القديمة ، ترجمة فريد داغر وفؤاد ابو ريحان . منشورات عويدات ، بيروت لبنان ١٩٦٤ .

1. **Aymard, André** (Professeur à la Sorbone) **et Auboyer, Jeanine**; Histoire Générale des Civilisations. Tome I. L'Orient et la Grèce Antique, Edition Oueidat, Beyrouth, **1964**
2. **Barnes, Harry Elmer**; An Intellectual and Cultural History of the Western World, New York, Random House, **1937.**
3. **Davidson, Thomas**; Education of the Greek People, New York, D. Appleton - Century Company, **1904**
4. **Eby, Frederick, and Arrowood, Charles F**; The History and Philosophy of Education Ancient and Medieval, New York, Prentice - Hall, Inc., **1940**
5. **Hart, Joseph K**; Creative Moments in Education, New York, Henry Holt & Company. **1931.**
6. **Laurie, Simon S**; Historical Survey of Pre - Christian Education, New York, Longmans, Green & Company, **1915**
7. **Monroe, Paul**; Text Book in the History, of Education, New York, the Macmillan Company, **1922.**
8. **Painter, Franklin**; Great Pedagogical Essays, New York, American Book Company, **1905**
9. **Wilds, Elemer, Harrison**; The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. **1950.**

الفصل الرابع

التربية عند الرومان

التأكيد على النفعية

باستمرار « مدارس التربية » اليونانية في التطور ، ونشوء مراكز التعليم العظيمة في بعض المدن أمثال « أثينا » و « الاسكندرية » و « رودس » أخذت التربية تنتقل بسرعة من الشؤون الواقعية في الحياة إلى الأمور الفلسفية البعيدة عن واقع الحياة . وحلت فكرة التربية ، كامر للتسلية في أوقات الفراغ وكحياة تأمل وتفكير ، محل الفكرة القديمة التي كانت تنظر إلى التربية كخدمة للدولة والمجتمع . وأصبحت التربية تعليماً لا تدريباً ، نظرية لا عملية . وعلى الرغم من أن العلماء في هذه المدارس كانوا يضعون النظريات عن الحياة فقد ابتعدوا عن مشاكلها الواقعية وحبسوا أنفسهم في صومعة بعيدين عن الواقع . وفي حين ان الفلاسفة اليونان سعوا بادىء الأمر وراء المثل العليا للتعبير عن الحياة ، اهتم الفلاسفة فيما بعد بالدرجة الأولى ، بوضع النظريات الفكرية من أجل النظريات فقط ، وبنقل هذه النظريات إلى تلاميذهم من بعدهم .

وهكذا نشأت الحاجة إلى قوة جديدة في التربية ، قوة تعيد التربية إلى واقع الحياة ، وقد جاءت هذه القوة من حضارة روما الجديدة الحيوية التي كانت آخذة في النمو عبر البحر الأيوني (Ionian Sea) في شبه الجزيرة الإيطالية .

« كانت أثينا نقطة نور في التاريخ ، لكن العالم يحتاج ا اكثر من النور ، يحتاج ا أسس قوية راسخة تحت قدميه ، لم يكن في العالم البدائي نور كثير لكنه كان صلباً . وقد حطمت اليونان اسطورة تلك الصلابة لمدة من الزمن ، وكان على « روما » أن تعيد بعضاً من تلك الاسطورة وأن تعمل ما في وسعها لتعيد إلى الناس الشعور بالأمن والطمأنينة الدائمين »[1].

---

(1) **Hart, Joseph K ;** Creative Moments in Education, New York, Henry Holt & Company, 1931, p. 86.

لقد أعطت « روما » العالم الأساس الرئيسي للنظام الاجتماعي لكنها لم تقدم إلى الحضارة الحديثة الكثير في حقلي الفكر والفن ، بل قدمت الكثير في حقلي التنظيم والادارة . « وقد قررت لقرون عدة مصير العالم المتوسطي ، لا بل قد خلقت هذا العالم بفعل احتلالها اياه [٢].

كان أهل روما شعباً عملياً واقعياً قدموا إلى العالم خدماتهم العظيمة بانشاء المؤسسات الاجتماعية التي حققت المثل العليا التي توصلت اليها الشعوب الأخرى . لقد أتتنا المثل العليا للحياة الحديثة من اليونانيين لكن المؤسسات الاجتماعية للحياة الحديثة اتتنا في الدرجة الأولى من الرومان . قاس الرومان الأمور بمقياس نفعها ، فكانوا من هذه الجهة شعباً نفعياً .

« ان الانتقال من أثينا إلى روما كالانتقال من الشعر إلى النثر أو من نزهة الفنان إلى مركز الأعمال ، أو من شعب يحاول أن يجعل الحاضر جميلاً وأن يتمتع به بطريقة نبيلة معقولة ، إلى شعب يضع المتعة الحاضرة في منزلة أقل ، من حيث الأهمية ، من الربح في المستقبل ، من شعب يعيش في العقل إلى شعب يعيش بالسلطة »

« ان النبوغ الروماني في التنظيم ، ظهر بصورة خاصة ، في المؤسسات العسكرية والسياسية التي أصبحت روما بفضلها قادرة على تحقيق امبراطورية عالمية عظيمة فاقت امبراطوريتي الفرس والاسكندر . وقد أعد الرومان مجموعة من القوانين المدنية ، هي الآن أساس كل الأنظمة التشريعية في الغرب والشرق .

وكان نبوغ الرومان في التكيف والتطبيق أعظم منه في الابداع ، ظهر ذلك فيما قدمه الرومان إلى الفن والأدب ، على الرغم من أن بعض الانتاج الأدبي الذي قدمه أمثال «شيشرون » (Cicero) و « ڤرجيل » (Vergil) و « هوريس » (Horace) قد أثر في الأدب حتى يومنا الحاضر . أما في حقل العلوم فقد كان انتاج الرومان في العلوم التطبيقية اكثر منه في العلوم الصرفة ، إذ أخذ الرومان العلوم الفكرية النظرية عن الفلاسفة اليونان وطبقوها في بناء الطرق والجسور والسدود وفي تطوير الزراعة ، أما في التربية فعلى الرغم من أن الرومان لم يقدموا إلى العالم إلا القليل من الابداع في تطوير الفكر التربوي فقد استطاعوا أن يضعوا نظاماً تربوياً ، كان من حيث التنظيم والفعالية أفضل من كل الأنظمة التربوية التي سبقته[٣] .

ما هي المؤثرات التي انتجت هذه المميزات الرومانية ؟ ما هي العوامل التي مكنت روما من هذا الاسهام الغريب في تنمية الحضارة بصورة عامة والتربية بصورة خاصة ؟ ما هو منشأ هذه الأمة الناشطة الشجاعة ؟

---

(2) **Aymard, André et Auboyer, Jeanine**; Histoire Générale des Civilisations, Tome II Rome et son Empire, Edition Oueidat, Beyrouth, 1964, pp. 102 - 103

(3) **Davidson, Thomas**; A History of Education, p. 106, New York, Charles Scribner's son, 1900

قطن شبه الجزيرة الإيطاليـــة ، معظم الوقت ، شعوب ثلاثة : (١) الإيطاليـــون (الإيطاليك) (٢) والاتروسك (Etruscan) (٣) والمستعمرون اليونان . أما الإيطاليون وهم العرق الرئيسي في شبه الجزيرة ، فكانوا يتألفون من القبائل الآرية التي أتت من جهة جبال الألب واحتلت أواسط ايطاليا . (وأهم هذه القبائل كانت قبائل « السابنز » (Sabellians) « والامبريون » (Umbrians » واللاتين وغيرهم)[٤].

واتبعت شبه الجزيرة نظام المدينة ــ الدولة كما هي الحال في اليونان ، واصبحت روما المدينة ــ الدولة اللاتينية، أعظم هذه الدول وأهمها . أما من هو الشعب (الاتروسكي) ومن أين أتى فلا نعرف تماماً ، ولكنهم منذ ظهورهم في التاريخ كانوا أسبق من الايطاليين في كل ما يتعلق بالأمن والراحة والرقي . فقد صنعوا الأواني الخزفية كما فتحوا الطرق وحفروا القنوات واقاموا الجدران الضخمة والقبب والأبواب المقوسة . وكان لهم قادتهم الدينيون وقوانينهم المقدسة . ولا ريب في ان الايطاليين ، وخاصة اللاتينيين، قد تعلموا الكثير من هذه الحضارة الاتروسكية القديمة . بيد ان المستعمرين اليونان قد تغلبوا عليهم ، بوصفهم معلمي الإيطاليين، عندما بدأ هؤلاء ، في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، احتلال شواطىء ايطاليا وصقلية الشرقية والاستقرار فيها .

« من امتزاج هذه الشعوب المختلفة نشأت الأمة الرومانية القوية الناشطة . وبطبيعة شبه الجزيرة الإيطالية البالغة في الطول والضيقة في العرض بالنسبة إلى طولها ، كانت البلاد من كل جهاتها متاخمة لبلدان أجنبية يتسرب منها الاعداء بسهولة إلى إيطاليا . وقد شعرت ايطاليا بضعف مركزها الجغرافي فاتحدت بقيادة روما ، وظلت حتى بعد هذا الاتحاد معرضة للخطر لأن الأمم المجاورة كانت قوية ــ وهكذا دفعت غريزة حب البقاء روما إلى الاقدام على نهج التوسع الاستعماري العظيم باحتلال البلدان الأجنبية . فحولت وجهها نحو الغرب ، نحو الأمم الجديدة الحيوية وحصرت همها الأول في اعطاء هذه الشعوب مؤسساتها وتنظيمها . وكان بفضل روما ان نشأت شعوب أواسط أوروبا وغربيها فاصبحت أمماً حديثة . لهذه الأسباب وكثير غيرها ينظر إلى الرومان « كآخر القدامى وأول الدول الحديثة » . وكانت الظروف الجغرافية والمناخية واستطاعة شعب الجزيرة على الاكتفاء الذاتي ، عوامل مواتية لتأمين رفاهية شعبها وسعادته وازدهاره »[٥].

ان تاريخ الأمة الرومانية يمتد إلى عدة حقبات من الناحية السياسية ، أما من الناحية التربوية فيمكننا أن نقسمه إلى حقبتين :

---

(4) **Aymard**... op. cit. Vol. I, pp. 88 - 158.

(5) **Monroe, Paul**; Text Book in the History of Education, New York, the Macmillan Company, 1922, pp. 176 - 185.

(١) الحقبة المبكرة أو الحقبة الرومانية الصرفة ، وتمتد منذ تأسيس مدينة روما سنة ٧٥٠ ق.م حتى حريق كورنثيا والحاق المدن الدولة بروما حوال سنة ١٤٦ ق.م .

(٢) الحقبة الثانية أو الاغريقية الرومانية وتمتد من سنة ١٤٦ ق.م حتى اقفال جميع المدارس الوثنية من قبل الامبراطور « جوستينيان » عام ٥٠٠ ب.م .

موقف الرومان القدامى من التربية

يرتبط تأسيس مدينة روما بالاسطورة المعروفة بـ « روميلوس » (Romulus) وأخيه « ريموس » (Remus) ولدي مارس إله الحرب عندهم . وتقول الأسطورة ان الطفلين تُركا في الغابة ليموتا ، لكن ذئبة أرضعتهما وربتهما ، وعندما كبرا أسسا « مدينة روما » ثم قتل « روميلوس » أخاه « ريموس » ، ويقدر وقوع ذلك حوالي سنة ٧٥٣ ق.م على ان هذا التاريخ ليس إلا تقديرياً .

وقـد ضمت روما بادىء الأمر اتحاداً من الاسر أو القبائل يسمى «كوريا » (Curia) أي العشيرة ، يحكمها قائد عسكري يسمى الملك ومجلس شيوخ مؤلف من رؤساء الاسر ومجلس نواب يسمى « كوميتيا كورياتا » (Comitia Curiata) أي « الجمعية العمومية » وتتكون هذه من الأحرار الذين يستطيعون حمل السلاح . لكن في سنة ٥٠٩ ق.م طُرد الملوك من الحكم وانتقلت السلطة إلى مجلس الشيوخ الأرستقراطي ولم يكن لعامة الشعب أية علاقة به . وهنا نشأ نزاع عظيم بين العامة والنبلاء حول الاعتراف بحقوق الشعب . وكان أهم اصلاح توصل اليه هذا النزاع سَن القوانين من قبل « ديسمڤيري » (Decemviri) الذي انتخب لهذه الغاية . وكانت القوانين العشرة الأُول قد سنت عام ٤٥١ ق.م . ثم أضيف اليها قانونان فيما بعد .

وبقي القانون مبنياً على العُرف حتى ٣٧٠ ق.م. وفي تلك السنة طالب الشعب بتدوين العرف ليتثبت من الحقوق الممنوحة له . فعينت لجنة مؤلفة من عشرة أعضاء مهمتها وضع نصوص للقوانين المعمول بها يوافق عليها فيما بعد ، مجلس الشعب ومجلس الشيوخ . وبالفعل قامت اللجنة بوضع النص وبحفره على اثنتي عشرة لوحة عرضت في الساحة العامة « الفورم » (Forum) ليطلع عليها كل من شاء . ولقد حطم تلك اللوحات جنود المغوليين عندما اجتاحوا روما فاعيد حفرها ثانية .

وفي عهد الأباطرة نزعت نهائياً واختفت معالمها . وبفضل الكُتّاب وعلماء القانون عرف فحواها بالضبط لأن القانون الذي احتوته تلك اللوحات كان يعتبر كاسمى ما توصل اليه العقل

الروماني في مضمار العلوم الحقوقية . ولقد عالج ذاك القانون القضايا المتعلقة بالأمور الآتية :[٦]

أولاً : وضع الأشخاص .

ثانياً : تنظيم الملكية .

ثالثاً : اصول المحاكمات .

هذه كانت قوانين « اللوائح الاثنتي عشرة » المشهورة التي سنت وقننت وعلقت في الشارع ، وبفضل هذه القوانين وغيرها من الاصلاح استعاد عامة الشعب الروماني ، تدريجياً حقوقهم واصبحت « روما » جمهورية حقة .

فما كان موقف الرومان من التربية خلال هذه الحقبة المبكرة التي ضمت عهد حكم الملوك وبداية الجمهورية ؟

أهداف التربية :

كان هدف التربية الرومانية الأولى قمع حرية الفرد لصالح الدولة وخلق أمة من المحاربين الشجعان والمواطنين المطيعين الذين يقومون بواجبهم . وكان المثل الأعلى عند الرومان يختلف عنه عند اليونان ، فقد اكد اليونان « العندية » (الذاتية) بينما اكد الرومان الموضوعية محاولين بلوغ هدف معين خارج ذواتهم وحياتهم الفكرية ، بلوغ عمل محدد ذي قيمة مادية ونفع لهم وللآخرين . لا ريب في ان التربية الرومانية الأولى كانت اعداداً للحياة العملية ، وكان هدفها تنمية المواطن الصالح والجندي الجيد والعامل الجيد . والصالح بنظرهم كان الرجل الذي يتحلى بالفضائل الأساسية للقيام بواجباته ومسؤولياته والتمتع بحقوقه . أما هذه الفضائل فهي ، التقوى والطاعة والرجولة والشجاعة والجرأة والاجتهاد والأمانة والحكمة والجدية والعفة والوقار والكرامة والعزم والرصانة .

كانت الفائدة (أي النفع) بالنسبة إلى الرومان ، الأوّل ، أفضل من الانسجام أو الجمال ، وهكذا كانت الفضائل الرومانية على اختلاف بيّن مع الفضائل اليونانية التي تضمنت : الحصول على الاكتفاء أو الرضا الذاتي ، والتمتع بالجمال ، والسعادة ، والنشاط الذهني من أجل ذلك فقط وليس من أجل أي أمر آخر . وقد اعتبر الرومان اليونانيين شعباً خيالياً غير واقعي ، لأن الرومان قيموا كل شيء بحسب فائدته ونفعه . و تى الدين كان بنظر الرومان وسيلة عملية لحسن التصرف في العالم ، ووسيلة لتنظيم حياتهم اليومية وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بشؤون العائلة والشؤون السياسية وشؤون العمل . لقد كرس دينهم حب الوطن وبارك العلاقات

---

(6) **Eby, Frederick and Arrowood, Charles F.; The History and Philosophy of Education Ancient and Medieval, pp. 515 - 577, New York, Prentice Hall, Inc. 1940**

العائلية ، وحافظ على قداسة القَسم ، وأنشأ فيهم شعوراً بالواجب ، وفي الحقيقة انه ، أي الدين ، أيد معظم أهداف تربيتهم وأعطاها قوة — كان هدف التربية عندهم بصورة عامة ، اعداد الرجال ليصبحوا ناشطين كفوئين في حياتهم اليومية وليتمكنوا من الظفر في حروبهم ، وليكونوا حكماء في السياسة وليحترموا آلهتهم (٧) .

نوع التربية :

وهكذا كانت التربية عند الرومان في الدرجة الأولى تدريباً عملياً على شؤون الحياة . فلم يحاولوا تدريب الفكر أو الفن ، والشعر والموسيقى والرياضة ، هذه الأمور التي كانت سائدة في التربية اليونانية (أثينا) ، ولكنها كانت غائبة عند الرومان . « كانت حياة الرومان الأول واقعية وجدية » لذلك وضعوا الأهمية الأولى على التدريب البدني والتدريب العسكري والمهني .

كانت نظرتهم إلى الحياة أدبية كما كانت عملية ، وكانت معظم تربيتهم من نوع التدريب الخلقي (الأدبي) كما كانت الحقوق والواجبات الأدبية محددة بالقانون ، ويقابل كل حق واجب . وقد دُرِّب الشبان على اطاعة القانون الأدبي لأن القانون الأدبي والقانون المدني كانا في الواقع واحداً .

وكان التدريب الديني مرتبطاً بالتدريب المدني والأدبي ، لأن الدين الروماني كان دين واجب بينما كان الدين اليوناني دين جمال . والمواطن الروماني الصالح كان مطيعاً للسلطة تقياً مقتصداً وأميناً . وكان دينه عملياً وكذلك مقاييسه عملية ، لأنه وان كان مستعداً لأن يضحي بحياته لصالح الدولة ، فإنه كان ايضاً مستعداً لأن يثري نفسه على حساب جيرانه واحتلت التربية المهنية بين الرومان مكانة محترمة بينما كان اليونان الأحرار ينظرون اليهـــا بازدراء .

منهج التربية :

كان منهج التربية الرومانية القديمة كما رأينا عملياً وأدبياً بطبيعته فالأولاد تعلموا الحياة البيتية والمواطنة والتقاليد العائلية ، ولم تكن لهم كتب في البداية ، انما حفظ الأولاد وانشدوا الأغاني التي كانت تمجد الصفات التي أحبها الرومان ، كما حفظوا الأغاني الدينية والقوانين التي ضمتها الاثنتا عشرة لوحة .

وتدرب الأولاد أيضاً على الطقوس والممارسات الدينية . إذ كل نشاط من نشاطات الحياة كالحراثة والزراعة والحصاد والزواج والولادة ، كان يتم برعاية بعض الآلهة وكان من الضروري

---

(7) Wilds, Elmer, Harrison ; The Foundations of Modern Education, pp. 122 - 123, New York, Rinehart & Company Inc. 1950.

تقديم الاحترام لهذه الآلهة ، لأنها كانت بنظرهم قساة القلوب ويجب ارضاؤها بالذبائح والمراسم ، وهذا الارضاء ضروري إذا شاء الرومان أن تكون العلاقات العائلية والاجراءات الحكومية ، والحملات الوطنية، ناجحة موفقة ، وهكذا كان للدين علاقة وثيقة بالسلوك الخاص والعام .

وكانت قوانين اللوائح الاثنتي عشرة تشكل جزءاً كبيراً من منهج التربية في العهد الروماني الأول ، وكان تأثيرها في التربية الرومانية الأولى مثل تأثير قوانين موسى في التربية العبرية وقوانين « ايكورغوس » في تربية « اسبارطه » وقوانين « صولون » في التربية الأثينية الأولى . فقد حددت هذه القوانين العلاقات الخاصة والعلاقات العامة وأوضحت الحقوق الإنسانية والملكية لكل فرد يعيش تحت السطة الرومانية . أما الحقوق المعترف بها فكانت :

(١) حقوق الأب على أولاده .

(٢) حقوق الزوج على زوجته .

(٣) حقوق السيد على عبيده .

(٤) حقوق الإنسان الحر على الإنسان الآخر بالتعاقد أو التنازل .

(٥) حقوق الإنسان في ملكيته .

وكان من المفروض على الشاب أن يحفظ هذه القوانين لتكون دليلاً عملياً له في حياته ، وهذا كان درس المواطنة .

أما في البيت فقد لعب الأولاد وشُجعت الألعاب بين الصبيان والبنات لتساعدهم على تنمية القوة والحيوية ، ثم أعطى الصبيان تدريباً عسكرياً خاصاً ، فيما بعد ، في المعسكرات . أما التربية البدنية خارج نطاق الاستعداد إلى الحرب فقد كانت غريبة بالنسبة إلى العقل الروماني . وكلما تقدم الولد في السن كان يرافق أباه ويتعلم منه ومن الرجال الآخرين مهارات الحياة . وإذا كان والده من طبقة النبلاء فكان يرافقه إلى الولائم والحفلات وإلى « الفورم » (الساحات العامة) . وأما إذا كان من الطبقة العامة فكان يرافق أباه إلى المزرعة أو العمل ليقوم بواجباته معه هناك .

أما الفتيات فكن يتدربن في البيت مع أمهاتهن على الأعمال المنزلية والفضائل الأخلاقية ، فكن يتعلمن الغزل والحياكة والقيام بالواجبات البيتية الأخرى . وكن يتعلمن في أي وقت قضت الحاجة . أما القراءة والكتابة فكانت الحاجة اليهما قليلة جداً ولذلك كانتا تعلمان نادراً حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد حين أخذ بعض المعلمين يفتحون مدارس يونانية ابتدائية على نفقتهم الخاصة .

وسائل التربية :

كانت العائلة هي المؤسسة الهامة في حياة الرومان الأول ويعود الفضل الأول لعظمة روما، في أفضل أيام الجمهورية، لاستمرار العائلة في احتلال هذه المكانة الرفيعة . كانت السلطة العليا للاب لكن المرأة كانت أيضاً تحتل مقاماً رفيعاً من الاحترام . كان للاب الحق في تعريض الأطفال الضعفاء أو ذوي العاهات إلى الموت، أما الذين يحتفظ بهم فكانوا في الغالب ينشأون أقوياء أصحاء . ومع ان العادات الأولى وضعت الزوجة تحت سلطة زوجها فانها كانت تذهب بحرية إلى المجتمع وتعلم أولادهما وأحياناً تساعد زوجها في مهنته وأعماله. وبحكم وظيفتها كسيدة المنزل كانت الدولة تحترمها وكذلك المجتمع بصورة عامة . وقد اهتم الأبوان بنفس النسبة بتدريب أولادهما على الفضائل الجدية البسيطة التي تجعل منهم محاربين شجعان ومواطنين صالحين . فكان الأب يقوم بمسؤوليات المعلم والكاهن معاً في هذا العهد وكانت الأم تساعد في جميع ذلك . وهكذا كان البيت مدرسة صارمة في الأخلاق تدرب الشباب على الحياة الخاصة والعامة معاً .

« عندما ننظر إلى التربية من خلال المفهوم الذي يؤكد واجبها في تكوين الأخلاق ، يصبح دور المدرسة ثانوياً ويقوم بهذا الدور مؤسسات أخرى في طليعتها البيت »[٨].

ان المعسكر والساحة العامة « فورم » والمزرعة والمشغل والحانوت كل هذه الوسائل تعمل في تربية الصبي ، لكن الفتاة كانت تتم تربيتها بكاملها في البيت برعاية الأم . لقد استحضر ، حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، كثير من اليونانيين المثقفين إلى روما بصفة عبيد وعمل هؤلاء أحياناً كمربين لأولاد العائلات الميسورة ، ثم فتح بعض المعلمين اليونان مدارس في روما علموا فيها مبادىء التربية الفكرية الذين كان في استطاعتهم دفع أجور هذه المدارس لكن المحافظين الرومان استخفوا بهم وازدروهم فلم يكن بوسعهم التقدم السريع .

التنظيم :

كان التنظيم في الدرجة الأولى قائماً على أساس البيت حيث اشرفت الأم على تربية الأولاد المبكرة ، ثم رافق البنون أباءهم إلى المزرعة أو المشغل حيث تعلموا حرفة الوالد أو إلى « الفوروم» حيث تدربوا على القيام بدورهم في الشؤون العامة بالاستماع إلى مناقشة قضايا الدولة والحوار حولها .

وعندما يصل الشاب إلى سن السادسة عشرة يصبح مواطناً في الدولة ويشتمل بشملة الرجولة « Toqa virilis » بدلاً من شملة الشباب ، « Toqa Praetexta » ، ويتم ذلك وسط

---

(8) **Monroe, Paul.** Ibd. p. 185

المراسم والطقوس الدينية والتقديمات في الهيكل والاحتفالات العائلية . ثم يدخل بعد ذلك المعسكر لينال تربية عسكرية خاصة ، وهكذا كان يتم اعداده لواجبات الحياة المدنية والعسكرية (٩) .

الطريقة :

كانت الطريقة المتبعة في التربية الرومانية خلال الحقبة الأولى طريقة التقليد المباشر . لقد اقتنع الرومان بان الطريقة الصحيحة لتعلم أي نشاط أو كسب أية فضيلة هي بتقليد نموذج معين وممارسة النشاط أو الفضيلة ممارسة كافية لكي تصبح عادة متأصلة . وقد اكد هؤلاء الرومان على تكوين العادة ، وهكذا كانت التربية بالدرجة الأولى تدريباً وليست تعليماً ، لان العادات لا تكتسب بالتعليم بل بالممارسة . فالولد يتعلم بتقليد أبيه والفتاة أمها . وكان يطلب اليهم بالحاح تقليد أبطال الماضي الذين خدموا روما والذين سجلت بطولاتهم في الأغاني والقصص . فكان درس سير الأبطال والأمثلة الحية نماذج جيدة لتقلد وينسج على منوالها . وكانت هذه السير تقرأ على مسامع الأولاد . كما ان القليل من القراءة والكتابة والحساب الذي علمه الأب لأبنه تم بطريقة التقليد أيضاً . وقد تعلم الأولاد قوانين اللوائح الاثنتي عشرة بحفظها غيباً مع بعض الأغاني والأناشيد الدينية . وعلى الرغم من أن هذه القوانين كانت تعتبر مصدراً لتوجيه الحياة العملية فانها لم تدرس دراسة دقيقة ، لأن العنصر الفكري في التربية الرومانية كان ضئيلاً .

أما الانضباط فقد كان شديداً جداً وبامكان الأب أن يفرض العقاب البدني وحتى الموت إذا شاء وهذا كان حقاً خوله اياه القانون .

موقف الرومان المتأخرين من التربية

لقد رأينا في الحقبة الأولى من تاريخ الرومان ان المثل والممارسات التربوية كانت رومانية صرفة ، أما في الحقبة المتأخرة فقد أخذ التأثير اليوناني يتغلغل بازدياد في الحقل التربوي وأصبحت التربية معقدة . ولكن لما كان الرومان بطبيعتهم محافظين كان الانتقال من الحقبة الأولى إلى الحقبة الثانية ابطأ مما كان في أثينا لذلك لا يمكن تحديد تاريخ فاصل بين الحقبتين .

جاء تأثير اليونان في بعض النواحي مبكراً ، فقد اقتبست روما أبجديتها من اليونان كما ان بعض عناصر ديانتها وقوانينها كانت يونانية صرفة ، لكنها لم تقتبس تطورات اجتماعية أو

---

(9) **Monroe, Paul.** Ibd. p. 186

تربوية مهمة من اليونان إلا في القرن الثاني قبل المسيح . وكانت هذه التطورات في حقل التربية في باب الوسائل والمؤسسات ، أما التطورات الأساسية في هذا الباب فكان قبولها ناتجاً عن عدم وجود نظام تربوي في روما .

عندما امتدت سلطة روما السياسية والعسكرية خارج شبه الجزيرة الإيطالية بفضل الحروب المكدونية والقرطجنية احتك الشعب الروماني بالحضارات الأخرى خاصة اليونانية فاتسع بذلك أفقهم الفكري ، ومنذ سنة ٢٦٧ ق.م. أستجلب اليونان المثقفون إلى روما كعبيد وكان من بين هؤلاء « ليفيوس أندرونيكوس » (Livius Andronicus) الذي أصبح بعد أن اعتق ، معلماً للغة اليونانية للشباب الروماني . وقد ترجم الأوديسه إلى اللاتينية وهكذا ادخل هوميروس في التربية والمدارس الرومانية . كما وان كثيراً من اليونانيين فتحوا مدارس في روما لتعليم اللغة اليونانية والأدب اليوناني ، وأخذ بعد ذلك ، الشبان الرومان يذهبون إلى اليونان ليلتحقوا في مراكز التدريس فيها لمتابعة درس علم البيان والبلاغة والفلسفة ، كما جاء إلى روما بعض أساتذة الفلسفة والبلاغة اليونان .

وفي مطلع هذا العهد ، عهد الانتقال التدريجي ، أنشئت المدارس الابتدائية الخاصة ، أنشأها معلمون على حسابهم الخاص ، لتعليم القراءة والكتابة والحساب . وكانت تسمى هذه المدارس « Ludi » « لودى » مشتقة من لفظة « لودوس » ومعناها الرياضة واللعب ، مما يشير إلى أن مهمة هذه المدارس كانت ثانوية وانها لم تكن ضرورية في تربية النشء الروماني ، ولم تقلل هذه المدارس من أهمية التأكيد على دور العائلة في التدريب على عادات وواجبات الرجل والمواطن .

وكانت هذه المدارس الخاصة تحت تأثير اليونان ونفوذهم ولم يدخلها إلا أولاد الطبقات العالية ، وكانت تحتل بيوتاً خاصة أو بعض أروقة الهياكل والأماكن العامة . وكانت تعتبر بادىء الأمر ، حتى بنظر أصحابها ، انحرافاً عن التدريب الأساسي في التقاليد الرومانية الصرفة .

كان من المستحيل حصول انتقال سريع بسبب طبيعة الرومان المحافظة ، وكان قائد المعارضة « كاتون » (Cato) (٢٣٤ – ١٤٩ ق.م.) الذي عارض بعنف ولمدة عدة سنوات نمو الأفكار والعادات اليونانية وانتشارها لاقتناعه بان اليونانيين كانوا آخذين بالتدهور والانحطاط ، وكتب يحذر مواطنيه مما اعتبره تأثيراً شريراً قال : (١٠)

« صدقوني ان اليونانيين شعب لا خير فيه ولا يمكن اصلاحه ، فاذا ما نشروا أدابهم بيننا يهدمون كل شيء والأخطر من ذلك إذا ما أرسلوا حكماءهم الينا لأنهم قد آلوا على أنفسهم وأقسموا بان يقتلوا البرابرة والرومان » .

---

(10) Natural History, XXIX, 7, 14 (Pliny) مقتبسة من بلني

وقد اثمرت جهوده وتحريضاته فاصدر مجلس الشيوخ عام ١٦١ ق.م. قانوناً طرد بموجبه جميع الفلاسفة وعلماء البلاغة اليونان من روما .

ولكن بعد موت « كاتون » « Cato » بسنتين وبعد التغلب النهائي على اليونان بتحطيم كورنثيا (سنة ١٤٦ ق.م.) فتحت أبواب روما على مصراعيها للمؤثرات الأجنبية – فنقل اليها بواسطة البواخر أحمال كثيرة من التحف الفنية الثمينة المنهوبة من مدن صقلية واليونان . فأخذ النبلاء الأغنياء يزينون قصورهم بهذه التحف والتماثيل المسروقة دون تقدير لجمالها الحقيقي . ودخلت مع هذه التحف الفنية الأجنبية الآراء والفكر والدين والأخلاق . ولا غرابة إذا ما وجدنا بين المنهوبات بسبب هذا الغزو العلماء اليونان والادب اليوناني والمكتبات اليونانية الكاملة التي نقلها الفاتحون إلى روما . ومما استُجلب أيضاً النظام التربوي الذي بنيت عليه الحضارة اليونانية ، لكن لا ريب ان الرومان حسنوا كثيراً هذا النظام من حيث التنظيم الذي اشتهروا به . وسجل نشر كتاب «شيشرون» (Cicero) الخطيب (De Oratore) عام ٥٥ ق.م. التغلب النهائي للتأثير اليوناني على التربية الرومانية ، لأن هذا الكتاب هو أول كتاب يؤلفه روماني حول المثل التربوية اليونانية . وهكذا ركز النظام التربوي اليوناني الروماني في هذا العهد وبقي دون تبديل حتى نهاية الامبراطورية . « وفي الواقع ان اليونان المقهور (الأسير) أسر قاهره الشرس « . (١١)

فماذا كانت المواقف التربوية خلال هذا العصر اليوناني الروماني ؟ وفي أية اعتبارات فعل التأثير اليوناني في تقرير أهداف التربية وأنواعها ومناهجها ووسائلها وتنظيمها وطرائقها في الدور الروماني المتأخر ؟

أهداف التربية :

كانت أهداف التربية الرومانية في هذه الحقبة متجهة في الدرجة الأولى نحو تطوير الفكر ، فاصبحت القدرة اللغوية والمقدرة في الخطابة والحوار هدف التربية الأساسي . وحافظوا في البداية على التأكيد الروماني الصرف على الأخلاق ، فالخطيب الذي يعتبر الرجل المثقف ثقافة مثالية يجب أن يكون أولاً ذا خلق حسن ومن ثم خطيباً ماهراً . وكانت مهمة التربية ان تعد الرجال الماهرين في الخطابة الذين يستطيعون خدمة الدولة وهذا هو الخطيب الحقيقي . وقد اشتمل هدف التربية على ثلاثة عوامل : (١) الخلق الأدبي (٢) الثقافة الواسعة (٣) القدرة على الخطابة والاقناع .

« لقد حاول الرومانيون أن يُدخلوا الثقافة اليونانية والنشاط الذهني والفردية اليونانية إلى مؤسساتهم وحياتهم . ولم يحاول شعب من قبلهم وربما في أي وقت آخر أن يقتبس مثلهم ،

---

(1) **Aymard** .. op. cit. Vol. I, pp. 238 - 255

بدقة وبالتفصيل ، الحياة الفكرية من شعب آخر . ان الحيوية الاصيلة في طبيعة الرومانيين مكنتهم من هذا الاقتباس دون التخلي نهائياً عن مميزاتهم الخاصة وبذلك تمكنوا من ادخال بعض التعديلات على المميزات الفكرية والتربوية اليونانية . على أن الرومان لم يتمكنوا يوماً من بلوغ الذكاء والشمول والفصاحة والابداع اليوناني ، وجل ما استطاعوا تحقيقه هو اتقان المظاهر الخارجية فاتقنوا ، في أفضل حالاتهم ، الأشكال الأدبية ، وفي أسوء حالاتهم أصبحت التربية في القرون الأخيرة من حياتهم تتميز بالشكل الصرف اما محتوياتها فقليلة أو ذات قيمة قليلة » (١٢)

كان هدف التربية عند الرومان اعداد التلميذ للحياة العامة ، وقد اكد مفكروهم أمثال « Cicero » شيشرون (١٠٦ – ٤٣ ق.م.) في كتابه « الخطيب » (De Oratore) ، و « تاسيتوس » (Tacitus) (٥٥ – ١١٧ ب.م) في كتابه « فن أو علم الخطابة » (De Oratoribus) و « كونتيليان » (Quintilian) (٣٥ – ١٠٠ ب. م.) في كتابه في أصول الخطابة ، على اعتبار الخطيب الرجل المثقف الأمثل ، الذي يستخدم علمه في سبيل العمل للخدمة العامة . والذي يجب أن تكون له خبرة عامة واسعة وأفق رحب في الأمور الثقافية الأساسية . كما أكدوا انه يجب أن يكون رجلاً صالحاً .

وكان التدريب على خدمة المجتمع مثل الرومان الأعلى خلال عهد الامبراطورية ويتم هذا التدريب بنشاط وفعالية ، خاصة في مدارس الفصاحة والبلاغة . لكن هذا الهدف تبدل في الحقبة الأخيرة من عهد الامبراطورية حيث أخذت أهداف التربية تنحط ، فأهملت العناصر القديمة في التأكيد على الرجل الصالح والمثل الأعلى في خدمة الدولة وأصبح التدريب على الفصاحة يتم لأجل الأغراض الشخصية والتبجح فقط .

أنواع التربية :

كانت التربية فكرية ولكنها كانت عملية أيضاً والتدريب على الخطابة كان أهم أنواع التدريب ويمكننا أن نقول ، إذا ما نظرنا إلى الأهداف البعيدة ، ان هدف التربية في هذا العهد كان التربية المدنية .

لم تكن التربية الرومانية في هذا العهد ديمقراطية أو عامة ، لكنها أنتجت رجالاً عظاماً اشتهرت أسماؤهم في كل أنحاء العالم بالخدمات التي قدموها ليس لروما فقط بل للعالم أجمع . من هؤلاء « شيشرون » و « فرجيل » و « سيزار » و « سنيكا » و « كونتيليان » الذين برعوا في التفكير والكلام والكتابة واعتقدوا ان مواهبهم هذه يجب أن تستخدم في سبيل نفع الآخرين .

---

(12) **Monroe, Paul** ; op. cit. p. 197

لكن الزعماء الرومانيين لم يخطر ببالهم ان روما لا تستطيع البقاء إلا إذا رفعت مستوى الذكاء والثقافة عند عامة الشعب ، فاكتفوا بتدريب بعض الزعماء تدريباً فكرياً رفيعاً وشاملاً وتركوا السواد الأعظم من الشعب ينالون تدريباً حرفياً ضيقاً دون الاهتمام بتربيتهم الخلقية فكانت نتيجة ذلك ان أخذ الشعب الروماني ينحط تدريجياً ويهتم فقط في الأمور المادية التي ترضي حواسه وقابليته وهكذا ضاعت جهود مفكريهم في النهاية ، فأخذت روما بالانحلال ثم انحطت فسقطت في النتيجة .

الوسائل والتنظيم :

لقد ظهر نبوغ الرومانيين في حقل التنظيم ، بتنظيم المدارس وجعلها في مراحل منسقة ومتكاملة . لقد اقتبس الرومانيون المؤسسات التربوية اليونانية لكنهم اتقنوا تنظيمها بشكل لم يفكر به اليونانيون من قبل ، وهكذا أعطت روما العالم نظاماً تربوياً متقناً .

ففي مرحلة التعليم الابتدائي أنشأوا « مدرسة معلم القراءة » التي حلت محل مدرسة « لودي » (Ludi) التي تعني مدرسة الرياضة أو اللعب ، وحضرها البنون والبنات معاً من سن السابعة حتى العاشرة وأنشأوا في مرحلة التعليم الثانوي مدرسة « غراماتيكوس » أي مدرسة معلم القواعد ، وهذه خُصت بالبنين فقط من العاشرة حتى السادسة عشرة . وقسمت هذه المدارس إلى نوعين (١) مدارس قواعد اللغة اليونانية وتدرس القواعد والادب اليونانيين . و(٢) مدارس اللغة اللاتينية وتدرس القواعد والأدب اللاتينيين . وكان أولاد الرومانيين يحضرون الاثنين معا لكن « كونتيليان » أوصى بأن يذهب الولد أولاً إلى المدرسة اليونانية ثم يذهب إلى المدرسة اللاتينية . وأما في مرحلة التعليم العالي فانشأوا « مدرسة الفصاحة » التي تمتد الدراسة فيها لسنتين أو ثلاثة للاولاد الذين بلغوا السادسة عشرة .

لم يكن في روما بادىء الأمر ، معاهد أعلى من مدارس الفصاحة ومن شاء أن يتابع دراسة جامعية فعليه أن يسافر إلى الخارج إلى أثينا أو الاسكندرية أو « رودوس » . لكن بعد أن درج الرومان على عادة نقل المخطوطات إلى روما كاسلاب الحرب انتهت هذه العادة بتأسيس مكتبة في روما أسسها عام ٧٥ ب.م. « فسباسيان » ثم نشأ حول هذه المكتبة مركز للتعليم والدرس سمي الـ « اثينيوم » « Athenæum » الذي اعتبر أول « جامعة في روما » .

كانت كل المدارس بادىء الأمر مدارس خاصة تعتمد على أجور التلاميذ لدفع رواتب المعلمين وكان حضورها اختيارياً وللقادرين مالياً . على أن الرومانيين لم يعتبروا مدارس القراءة مهمة في نظامهم التعليمي ولم يحترموا المعلمين الذين كانوا يعلمون فيها كما ان رواتب هؤلاء كانت ضئيلة وغير نظامية وغير مضمونة . ولما كان التعليم في هذه المدارس لا يتطلب أية مؤهلات كان يعهد بادارتها إلى سيد حر ، وكان التعليم ضعيفاً والتجهيزات المدرسية حقيرة . وفضل

الكثيرون من أبناء الرومان الا يدخلوا هذه المدارس بل يكتفوا بتحصيل تعليمهم الابتدائي على يدي معلم خاص يحضر إلى بيتهم . وكان يرافق التلميذ بين البيت والمدرسة مرب يسمى « كوستوس » « Custus » يشبه البداغوغ « Pédagogue » اليوناني إلا أن اختياره كان يتم بدقة اكثر – وكان شأن هذا المربي المرافق للولد كشأن زميله في اليونان يحل محل الأب في مراقبة الولد . أما معلمو مدارس القواعد والفصاحة فكانوا من طبقة أفضل ونالوا راتباً أعلى .

وفي أواخر عهد الامبراطورية بدأت حركة جديدة تتجه نحو سيطرة الدولة على المدارس والانفاق عليها وخاصة مدارس القواعد والفصاحة والجامعة . وقد أثبت « كونتيليان » في مقال طويل تفوق المدرسة الرسمية على المدارس الخاصة وطالب بتأسيس نظام تعليمي رسمي كامل . وبدأ فسباسيان (٦٩ – ٧٩ ب.م) يدفع رواتب معلمي الفصاحة اليونانيين من الخزينة الرسمية . كما ان تراجان « Tragan » (٩٨ – ١١٧ب.م) عين اعانات رسمية للمدارس، وأعفى انطوانيوس بيوس (١٣٨ – ١٦١ب.م) كثيراً من المعلمين من الضرائب والخدمة العسكرية وواجب اعالة الجنود وثبت «ماركوس أوريليوس» (١٦١–١٨٠ب.م) دفع رواتب الأساتذة في الجامعة[١٣]

منهج التربية :

لم تحاول التربية الابتدائية ، حتى في هذه الحقبة المتأخرة ، أن تعطي اكثر من مبادىء القراءة والكتابة والحساب وبقيت قوانين اللوحات الاثني عشرة تستعمل ككتب للقراءة . أما في عهد « شيشرون » فقد حل محل هذه القوانين ككتب للقراءة، ترجمات هوميريوس وترجمات المبادىء الاخلاقية إلى اللغة اللاتينية أما الحساب فظل بدائياً جداً نظراً لتعقد النظام الحسابي الروماني .

وكانت القواعد في منهاج المدارس الثانوية، الدرس الرئيسي ، بيد ان مفهوم القواعد كان يعني في عهد الرومانيين اكثر مما يعني اليوم ، فقد كان يتضمن درس الادب كما يتضمن درس اللغة . أما الجغرافية والتاريخ والعلوم الطبيعية وعلم الأساطير « ميثولوجيا » فكانت تدرس بطريقة سطحية لكي تمكن التلميذ من فهم ، التلميح أو الاشارة إلى هذه المواضيع في الأدب . وكانت مدارس القواعد تهتم دوماً بالمواضيع ذات الطابع العملي (الواقعي) في حياة الرومان، فلا تعالج إلا المواضيع التي لها قيمة عملية، أما الرياضة والرقص فلم يدخلا إلى المدارس . فالرياضة كانت ترتبط بالتربية العسكرية ، والرقص كان يعلم في البيت . أما الموسيقى فكانت تعلم بالارتباط مع درس « الكلام » (الخطابة) كوسيلة لتحسين الالقاء في الخطابة .

---

(١٣) ان التواريخ علاه تشير الى مدة حكم الامبراطور .

أما في التعليم العالي فكان علم الفصاحة والبلاغة يحتل المقام الأول . وكان هذا يتكون من الالقاء والارتجال والجدل والنقاش في نقاط مأخوذة من القانون الروماني والمبادىء الاخلاقية . كما أكدت أفضل هذه المدارس على المواضيع الاخلاقية والثقافية ، وقد الح « شيشرون » بأن الخطيب لا يجوز أن يكتفي بتنمية مواهبه الطبيعية للخطابة بل يجب أيضاً أن يكتسب المعرفة في حقول كثيرة لتكون هذه المعرفة أساساً لثقافته . كما طالب بمستوى خلقي رفيع . وكانت الفلسفة بنظره التاج الذي يجب أن يتوج به كل تعلم ، كما سماها مدرسة الفضيلة . وقال « شيشرون » يجب أن يعرف التلميذ تاريخ بلاده ، ولكنه لم يهتم كثيراً بالعلوم الطبيعية وسمى العلوم السياسية ملكة العلوم . وقال في كتابه « الخطيب » بأن الخطيب يجب أن تكون له معرفة الفيلسوف عن الأشياء وعن الطبيعة البشرية لكنه بالاضافة إلى ذلك يجب أن تكون له القدرة على جعل هذه المعرفة فاعلة نافذة وذلك بتأثيره على مواطنيه بواسطة الخطابة .

أما « كونتيليان » فيرى ان مدرسة الفصاحة يجب أن تعرِّف الولد بالموسيقى والحساب وعلم الفلك والهندسة والفلسفة كما تعرفه مدرسة القواعد بالادب ، وقد اعتبر العناصر الآتية مهمة في تدريب الخطيب : (١) معرفة الأشياء و (٢) مجموعة جيدة من المفردات والألفاظ والقدرة على حسن اختيار الكلمات و (٣) دماثة أورقة في العادات و (٤) معرفة التاريخ والقانون و (٥) ذاكرة جيدة و (٦) القاء جيد . واكد « كونتيليان » اكثر من كل شيء الناحية الاخلاقية في التربية لأنه كان يعني ان الإنسان لا يستطيع أن يكون خطيباً جيداً إذا لم يكن انساناً طيباً . بيد ان المدارس لم تستطع أن تطبق هذه المثل العليا التي قال بها « شيشرون » و « كونتيليان » .

وقد اختلف منهاج الجامعة الرومانية عن منهاج الجامعة اليونانية ، فلم يشمل التأملات الفلسفية ولا العلم الصرف ، لأن الرومان لم تغرهم هذه الأمور بل جذبتهم العلوم التطبيقية ، لذلك اعتنوا في الجامعة بالاعداد المهني للقانون والطب والميكانيك والهندسة المعمارية ، واحتل الطب والقانون في الجامعة المقام الذي احتلته الفلسفة في الجامعة اليونانية .

الطريقة :

كانت الطريقة المتبعة في المرحلة الابتدائية طريقة التحفيظ (أو الاستظهار) والتقليد . فكان الأولاد يجلسون على الأرض أو على حجر ويضعون كتبهم فوق ركابهم ، وكان النهار المدرسي طويلاً يمتد من شروق الشمس حتى غروبها . لكن المدارس كانت تعطل في الصيف وكانت الفرص كثيرة . وكان التلاميذ يتعلمون أسماء الأحرف وتسلسلها دون الاهتمام بأشكالها . ويحفظون جميع المقاطع حفظاً ببغائياً ، ثم يتعلمون الكتابة والقراءة بتمارين يلقيها عليهم المعلم وتوجه عناية خاصة للفظ والنطق والتعبير الواضح ، أما الكتابة فكانت تعلم بالاستنساخ على صحائف من الشمع بقلم معدني كما كانت الحال في اليونان . ويعلم الحساب بالعد على الاصابع

أو بالحصى ، أو بلوحة العد (معداد) . أما الانضباط فكان صارماً وكثيراً ما كانت تستعمل العصا أو السوط لذلك .

أما في المستوى الثانوي فكانت الطريقة بالتدريب على العادات الأدبية والاخلاقية الجيدة ، وكان يتم عادة التدريب المركز على القواعد بجميع عناصرها . كما يدربون على الانشاء والتلخيص وكتابة الشعر . وكانت الطريقة المحببة لدى المعلم املاء عبارة أو فقرة من أحد المؤلفين ينقلها التلميذ بحرفيتها ثم يستخدمها كاساس لكتابة موضوع مفصل ينظم حسب المخطط الآتي :

١ ــ اطراء أو تقريظ المؤلف و ٢ ــ توسيع الموضوع أو الفكرة و ٣ ــ شرح المبدأ الذي يقوم عليه الموضوع أو الفكرة ، والدفاع عنه . و٤ ــ مقارنة الموضوع (الفكرة) بآراء مماثلة لمؤلفين آخرين و ٥ ــ جمع الوثائق أو الحوادث التي تؤيد الموضوع (الفكرة) و ٦ ــ ذكر العبرة الاخلاقية أو الدرس الذي يستخرج من الفكرة والحث على تطبيقه عملياً .

ويزداد التأكيد في مرحلة التعليم العالي ، على القاء القطع المستظهرة (المحفوظة) ، مع العناية الفائقة بالتجويد وحسن التلفظ والالقاء والاداء ومراعاة عناصر الخطابة الأخرى . كما كانت تقام مناقشات كثيرة يُشرح فيها القانون الروماني والأخلاق الرومانية . ويتمرن الطلاب في هذه المرحلة على الخطابة بالقاء المراثي في المآتم ، واعداد اللوائح للمدعي والمدعى عليه ومختلف أنواع الخطابة الأخرى . وقد استعمل علماء البلاغة طريقة المحاضرة في عرض المواضيع الكثيرة الضرورية لتأمين الخلفية الثقافية الضرورية للخطيب .

لم يكن كتاب « كونتيليان » في « أصول الخطابة » أول عرض عملي لحقل التربية بكاملها فحسب ، بل كان أيضاً أول محاولة لحل مشاكل الطريقة التربوية ، وهو من جهة أخرى ، أول معالجة لدرس مبادىء الممارسات والاجراءات التربوية ولوضع الأسس لما نسميه اليوم مبادىء التعليم الحديث . والأمثلة على ذلك كثيرة :

١ ــ يشجب « كونتيليان » استعمال القوة البدنية ويصر على ضرورة جعل الدروس جذابة ، مؤكداً ان طريقة التعليم الصحيحة تحول دون الحاجة إلى استعمال العقاب البدني .

٢ ــ يؤكد « كونتيليان » الحقيقة القائلة ان طبائع البشر مختلفة ويلح على أن يدرس المعلمون استعداد كل تلميذ على حدة (مبدأ مراعاة الفروق الفردية في التربية الحديثة) .

٣ ــ يحدد « كونتيليان » المواقف الصحيحة التي يجب أن يتخذها المعلم من تلاميذه .

٤ ــ يؤكد على أهمية اختيار أفراد الهيئة التعليمية بعناية ودقة كما يحدد الجدارات التي يجب أن تكون للمعلم .

وقد اعتبر كتاب « كونتيليان » هذا ، المرجع الثقة لتوجيه المعلم في القرون الأخيرة من تاريخ روما . ولم يكن « كونتيليان » مؤلفاً في حقل التربية فحسب ، بل كان أيضاً معلماً ناجحاً جداً ، لذا لم يكن كاتباً نظرياً خيالياً بل كان مربياً عملياً ناجحاً .

مراجع الفصل الرابع

1. **Aymard, André et Auboyer, Jeanine**; Histoire Générale des Civilisations, Tome II. Rome et son Empire, Edition Oueidat, Beyrouth, **1964.** Publiée sous la direction de Maurice Crouzet, Inspecteur général de l'instruction publique.

2. **Barnes, Harry Elmer**; An Intellectual and Cultural History of the Western World, New York, Random House, **1937.**

3. **Davidson, Thomas**; A History of Education, New York, Charles Scribner's sons **1900**

4. **Eby, Frederick, and Arrowood, Charles F**; The History and Philosophy of Education Ancient and Medieval, New York, Prentice - Hall, Inc., **1940**

5. **Hart, Joseph K**; Creative Moments in Education, New York, Henry Holt & Company. **1931.**

6. **Messenger, James F**; An Interpriative History of Education, New York, Thomas Y. Crowell Company, **1922.**

7. **Monroe, Paul**; A Text book in the History of Education, New York, The Macmilan Company, **1922.**

8. **Wilds, Elemer, Harrison**; The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. **1950.**

الفصل الخامس

بداية الحركة الانسانية

مفهوم المسيحية للتربية

في عهد الامبراطور أوغسطس بعد أن أخضعت روما معظم العالم المتمدن وبلغت أوج عظمتها العسكرية والسياسية وفرضت طابعها على كل أنحاء الامبراطورية ، ولد في الناصرة طفل دعي « يسوع » ، وكان أبناء فلسطين أنذاك يرزحون تحت نير حكامهم الرومانيين المستبدين وكان المتحمسون بينهم يغلون كالمرجل في حركة عصيان وتمرد أدت بعد بضع سنوات إلى هدم الهيكل وتشتت الأمة اليهودية .. وكان اليهود ، اثناء هذه المحنة ، يتطلعون بشوق إلى مجيء المسيح وبدء عهد جديد ومجيد ، لذلك كانوا يتبعون تعاليم رؤساء الكهنة ويطبقون شريعة موسى ، آملين أن يخلصوا بذلك من قيود الاستبداد والظلم . في غمرة هذه الظروف وفي هذه البيئة ولد الناصري الذي أصبح مؤسس المسيحية .

وقد عبر « هارت » في الفقرة الآتية خير تعبير عن هذا الحدث إذ قال :

« في زاوية منعزلة من الامبراطورية الرومانية المترامية الاطراف وفي أوج عظمتها ومجدها ولدت الروح الخلاقة »، فحطمت كل القيود الرجعية من العادات والتقاليد وأعطت العالم أملاً جديداً .. فالمسيحية كانت روحاً جديدة خلاقة لحياة جديدة — ليس في الحقل الروحاني فحسب بل في جميع حقول الحياة ، لذلك ليس بالامكان تقدير أثرها على التربية حق التقدير ومقدار عطائها لها ...

« وفي الحقيقة ان المسيحية لم تتمكن من تحقيق ما هدف اليه مؤسسها ، وقد غلبت على أمرها على أيدي أصدقائها المزعومين ، كما غلب سقراط على أمره في أثينا وعلى أيدي أصدقائه . ذلك « لأنه ليس للبشرية الجرأة على أن تكون خلاقة لأكثر من لحظة واحدة في زمن معين . وحتى في هذه اللحظة قد تتحفز المؤسسات القديمة بدوافع الأنانية للدفاع عن نفسها فتعيد تنظيم

نفسها وتبرر قيامها ، وهذا ما واجهته المسيحية » [1]

لا ريب في ان المسيحية كانت من أعظم القوى الخلاّقة في التاريخ ، وكان لها أعظم تأثير في الفكر التربوي الحديث . لقد سيطرت منذ عشرين قرناً على مدنية الغرب وحضارته فاثرت تأثيراً بالغاً في نظرياته التربوية وممارساته ، وعلى الرغم من أن المسيحية لم تتمكن من تحقيق جميع امكاناتها فان ما اعطته إلى المدنية بصورة عامة وإلى التربية بصورة خاصة لا يمكن تجاهله .

« ان تاريخ المسيحية طويل ومثير ، فهو يمتد إلى عشرين قرناً وقد كتب بمئات اللغات ، وهو من جهة تاريخ الجشع والمرارة والحروب المتواصلة والمكائد والأنانية . ولكنه في معظمه تاريخ الحنان العظيم والمحبة والفضيلة والتسامح والخلاص . ان تعاليم يسوع ، وهي النور الساطع ، قد حققت الخير الكثير وجعلت الحياة ممكنة لملايين لا تحصى من الأرواح المعذبة . لقد هدت الغني والفقير ، المتعلم والجاهل ، الأبيض والأسود ، والأصفر والأحمر ، كما هدت الجميع إلى طريق الخلاص . لقد أعطت المتألمين بلسماً وجميع المحزونين سلاماً . وهذه هي فضيلة المسيحية الكبرى ، لقد ساعدت على تقوية الضعيف وجعل المنبوذ سعيداً . لقد أزالت الخوف من صدور الناس وقضت على القلق الذي يحز في نفوسهم ... » [2]

ان المشكلة التي حاولت المسيحية حلها كانت المشكلة نفسها التي واجهت المدنيات الوثنية ، أي مشكلة التوفيق بين حرية الفرد في تحقيق رغباته وأمانيه الشخصية وبين الاستقرار الاجتماعي من أجل المحافظة على العرق أو الأمة . فكانت هذه المشكلة في الدرجة الأولى ، مشكلة اقامة نظام أو مستوى اخلاقي لعلاقة الفرد بالمجتمع ، وكانت الحلول التي قدمها مفكرو أثينا سقراط وأفلاطون وأرسطو ، مبنية على أساس الفكر ، فكانت بذلك ارستقراطية ، وقليلون هم الذين يتمكنون من تحقيقها . وكذلك الفلسفة الرواقية التي جذبت الكثيرين من أهل الفكر في روما ، قالت بان الفكر هو القاعدة الصحيحة للحياة وان الفضيلة هي نتيجته الطبيعية ، وهذه الفلسفة الفكرية لم يكن تحقيقها ممكناً إلا لقليلين . فما كانت تحتاجه الإنسانية هو نظام اخلاقي مبني على العواطف وعلى طبيعة الإنسان الأخلاقية ، نظام يصل إلى جميع الناس بما يوحيه من الخير والفضيلة . وقد أعطت التعاليم المسيحية هذا النظام وهكذا دخلت المسيحية إلى حياة الناس ، جميع طبقات الناس وجميع أجناسهم .

لقد أعطت المسيحية إلى العالم قوة أخلاقية جديدة ، وأفقاً جديداً لاطلاق القوى الإنسانية ، انسانية جديدة أصبحت الأساس لتربية الجميع ولتأسيس نظام اجتماعي سليم . لقد أكد اليونانيون

---

(1) **Hart, Joseph, K;** Creative Moments in Education, p. 140, New York, Henry Halt & Company, 1931

(2) **Browne, Lewis,** This Believing World, New York, Mac Millan Company, 1934, p. 301.

الخياليون والفنيون المبدعون الحرية السياسية والشخصية والابداع الفردي ، فكانت النتجية انهم أنشأوا أدباً وفناً وفلسفة تعتبر من أعظم تراث العصر الحديث . أما الرومان العمليون والطموحون الناجحون والنظاميون فقد اكدوا القانون والحكومة والفنون العملية ، ففرضوا القانون والنظام والمؤسسات الحكومية على عالم فوضوي مفكك . وهكذا كانت نقاط الضعف عند هؤلاء مركز القوة عند أولئك والعكس بالعكس ، فأخذت المسيحية أفضل العناصر من الاثينيين ونسقتها ثم أنشأت نظاماً اخلاقياً جمع بين مطالب الشخص ومطالب المجتمع وأمن تحقيقها .

كان الأثر الأخلاقي للمسيحية مزدوجاً : (١) مثل أعلى للاخلاق الشخصية يتضمن الفضائل كالاخلاص والأمانة والصدق والعفة — (٢) ومثل أعلى للمسؤولية الاجتماعية قائم على الدوافع الفاضلة كالمحبة الأخوية والولاء واللطف والكرم ومراعاة الجار والغيرية وعدم الأنانية . وكان لهذه المثل العليا أثر فعال في تخفيف حدة التمييز بين الطبقات وتقليل التعصب العرقي ورفع مستوى المرأة واعطائها مكانة أسمى ، وزيادة احترام الطفولة وقدسيتها . وأخذ المجتمع يعترف بحقوق الفرد كما يتطلب منه الواجبات ويحمله المسؤوليات .

ان درس مفهوم المسيحيين القدامى للتربية يتضمن درس تاريخ النزاع بين تعاليم يسوع الحقيقية وبين سوء تفسير هذه التعاليم وسوء فهمها وتحويرها من قبل أتباعه في الكنيسة القديمة . وقد أوقع هذا الخلاف بين تعاليم يسوع الأصلية وبين تفسير تلاميذه لها من جهة ، وتفسير اتباعه وما اقحموه فيها ، من جهة أخرى ، الارتباك والحيرة بين المسيحيين القدامى فادى ذلك إلى تغيير في المعتقدات والممارسات الدينية الاصلية التي قال بها « المعلم » وكان من الطبيعي أن يرافق ذلك تغيير في مواقفهم وممارساتهم التربوية .

لذلك سندرس المفاهيم التربوية عند المسيحيين الأول من هاتين الناحيتين : (١) موقف يسوع من التربية وممارساته التربوية و (٢) مواقف الكنيسة المسيحية الأولى من التربية وممارساتها التربوية في القرنين الأولين .

موقف يسوع من التربية

سننظر في هذا البحث إلى يسوع كمعلم لا كاله تاركين الوهيته هنا ومنكبين على درسه كمرب قام بدوره في هذا المضمار . لقد دعي يسوع بحق ، « المعلم العظيم » وفي الحقيقة انه كان أعظم المعلمين الثلاثة الذين حذقوا فن التعليم — سقراط ، وغوتاما ، ويسوع . وقد كان له الأثر البعيد في فكرنا الحديث .

لقد مثل يسوع في شخصيته وفي حياته وفي تعاليمه المعلم الأمثل . فقد كانت شخصيته جذابة وكان اعداده تاماً ، وكانت أهدافه رفيعة ، وطرقه فعالة . وقد عاش بمستوى مثله الرفيعة وفسّر هذه المثل للإنسانية بتجسيدها في حياته الخاصة [٣] .

الأهداف :

يلخص هدف تعاليم يسوع بالعبارة الآتية : « اطلبوا أولاً ملكوت الله وهذه كلها تُزاد لكم » [٤] أما ما عناه السيد المسيح بهذا القول وما فسرته الكنيسة المسيحية فيما بعد فامران مختلفان . وكان تفسير الكنيسة ، لسوء الحظ ، أفعل في التأثير على فكرنا التربوي ونظمنا التربوية . واذا كان لتعاليم يسوع أن تحقق ، في المستقبل ، أسمى امكانياتها كعامل مؤثر في التربية ، وجب أن يكون التفسير الحقيقي لكلمات يسوع هو الذي يوجه فلسفتنا التربوية وطرقنا التربوية في المستقبل . لقد علّم يسوع عقيدة جديدة بسيطة وعميقة تلخص « بمحبة أبوية شاملة وبمجيء ملكوت الله على الأرض القائم على أساس الاخوة الشاملة » ولا ريب ان هذه العقيدة هي أهم عقيدة ثورية أثارت الفكر الإنساني وغيرته . « ملكوت الله على الأرض » كهدف التربية النهائي ، لم يجاره هدف ولم يفق عليه هدف بنبله وعظمته . [٥]

وقد قدم يسوع مبدأين أساسيين ضرورين « لقيام هذا في قلوب الناس » هما : (١) احترام الشخصية الإنسانية وحقوق الفرد (٢) الكفاءة الاجتماعية في جميع العلاقات الإنسانية . لقد استهدف يسوع أن يعطي الفرد اكبر مقدار من الرضى في الحياة « السلام القائم على التفاهم » « وعلّم ان « كل بشري هو مقدس بنظر الله » . ولا ينكر أحد ان معظم الحركات التي اتجهت نحو تحقيق انسانية أعظم كانت تتأثر بتعاليم يسوع .

لقد أتى يسوع بانجيل اجتماعي جديد فعلّم مبادىء جديدة لتسيير العلاقات الإنسانية والمؤسسات الاجتماعية . (نعم قد عرف العالم « القاعدة الذهبية » قبل أيام المسيح لكن تطبيقها اقتصر على الأصحاب والأقارب وأهل الأمة الواحدة . وقد حد من أفقها الحقد بين الأعراق البشرية والكبرياء القومي والخوف والشك والعداء والتحيز) . لقد علّم يسوع وصية جديدة عظيمة : « احبب جارك كنفسك » وقد فسر الجار بشكل لا يرقى اليه سوء الفهم بأي حال من الأحوال . فان الشعارات القومية « أميركا أولاً » أو « المانيا فوق الجميع » وما أشبه ذلك من الشعارات لا يمكن أن تعتبر مسيحية في ضوء هذا التعليم الجديد . ان مثال الأخوة الشاملة

---

(3) **Potter, C. F.**; The Story of Religion, New York, Simon & Schuster, Inc. 1929, p. 232

(٤) انجيل متى – ٦ –٣٣ .

(5) **Monroe, Paul**; A Text Book in the History of Education, New York, The macmillan Company, 1922, p. 222

والجوار الشامل ، كما ورد في تعاليم يسوع لا يمكن أن يعني إلا درجة رفيعة من التعاون الاجتماعي والمساعدة المتبادلة واحترام حقوق الغير ، أنّى كانوا وأين كانوا ، لكن العالم الحديث بدأ الآن فقط يتلمس طريقه ببطء جداً نحو هذه المثل .

لم يهاجم يسوع المفاهيم التقليدية عن الوطنية والروابط العائلية فحسب لكن تعاليمه عن أبوة الله الشاملة وعن الاخوة في الإنسانية ، شجب بوضوح النظام الاقتصادي المصطنع الذي ساد في عهده كما شجب الثروة الشخصية والامتيازات الخاصة . واحتقر يسوع الغنى الخاص والأنانية المتأتية من الطمع والجشع والطموح الأناني . كما انه لم يبشر بثورة خلقية في حياة الفرد الخاصة فحسب بل في المجتمع أيضاً — فقال : « ان مملكتي ليس لها حدود جغرافية ولا تحكم من عرش انما هي مملكة قائمة في قلوب الناس » . وبمقدار ما تتربع هذه المملكة في قلوب الناس بذلك المقدار فقط يسود العالم النظام الاجتماعي الجديد .

كتب هـ. ج. والز (H. J. Wells) عن يسوع يقول : « كان يسوع عظيماً جداً واكبر من أن يدرك تلاميذه كنهه . وليس بعجب بعد أن قال ، بوضوح وصراحة ، ما قاله ، ان يشعر الأغنياء بالخوف من تعاليمه الجديدة . ربما استطاع الكهنة والحكام والأغنياء أن يفهموا يسوع اكثر من اتباعه ... كان يسوع كصياد اخلاق يبحث عن الناس ويخرجهم من أوكارهم الآمنة التي عاشوا فيها حتى ذلك الحين — أما مملكته فلم يكن فيها مقر ولا امتيازات ولا كبرياء ولا أفضلية ولا تعديات ولا مكافآت سوى المحبة . فلا عجب إذا بهرت عيون الناس وأصيبوا بالعمى وثاروا ضده . ولا عجب إذا شعر الكهنة ان بينهم وبين المسيح هوة كبيرة فاما أن يهلك هو او أن يهلكوا هم ، ولا عجب إذن أن يلجأ الجنود الرومانيون ، عندما أدهشهم شيء رأوه يسمو فوق ادراكهم ويتحداه ويهدد نظامهم ، إلى ضحك جنوني وإلى تتويج السيد المسيح باكليل الشوك ثم سلبه ثوبه الارجواني والسخرية منه وتسميته هزءاً بقيصر ، لأنهم لو آمنوا به لكان عليهم أن يغيروا مجرى حياتهم ويتبعوا حياة غريبة مخيفة بالنسبة اليهم ، كان عليهم أن يتركوا عاداتهم ويضبطوا غرائزهم ودوافعهم لكي يحققوا السعادة التي دُعوا اليها ، ولا غرو أن قلوبنا حتى يومنا هذا لا تزال صغيرة لا تستطيع ادراك كنه تعاليم السيد المسيح »[٦]

نوع التربية :

لقد اكد يسوع تربية أخلاقية باسمى معانيها فكانت أرفع نوع من التربية الاخلاقية . كانت المحبة الأخوية هي السلطة التي تقرر السلوك ، وكل سلطة أخرى اضمحلت أمام مبدأ المحبة العظيم . « لأن الله أحب العالم » « كما ان الآب احبني هكذا أحببتكم أنا » « هذه

(6) **Wells, H G ; The Outline of History, New York, Double day, Doran & Company, pp. 504 - 505**

وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم » « يجب أن تحب جارك كنفسك » .... كانت التربية الاجتماعية والتربية الاخلاقية واحدة بنظره .

وقد اهتم يسوع أيضاً بالتربية الدينية باصدق معانيها ، أي اقامة العلاقات الصحيحة بين الإنسان والله . فكانت وصيته الأولى والعظمى « أحب الهك مثل نفسك بكل قلبك وبكل روحك وبكل عقلك » ولم يهتم يسوع بتعليم مراعاة دقائق المراسم والطقوس الدينية ، ولكنه لم يكف البته عن التأكيد على ضرورة الثقة بالله والايمان به واداء الاحترام الحقيقي له . وقد اعترف أيضاً بواجب المواطن ولكنه حصر ذلك في المبدأ الاخلاقي الأساسي . « اعط لقيصر ما لقيصر ، ولله ما لله » .

والتربية المبنية على تعاليم يسوع يجب أن تكون عامة للجميع وديمقراطية ، فهو نفسه علم كل من أتى اليه وكان بحاجة إلى تعلم ، وفي تعليمه ان الله هو أب جميع الجنس البشري قد أزال الحدود القومية والتعصب العرقي من طريق التربية وقضى بذلك على التمييز ، بين الطبقات ، الذي كان سائداً بشدة في التربية الشرقية وفي التربية اليونانية والرومانية . وبجعله كل إنسان ابناً لله مخلوقاً على صورته ، قضى على كل أنواع العبودية — عبودية العُمّال وعبودية النساء وعبودية الأطفال — وأعطى لكل فرد أهميته ، وأزال ظلامات المجتمع وعدم العدالة واكد ضرورة تربية عامة شاملة لكل إنسان (رجلاً أو امرأة أو ولداً) وأعد الطريق لنشر مثل هذه التربية .

ان تعاليم يسوع تؤكد ضرورة تربية الصغار في المرحلة الابتدائية : « دعوا الأولاد يأتون إلي ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات » [٧] هذه اشارة واضحة إلى اهتمام يسوع بالأولاد واعطائهم التربية الكافية منذ صغرهم .

منهج التربية :

نجد جوهر تعليم يسوع في بضع صفحات تلخص « بعظة الجبل » [٨] وعظة الجبل تلخص بثلاث كلمات : « تصرفوا كاولاد الله » . لقد علم تلاميذه ألا ينتقموا لما يصيبهم من سوء بل ليسامحوا كما يسامحهم أبوهم المحب ، ألا يقلقوا من أجل الطعام والملبس والمأوى لأنه إذا كان الله يؤمن الحياة حتى للطيور والأزهار فانه يفعل ذلك لأولاده أيضاً وكان عليهم « أن يطلبوا ملكوت الله أولاً » . لقد طبق يسوع الأشياء التي علّمها وعاش بحسب مفهومه الممجد لما يفعله الله لو كان إنساناً ، فاصبحت حياته منهاجاً تربوياً وفي الحقيقة كانت منهاجاً عملياً حياتياً فعالاً .

---

(٧) انجيل متى — ١٩—١٤ .

(٨) انجيل متى — الاصحاح الخامس — السادس — السابع .

كان مضمون تعاليمه يتعلق بالسلوك البشري لكنه لم يهتم بتكوين عادات ومهارات معينة كما وانه لم يهتم بتحفيظ القواعد والقوانين . ان الكثير من أقواله المدونة كان موجهاً ضد تمسك الفريسيين بتعنت بالقوانين . وقد سخر من عادات المتزمتين وحاول أن يكوّن في تلاميذه سلوكاً فردياً واجتماعياً قائماً على القبول بالمبادىء والعلاقات البشرية العامة الشاملة العميقة .

والجدير بالاهتمام ان يسوع ركز كل جهوده على تعليم الأمور الأساسية ، وكان اهتمامه محصوراً في أمور قليلة هي فقط الحقائق الأساسية العامة . ليس في منهاجه دروس أدبية أو لاهوتية لكنه يُعد أفضل من عمل في الحقلين الديني والاجتماعي في تاريخ العالم .

وسائل التربية وتنظيمها :

لم ينشىء يسوع مدرسة أو مؤسسة خاصة لنشر تعاليمه ، أما الكنيسة المسيحية نفسها فقد نشأت بعده وعلى أيدي أتباعه ، كما وانه لم يكتب كتباً ولم يستعمل كتباً مدرسية ، لكنه تحدث إلى الناس حيث التقى بهم . وكانت وسائله التربوية ، البيت والشاطىء وضفة النهر والطرق وقمم الجبال والساحات العامة والهيكل – الخ ... وقد القى تعاليمه كلما نشأت المناسبة التي تدعو إلى ذلك والتي تمكنه الافادة منها .

لقد مجد يسوع المعلمَ واحترمه كعامل من عوامل التربية وكان التعليم بنظره اعطاء هبة المعرفة والحكمة واقامة المثَل النبيل الصالح وكانت أفعل وسيلة في نشر تعاليمه شخصيته المشعة . لقد جذب تلاميذه اليه وملأهم حكمة ومحبة وشجاعة ، وهكذا لم يحتج إلى مؤسسة أخرى أو وسيلة أخرى .

الطرائق :

ان أفضل الدروس التي تستطيع التربية الحديثة أن تستمدها من تعاليم السيد المسيح بوصفه معلماً هي في باب الطريقة ، فان طريقة يسوع هي بلا ريب أفضل طريقة عرفت حتى الآن . ففي الأسلوب الذي اتبعه في تعليم تلاميذه والجماهير التي التفت حوله وضع لنا مثالاً ممتازاً في الطرائق التربوية . لقد تفهم بطريقة بديهية قوانين التعلم ومبادىء التعليم التي أصبحت الآن مقبولة كأسس فعالة للتعليم الناجح .

(١) لقد طبق يسوع مبدأ الادراك والفهم في تعليمه، فهيأ مستمعيه للحقائق التي سيعلمهم اياها بعرض أمثلة حية واقعية تتناول تطبيق هذه الحقائق في الحياة وفي العلاقات الإنسانية . وقد بنى تعليمه على معرفتهم السابقة وأشار كثيراً إلى العهد القديم والشريعة والأنبياء . وكان يعدل دروسه باستمرار وفقاً لخبرات الذين علمهم وذلك بالاشارة إلى الظواهر الطبيعية المألوفة ومؤسسات الحياة الاجتماعية وممارساتها . وقد استخدم بنجاح وفعالية التشبيه والمثَل . أما

المثل ، ونجد في العهد الجديد ثلاثة وخمسين مثلاً ، فلم يجعل الدرس واقعياً وشيقاً فحسب ، بل جعل من السهل جداً فهم الحقيقة التي أراد تعليمها بحيث لا يستطيع أحد إلا أن يفهم معناها . وقد ضمن هذه الأمثلة الخبرات المألوفة البسيطة كالفلاحة والزراعة ورعاية المواشي والعناية بها والكروم والغنم والنقد الخ واستشهد بحوادث واقعية يومية بهذه الأمثلة واستعمل أبسط لغة لتعليم أعمق الحقائق فلجأ إلى المصطلحات والعبارات والتعابير المألوفة والمنتشرة بين عامة الناس .

(٢) وقد أقر يسوع أيضاً مبدأ الفعالية والتطبيق في تعليمه فقد الح على تلاميذه أن « يفعلوا » بموجب الكلمة لا أن يسمعوها فقط . لقد شجع السؤال ووبخ تلاميذه بلطف عندما كانت تخامرهم أسئلة ولا يوجهونها اليه . وقد لجأ إلى التخيل واستخدم قوة الايماء لتحريك أفكار مستمعيه وتنشيطها .

(٣) لقد أقر مبدأ الفروق الفردية وكيّف طرقه التعليمية وفقاً لحاجات وظروف وامكانات الذين احتك بهم وكان أسلوبه يتأثر دوماً بطبيعة المناسبة وبحاجة الفرد أو الجماعة .

(٤) وأقر مبدأ التشويق واستخدم الأمثلة أيضاً لاجل ذلك ، فكانت كلماته واستشهاداته ملأى بالاثارة والتشويق وبذلك استطاع أن يجذب انتباه سامعيه ويحتفظ به . وكانت قوة دوافعه سهلة الفهم لأن العامة يحتاجون إلى دوافع تحرك عواطفهم ومشاعرهم وليس فكرهم ، وهذا ما فعله يسوع . لم يستخدم الدوافع الغريزية وحب التملك ، بل لجأ إلى « المحبة » كدافع ايجابي يحرك الإنسان نحو الخير ، واعتمد هذا الدافع البسيط دافع المحبة — محبة الله ومحبة الانسانية — لكي يحرك به تلاميذه . لكننا ، سنرى فيما بعد، أن الكنيسة الأولى أنشأت نظاماً من المكافآت والعقوبات يطبق في السماء وفي جهنم ، وقد اقتبسته من « الزرادشتية » ، وجعلت منه دافعاً ومشوقاً لعمل الخير ، أما يسوع نفسه ، فكما رأينا أعلاه ، لم يستخدم سوى المحبة ، محبة الله ومحبة الإنسانية ، كدافع مشوق نحو الخير .

كانت طريقة يسوع موضوعية ، مباشرة وشخصية ، لقد وجه الانتباه إلى العالم الخارجي وإلى النشاطات الموضوعية ، واستخدم الطريقة الشفوية في تعليمه ، فإما طريقة العظة التي استخدمها في التحدث إلى الجموع الكبيرة أو طريقة الحوار التي استخدمها في الحلقات الصغيرة . وفوق كل شيء فقد علّم بطريقة المثال . وكانت حياته الخاصة تمثل تمثيلاً واقعياً تعاليمه . فطاعته للسلطة ومراعاته لروح القانون وتواضعه ورحمته وشفقته — كل ذلك كان أمثلة متواصلة أمام تلاميذه لتوجههم وترشدهم — لقد مارس دوماً ما علّم — وأية طريقة أفضل من هذه الطريقة ..

موقف الكنيسة المسيحية

الاولي من التربية

ان تاريخ المسيحية خلال القرنين الأولين بعد صعود المسيح ، غامض وليس من السهل تتبعه . فاعمال الرسل ورسائل بولس والقادة المسيحيين الأول تعطينا سجلاً متقطعاً وغير منتظم لكنه يشكل صورة واضحة عن الحقبة الأولى من تاريخ الكنيسة . ولكن بقيادة بولس الملهمة ، بولس الذي اعتبره الكثيرون المؤسس الثاني للمسيحية ومنظمها ، اتخذت الحركة طابعاً دولياً وانتشرت في كل زاوية من زوايا العالم الروماني ، ولم تكن مذاهب الكنيسة ومعتقداتها في هذه الحقبة قد تبلورت وانتظمت في نظام لاهوتي ، كما وان المعتقدات الدينية والممارسات الكنسية اختلفت كثيراً بين الشعوب التي اعتنقت المسيحية .

وعلى الرغم من هذه الفروق المحلية في العقيدة والطقوس فان الأدلة تثبت ان الجميع ، اثناء العهد الأول من المسيحية ، كانوا يحملون الكثير من روح يسوع الحقيقية ويمارسون في حياتهم اليومية الكثير من الفضائل كالبساطة والطهارة وعدم الأنانية التي قال بها السيد المسيح وعاشها . وما الاضطهادات والعذاب الذي تحمله المسيحيون الأول إلا الدليل على قوتهم ورسوخ ايمانهم . ولو لم تر الحكومة الرومانية ان في المسيحية خطراً عليها لما اضطهدت المسيحيين ، لكن هذه الاضطهادات زادت الكنيسة قوة بدلاً من أن تضعفها . ففي سنة ٣١١ ميلادية وقبل أن يرقى قسطنطين عرش الامبراطورية الغربية اعترفت الدولة بالمسيحية أي أصبح لها حق الحماية كالديانة الوثنية ، وفي عهد الامبراطور قسطنطين (٢٧٢ – ٣٣٧) لم تتساهل الدولة مع المسيحية فحسب بل شجعتها ، وعندما اعتنق قسطنطين المسيحية أصبحت هي دين الدولة في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية . لا ريب في ان ذلك ساعد على نمو الكنيسة وانتشارها ، ولكنه يشكك فيما إذا كان اعتناق الدولة للمسيحية أبقى الجو ملائماً لجميع المنتمين إلى الكنيسة للتمشي على مثال حياة المسيح .[٩]

لقد دخلت ، خلال هذه الفترة ، بعض العناصر من الأديان الأخرى ومن الفلسفات الوثنية إلى المسيحية واختلطت بتعاليم يسوع الاصلية ، كما وان رجال الكنيسة والآباء الأول أتوا من بيئات مختلفة وحملوا معهم اختبارات مختلفة مما أثر في الايمان المسيحي النامي ، فاضيف بذلك إلى تعاليم المسيح الاصلية ، عناصر من المراسم والطقوس اليهودية وبعض المفاهيم من

---

(9) **Wilds, Elmer Harrison** ; The Foundations of Modern Education, Rinehart & Company, Inc. 1950, pp. 156 - 158

الفلسفة اليونانية والرومانية ، خاصة الرواقية والافلاطونية الجديدة ، وبعض الديانات السائدة آنذاك في بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط ، مما حدى بالمسيحية إلى أن تكيّف نفسها تدريجياً وفقاً لعادات وطباع مختلف الشعوب التي انتشرت بينها .

وقد انقضت قرون قبل أن تركزت الكنيسة المسيحية واتخذت شكلاً معيناً . فالخلافات الحادة حول طبيعة يسوع الإلهية التي نشأت بين اريوس (Arius) واتباعه (٢٨٠ – ٣٣٦) وبين القائلين بالثالوث بقيادة اثناسيوس (Athanasius) (٢٩٦ – ٣٧٣) والتي انتهت في النهاية وبعد « مجمع نيقيا » (Nicaea) في صالح اثناسيوس ، هزت الكنيسة . ولم يكتمل بنيان الكنيسة المسيحية الصحيح إلا في أوائل القرن الخامس وعلى أثر جهود أوغستين (٣٥٤ – ٤٣٠) الذي كان أول من أنشأ نظاماً لاهوتياً متماسكاً للكنيسة الرومانية .

فمن الطبيعي في فترة بناءٍ مثل هذه الفترة أن لا تهتم التربية المسيحية إلا قليلاً في الفكر اللاهوتي بل حصرت اهتمامها في تعليم الأطفال ، ورجال الدين ، والذين ينضمون إلى الايمان الجديد ، تعليماً واحداً قائماً على العقائد العادية المقبولة والممارسات التي كانت متبعة في أول عهد الكنيسة .

الأهداف :

كان الهدف الأول للتربية المسيحية في أوائل عهدها التجدد الخلقي في الفرد . كانت المسيحية إذ ذاك حركة اصلاح هدفها الأخير اصلاح العالم خلقياً والقضاء على المجتمع الفاسد والمدنية الوثنية . وتأكدت الكنيسة ان اصلاح المجتمع لا يتم إلا باصلاح الأفراد الذين يتكون منهم ، وهكذا حصرت اهتمامها في اصلاح اعضائها وتربيتهم وتربية الذين يعتنقونها من جديد .

وكان العالم الروماني ، الذي وجدت الكنيسة الأولى نفسها في وسطه ، غاطساً في الرذيلة والفساد وخاصة في العاصمة . فبفضل ما توفر من العبيد لم ير المواطنون ضرورة للقيام بأي عمل ماداموا يتمتعون برخاء وبسخاء بكل ما يحتاجون اليه من عيش وملبس ومأكل ووسائل التسلية وهم كسالى قاعدون عن العمل . ومشى الشعب في خطوات الطبقة العليا وقلدوها فكان كل ما يحتاج اليه هو الخبز والمرابع ، وانتشر الطلاق بين جميع طبقات الشعب ، كما انتشر قتل الأطفال أو تعريضهم للعوامل الطبيعية بين جميع الطبقات أيضاً . وانتشرت الدعارة ومارس الشعب الفساد في مراسم شعبية عامة تحت ستار الدين (الوثنية) . اضف إلى ذلك المبارزات الدامية بالسيف في استعراضات عامة .

ولكي تتغلب الكنيسة المسيحية على هذه الرذائل لجأت إلى فضائل جديدة من تعاليم السيد المسيح ، لكي تحلها محلها ، فاحلت البساطة في العيش محل البذخ والشراهية ، والطهارة بدلاً من الفجور ، والاعتدال بدلاً من الافراط في الملذات ، والإنسانية والإلفة بدلاً من الوحشية

والظلم ، والمحبة الأخوية بدلاً من الأنانية ، هذه كانت الفضائل المطلوبة للانضمام إلى الكنيسة وعلى هذه الفضائل اذن يجب أن يتم تدريس الناس .

ان العالم والجسد والشيطان ، هي مصادر الشر والفساد ، ويجب أن يتعلم الإنسان نبذ العالم واخضاع الجسد وتجنب الشر ، وأن يخدم الله فيعيش عيشة نقية وبسيطة لينال الجزاء السماوي الذي ينتظر المؤمنين . ولما تحققت صعوبة اصلاح العالم ، جميع العالم ، اصبح هدف المسيحي الأخير خلاص نفسه ونفوس الآخرين الذين يستطيع أن يدخلهم في الايمان الجديد . (١٠)

نوع التربية :

في سبيل تحقيق هذا الهدف كانت الحاجة إلى نوعين فقط من التربية . التربية الأخلاقية والتربية الدينية ، وإذا ما نال الولد أو المتنصر الجديد الكفاية من هذين النوعين من التربية بحيث يصبح مؤهلاً للعماد ، تحقق هدف التربية المسيحية .

في البداية لم تكن في المسيحية تربية فكرية لأن المسيحية كانت مبنية على المشاعر وليس على العقل ، وكان الاعتقاد في البداية ، وخاصة في الغرب ، انه ليس من الضروري تقديم تربية فكرية حتى إلى الكاهن . أما فيما بعد ، وخاصة في الشرق عندما لفتت المسيحية أنظار العالم الوثني المتعلم واجتذبت من صفوف المفكرين وطبقة المتعلمين مهتدين اليها ، أُدخلت التربية الفكرية لتدريب مفكرين يستطيعون أن يجادلوا أخصام الكنيسة من خارجها والهراطقة من داخلها ، ولكن حتى في هذا النوع من التربية كان التعليم الديني والتعليم الخلقي يتقدمان على التربية الفكرية .

أما التربية البدنية والتربية الجمالية فحرّمتهما المسيحية . والتربية الموسيقية الوحيدة التي سمحت بها كانت الموسيقى الكنسية التي تستخدم في خدمة القداس الإلهي . ولم يكن في التربية المسيحية مجال للاستجمام لأن الألعاب الرياضية والتسلية على اختلاف أنواعها كانت تعتبر خطيئة .

المنهج :

كان منهج التربية « المسيحية الأولى » محدوداً بسبب موقف التشكك وعدم الثقة الذي نظر من خلاله إلى التربية الفكرية المنفتحة على العالم . وقد عارضوا بمرارة المواضيع التي كانت تعلمها المدارس الوثنية ونسبوا إلى الحضارة الوثنية الرذائل والفساد اللذين سادا المجتمع الوثني آنذاك ، واعتبروا أدبهم مملوءاً بالمفاسد وفنهم مشحوناً بالخروج على الآداب ، وفلسفتهم هدامة للايمان المسيحي . كانت إذن المدرسة الوثنية عدوة الكنيسة ويجب أن يزدري جميع المؤمنين

---

(10) **Monroe, Paul...** op. cit. pp. 230 - 231

منهاجها . وكان أغلب المهتدين إلى المسيحية هم من الطبقات الدنيا فلم يكونوا متعلمين مثل أسيادهم . في ضوء هذا الموقف من المدرسة الوثنية الغت المدارس المسيحية الأولى من مناهجها التربية البدنية والأدب والفن والعلوم والقواعد والفلسفة والبلاغة الخ وجميع المواضيع التي كانت مدرجة في منهاج المدرسة الوثنية ، وأ لمت محلها مواضيع جديدة كالتعليم الديني والتعليم الاخلاقي .

وكان منهاج التعليم المقترح في البداية معداً لكي يحضر المرشحين للعماد قبل الدخول في عضوية الكنيسة ، ولما كان التلاميذ المهتدون هم من الوثنية أو اليهودية أو أولاد المؤمنين فكانت العناصر البسيطة التي تتألف منها عقيدة الكنيسة والطقوس الكنسية والفضائل الاخلاقية للحياة المسيحية كافية لتأليف منهاج الدروس .

أما في القرن الثاني فقد أدخلت الكنيسة منهاجاً أوسع وأعمق ، ادخله المعلمون الوثنيون الذين اهتدوا إلى المسيحية . وقد فتح هؤلاء المعلمون في البداية مدارس لتقدم في الدرجة الأولى تعليماً ابتدائياً في الايمان المسيحي والعقيدة المسيحية إلى الذين يُعدون للعمل في الكنيسة ولقيادتها ، كما علّموا الصرف والنحو والأدب والبلاغة والفلسفة كوسائل لفهم الكتاب المقدس . وقد انتشر هذا النوع من المناهج بصورة خاصة في الشرق ، حيث نشأ بادىء الأمر . أما في الغرب فقد تابعت الكنيسة في معظم الأماكن مقاومة التعاليم الوثنية وحذفتها من مناهجها . وكان الفضل للآباء اليونانيين (١) أمثال كليمان (Clement) (١٥٠ – ٢٢٠) (٢) واوريغون (Origon) (١٨٥ – ٢٥٤) (٣) وباسيل (Basil) (٣٢٩ – ٣٧٩) (٤) وغرغوري (Gregory) (٣٢٥ – ٣٨٩) في تشجيع قبول هذه التعاليم في تربية الشبان المسيحيين، وكانت حجتهم انه إذا أحسن الاختيار فان الثقافة الوثنية تساعد على تفهم الكتاب المقدس . أما آباء الكنيسة اللاتينية أمثال (٥) ترتوليان (Tertullian) (١٦٠ – ٢٣٠) (٦) وجيرام (Jerome) (٢٤٠ – ٤٢٠) (٧) وأوغستين (Augustine) ، فعلى الرغم من كونهم كانوا قد تثقفوا بالثقافة الوثنية وتعمقوا في أدبها وفلسفتها قبل اهتدائهم، فقد تخوفوا من تأثير هذه الثقافة على الأخلاق المسيحية. وقد تغلبت أخيراً وجهة نظر الآباء الغربيين في مجمع قرطجنة عام (٤٠١) فقرر منع رجال الدين من قراءة الآداب الوثنية (١١) .

الوسائل والتنظيم :

بعد صعود يسوع أخذ أتباعه يجتمعون في أوقات معينة ليقرأوا ويدرسوا ويتناولوا ويخططوا لمستقبل مؤسستهم التي قامت حول تعاليمه . فكانت الكنيسة أول وسيلة للتعليم المسيحي، ثم جاء البيت المسيحي ، وكان اكثر تماسكاً من البيت الوثني ، فكان وسيلة فعالة لأن الأم كانت تحتل

---

(11) **Monroe, Paul ;** op. cit. pp. 239 - 241

مكانة محترمة في العائلة وتشترك مع الأب في تربية أولادهما تربية اخلاقية ودينية .

وقد نشأ في زمن مبكر وفي جميع الكنائس مؤسسة تسمى « مدرسة التعاليم الدينية للمبتدئين » « Catechumenal » . كان الغرض منها تعليم الذين يودون الانضمام إلى عضوية الكنيسة ولكن تنقصهم المعرفة الضرورية في العقائد والطقوس والمتطلبات الضرورية للاستقرار الخلقي . وكان هؤلاء يسمون مبتدئين ، وكانوا يجتمعون في أوقات معينة في جزء من الكنيسة لتلقي التعليم الديني والفضائل الاخلاقية وتلاوة ترتيل المزامير . أما تنظيم هذه المدارس فكان خالياً من الرسميات وكان المعلمون ، في البداية بعض أعضاء الكنيسة القادرين ، ثم انحصر التعليم فيما بعد بالرهبان والكهنة . وكان هذا التعليم مفتوحاً أمام البنين والبنات على السواء ولم يسمح لأحد بأخذ سر المناولة الكاملة أو الحصول على سر العماد إلا بعد انجاز الدروس المقررة في هذه المدارس . وكانت مدة الدراسة ، بادىء الأمر ، سنتين ثم امتدت إلى أربع سنوات فيما بعد ، وقد بقيت هذه المدارس عدة قرون تعمل وكأنها المدارس الابتدائية في الكنيسة .

وعندما أخذت الكنيسة تكتسب المهتدين من بين علماء اللغة والبلاغة والفلاسفة ، أنشأت نوعاً جديداً من المدارس . وكانت هذه المدارس بادىء الأمر خاصة وغير مرتبطة بالكنيسة . وفي سنة ١٧٩ أصبح « بانتانوس — Pantænus »، وهو فيلسوف رواقي مهتد وأحد العاملين على التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية ، رئيساً « لمدرسة المبتدئين » في الاسكندرية . وقد سميت مدرسته والمدارس التي نسجت على منوالها « مدارس التعليم بالسؤال والجواب » « Cateechtical » . وكانت هذه المدارس تعلم بصورة خاصة آباء الكنيسة وقادتها فكانت بذلك مدارس لاهوتية بدائية ولكنها كانت تضم كامل الدروس الوثنية كمتممة للتعاليم الدينية .

وعندما أخذت الكنيسة فيما بعد تستكمل تنظيمها وانشأت المطرانيات ، أنشأت أيضاً مدارس لاهوتية لتعليم رجال الدين في كل مطرانية . وسميت هذه بالمدارس الاسقفية أو الكاتدرائية . وعندما تغلبت المسيحية نهائياً على الوثنية الغيت مدارس المبتدئين في الغرب خاصة ، وبقيت مدارس اللاهوت وهي أعلى مدارس لتعليم المسيحية . وكانت تقوم هذه المدارس في الكاتدرائية ويشرف المطران بنفسه عليها أو يوكل من ينوب عنه للقيام بذلك .[١٢]

الطرائق :

كانت الطرائق التي اتبعتها التربية المسيحية الأولى بعيدة عن طريقة يسوع « المعلم العظيم » .

---

(12) **Wilds**... op. cit. pp. 161 - 162

فقد اعتمدت في البداية الوحي ، يأتي من « صوت الروح القدس » اكثر من اعتمادها التعلم أو التعليم . وكان التنبؤ أو الارتجال يُعتمد كاسلوب لنشر الانجيل . أما في البيت فقد بقيت طريقة المثال أو الامثلة قيد الاستعمال .

وقد سادت في المدارس التي أسست فيما بعد طريقة السؤال والجواب . فالتلميذ يحفظ الأجوبة للاسئلة المعدة ثم يسمعها أمام المعلم عندما يوجه اليه السؤال . ولم يحاولوا إلا قليلاً ، تعليم معاني الكلمات بل اكتفوا بأن يتمكن التلميذ من ترديد هذه الكلمات وتسميعها غيباً . وقد استمرت هذه الطريقة طوال القرون الوسطى ولا تزال حتى اليوم تستعمل في التعليم الكنسي .

مراجع الفصل الخامس

1. **Aymard, André, et Auboyer, Jeannine** ; Histoire générale Des Civilisations, (Publiée sous la direction de Maurice Crouzet), Tome II, Rome et son Empire, Edition Ouedat, Beyrouth - Liban, **1964.**

2. **Browne, Lewis;** This Believing world, New York, Macmillan Company,**1950.**

3. **Cubberly, Elwood P.** ; A History of Education, Boston, Haughton Mifflin Company, **1920.**

4. **Eby, Frederick, and Arrowood, Charles F.** ; The History and Philosophy of Education Ancient and Medieval, New York, Prentice - Hall Inc. **1940.**

5. **Hart, Joseph K** ; Creative Moments in Education, New York, Henry Holt & Company, **1931.**

6. **Monroe, Paul** ; A Text Book in the History of Education, New York, The Macmillan Company, **1922.**

7. **Potter, C. F.**; The Story of Religion, New York, Simon and Schuster Inc. **1929.**

8. **Wells, H. G** ; The Outline of History, New York, Double Day, Daron & Company.

9. **Wilds, Elemer Harrison** ; The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. **1950,**

الفصل السادس

الانضباط الروحي لخلاص النفس

مفهوم القرون الوسطى للتربية

ان المفهوم المعروف بالقرون الوسطى أو حضارة العصور الوسطى أتي نتيجة اندماج ثلاثة عناصر بارزة : (١) الأحوال الاجتماعية والخلقية المنحطة التي نشأت في أوروبا من طبيعة الحكومة الرومانية والنظام الروماني الاقتصادي في عهد القياصره الأخيرين ، (٢) الكنيسة المسيحية التي قامت على نظام دنيوي ، متناه في التدرج الرتبي الكهنوتي والشكليات الرسمية ، (٣) الاقطاعية الفوضوية التي حملها الالمان البرابرة الذين أتوا من الشمال وطردوا تدريجياً الامبراطورية الرومانية القوية . لقد ذكرنا في الفصل السابق ، شيئاً عن العنصرين الأول والثاني ، والآن نذكر العنصر الثالث ، الاقطاعية الالمانية (Teutonic) (التوتوني) كركن ثالث من الدعائم الأساسية التي قامت عليها التربية المسيحية .

ان تاريخ خلع الامبراطور رومولوس أوغسطس ، الملقب « بالامبراطور الصغير » في سنة ٤٧٦ ميلادية على يدي الالماني « أودوسير » (Odoacer) يعتبر تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب والانتقال من الحضارة القديمة إلى الحضارة الوسطى . وعندما تم هذا الخلع وأرسلت الشارات الامبراطورية القيصرية إلى القسطنطينية كدليل على اتحاد الامبراطورية تحت لواء امبراطور واحد تم انهيار الامبراطورية الرومانية في الغرب ، لأن الالمان سيطروا على الغرب بكامله وأصبح مصير أوروبا بأيديهم ، وقد قاموا بعملهم هذا ، أي السيطرة على أوروبا وكتابة مصيرها في ضوء تقاليدهم ومستويات حياتهم التي تأثرت بالكنيسة المسيحية وبتوجيهها فتعدلت وتكيفت وفقاً لها .

وعند التحول من الرومان إلى الألمان ننتقل من التاريخ القديم إلى التاريخ الوسيط . فالالمان « والسلتيون » و « السلاف » جميعهم ينحدرون من نفس العرق « الآري » الذي ينحدر منه

الرومان واليونان ، وجميعهم نشأوا في البداية في نفس المنطقة أي شمال البحر الأسود وبحر قزوين . أما « السلتيون » فقد انتقلوا إلى الغرب وقطنوا بريطانيا وارلندا وبلاد الغال وقسماً من اسبانيا ثم تغلب عليهم الرومان ومدنوهم . أما القبائل الالمانية فقد توغلت في سهول أوروبا الوسطى إلى أن حملتهم رغبتهم في الحصول على بيوت أفضل إلى الانتقال غرباً وجنوباً في مقاطعات امبراطورية روما .

وكان الالمان بطبيعتهم قادرين كاليونان والايطاليين ، لكن في البقعة الجغرافية من أوروبا التي أقاموا فيها لم تتوافر لهم وسائل تعلم الفنون والمؤسسات الحضارية الراقية ، فبقوا برابرة زمناً أطول لكنهم لم يكونوا متوحشين بدائيين[1]. لذلك اختلفت نشأتهم عن نشأة الذين كانوا في الجنوب فكان تطورهم الفكري أقل وابطأ وكان لشخصيتهم وقار اكثر ، كما كان اتصالهم المباشر بالقوى الطبيعية كالرياح والسماء والبحار اكثر وثوقاً . أما حضارتهم ، عندما أخذوا ينتقلون إلى روما ، فكانت في المستوى الزراعي وكانت شبيهة جداً بحضارة العبرانيين في عهد موسى . لقد احترموا المرأة اكثر من الرومان واليونان وكانت آداب الزواج والروابط العائلية لديهم قوية نقية . كما ان احترامهم للشخصية لم يسمح لهم بأن يضحوا بحريتهم ويتنازلوا عنها في سبيل سلطة الدولة ليصبحوا آلات غير مفكرة في الجهاز الاجتماعي . وكان لهذه الصفات : أي نقاوة الحياة العائلية الالمانية ، والروح الحرة ، والاحترام لشخصية الفرد ، مضافاً اليها المبادىء المسيحية التي وجهتهم ، الفضل في اعطاء العالم الحديث التفوق الممتاز على العالم القديم[2].

وكانت هذه الجماعات الالمانية قبل اعتناق المسيحية ، تعبد القوى الطبيعية المختلفة ، كما كانت محاربة شرسة فاصبحت مصدر قلق وازعاج « لروما » وبالنتيجة أقامت ممالك صغيرة وامارات اقطاعية متعددة وحاولت الكنيسة المسيحية المنظمة أن تؤلف بين هذه القبائل والشعوب المفككة وتشكل منهم امبراطورية دينية وقد نجحت في ذلك إلى حد ما ، لكنها ، أي الكنيسة ، أسهمت في الوقت نفسه ، في تسبيب الانحطاط العام للحضارة الرومانية وكانت عرضة للمساومة والتسويات والعمل حسب المناسبات وليس على أساس المبادىء . لقد تحولت الكنيسة عن أهدافها النبيلة وحياتها الرفيعة بسبب المنازعات الطويلة المدمرة حول أشكال العبادة والعقيدة والايمان والتنظيم والسلطة ولم تتوصل إلى الوحدة التامة في الايمان والممارسة الدينية إلا بعد جهود كثيرة وبثمن باهظ جداً . وقد دخل المنتمون إلى الكنيسة الحياة العلمانية في ذلك العصر وكانوا مستعدين لتقبل المعتقدات الدينية وممارسة الطقوس الكنسية اكثر من اتباع الحياة المسيحية الحقة ، فاهملوا المتطلبات الخلقية وانغمسوا في الممارسات الممنوعة التي كانت قد حرمتها الكنيسة في القرن الثاني .

---

(1) **Aymard, André et Auboyer, Jeanine**; Histoire Générale de Civilisations, Tome II, Rome et son Empire, Edition Oueidat Beyrouth 1964, pp. 614 - 616

(2) **Davidson, Thomas**; A History of Education, pp. 151 - 174, New York, Charles Scribner's Sons, 1900.

فلا غرو في جو هذه المؤثرات والظروف إذا ما هبط المستوى التربوي والتعليمي ، واذا ما قضي على روح البحث في أوروبا ، لا سيما وان معظم كهنة الرعية كانوا متعلمين تعليماً سطحياً . وقد رفع رجال الكنيسة أنفسهم عن طريق الدس وليس بالخدمة الذكية أو العلم . ولولا بعض الأديرة الارلندية التي احتفظت بشعلة من القداسة والتعلم اضاءت فيما بعد مشاعل مماثلة في أماكن أخرى لانطفأت هذه الشعلة وأصيبت الكنيسة المسيحية بلعنة المُحل (القُحط) الفكري . واذا ما قارنا هذه الحقبة من التاريخ بالقرون الأولى من تاريخ الكنيسة التي تميزت بالقيادة الفكرية التي وفرها أمثال جيرام وأوغسطين ، لاعتبرت هذة الحقبة حقبة قحط محزن .

وفي هذا الجو من الانحطاط الخلقي والفوضى السياسية والنظام الاقتصادي الاقطاعي في القرون الوسطى نشأت أربع مؤسسات يمكننا اعتبارها أساسية في تطوير المفاهيم والممارسات التربوية الحديثة . هذه المؤسسات هي :

(١) الرهبنة .

(٢) الفلسفة اللاهوتية أو (الحركة المدرسية) (Scholasticism)

(٣) الفروسية .

(٤) نظام النقابات .

فما كان تأثير هذه المؤسسات الوسيطة على التربية ؟

موقف الرهبنة او الأديرة من التربية وممارساتها التربوية

لم تنشأ الرهبنة بنشوء المسيحية ولم تقتصر عليها ، ففي معظم الأديان الشرقية القديمة ظهر نساك نذروا أنفسهم للانصراف إلى الوحدة أو العزلة أو التأمل بعيدين عن شؤون الحياة ومشاغلها ومشاكلها ، وقد انتشر هذا التنسك بصورة خاصة بين الهنود . ولا ريب في ان نشوء الرهبنة المسيحية تأثر لحد ما بالممارسات الرهبنية القديمة .

كان المسيحيون في أول عهد الكنيسة يعيشون في عزلة عن المجتمع فلا يسهمون إلا بمقدار قليل جداً في حياة مجتمعهم السياسية والاجتماعية وبعد أن أُقرت المسيحية رسمياً انضم إلى الكنيسة أعداد كبيرة اما اضطراراً أو لياقة ، كما وان كثيراً من المؤمنين رغبوا في أن يتميزوا عن الأعضاء العاديين الذين انضموا إلى الكنيسة ، فاعتقدوا ان تطهير الروح الضروري من أجل الخلاص الأبدي لا يمكن أن يتم إلا بالابتعاد عن ملذات العالم والنشاط العلماني الاجتماعي ، فهرب هؤلاء النساك من أوساط المجتمع وأخضعوا أجسادهم إلى نظام قاس وحاولوا أن

يكوّنوا في أنفسهم عادة الشعور بوجود الله . وحتى قبل هذا العهد لجأ كثير من المسيحيين بسبب الاضطهاد إلى الجبال والصحارى والقفار لكي يتمكنوا من ممارسة عبادتهم بأمان وحرية وطمأنينة .

ان لفظة الرهبنة « Monasticism » تأتي من أصل يوناني ، من كلمة « Monos » وتعني « الانفراد » . ومنذ مطلع تاريخ الكنيسة لجأ النساك إلى الصحارى كما فعل أنطوني المصري الشهير (٢٥١ — ٣٥٦) ، ليعيشوا نساكاً منفردين . لكن غريزة حب الاجتماع تغلبت بالنتيجة وفي حوالي سنة ٣٣٠ نظّم ناسك يدعى « باكوميوس » (Pachomius) نوعاً من الرهبنة الجماعية في جزيرة تقع على وادي النيل . فعاش الرهبان منفردين في حجر صغيرة منعزلة الواحدة عن الأخرى لينصرفوا إلى التأمل والعبادة لكنهم كانوا يجتمعون وقت الطعام والعمل والاحتفالات الدينية . ثم أدخل هذا النوع من الرهبنة الزاهدة إلى اليونان على يدي « باسيل » (Basil) سنة ٣٥٠ ثم نقله إلى روما « اثناسيوس » (Athanasius) و « جيرام » (Jerome) .

وبقي لمدة قرنين ، كل دير أو رهبنة تنظم نفسها بموجب أنظمة وقوانين خاصة بها ، وكثيراً ما كانت تختلف فيما بينها ، ولكن في سنة ٥٢٩ أصبح تنظيم الرهبنة الجماعية واضحاً وموحداً وذلك على أثر القانون الذي وضعه « بندكت » (Benedict) . فقد أسس بندكت (٤٨٠ — ٥٤٣) دير « مونت كاسينو » في جنوب ايطاليا وصاغ قانونه المؤلف من ٧٣ بنداً تناولت بالتفصيل تنظيم الدير وادارته وحياة المنتمين اليه . ثم تبنى هذا القانون جميع رهبنات الغرب وكل رهبنة انشئت فيما بعد .

قد يبدو ، لأول وهلة ، ان حركة كهذه قد يكون لها تأثير قليل على التربية ، صحيح ان نوع الرهبنة الذي قام على التنسك لم يترك أثراً بليغاً في التربية . لكن الرهبنة القائمة على الزهد أنشأت الأديرة كمؤسسات تربوية لا لتخدم القرون الوسطى وحسب ، بل لتخدم الأزمنة اللاحقة أيضاً . وفي الحقيقة اننا مدينون كثيراً إلى الأديرة المسيحية في الحفاظ على العلم والحضارة وفي نشرهما . وهذه الأديرة لم تحافظ على العلم القديم فحسب ، بل أنتجت الكثير من الكتب الدينية من وضعها الخاص ، كما وانها استنسخت الكتب المقدسة العائدة إلى الكنيسة القديمة ، واننا نعتمد على كتب الرهبان للحصول على الكثير من معرفتنا عن القرون الوسطى . ولقد وقفت الرهبنات في وجه الرذيلة والفساد في العالم خلال العصور الوسطى ، وكان لها أثر فعال في تأليف (تطبيع) الروح الحربية ، وتهذيب العادات الخام التي أتى بها العنصر الالماني . لقد اكتسبت أوروبا بفضل الرهبنات المهارات الصناعية واحترام العمل اليدوي احتراماً حقيقياً . فالفقير والمريض والجائع جميعهم وجدوا اغاثة داخل أبواب الأديرة وعلى أيدي الرهبان المتواضعين . والاديرة كانت المدارس والمكتبات ودور النشر والمراكز الأدبية والمستشفيات والمشاغل في

القرون الوسطى ، فلذلك كان تأثيرها التربوي كبيراً جداً .[٣]

وسنأتي فيما يلي على ذكر الخصائص البارزة للتربية عند الرهبنات .

أهداف التربية :

كان هدف التربية الرهبنية الأخير كهدف حياة الرهبنة بالذات – أي خلاص النفس . والغاية الأساسية من الرهبنة هي الزهد والتقشف والسيطرة على جميع رغبات الجسد وجميع العواطف والأماني البشرية بحيث يحقق العقل والروح مصلحة الحياة العليا – فالهدف المباشر إذن هو السيطرة على الجسد والأخلاق .

ونجد في المثل العليا للرهبنة بعض العناصر التي لم تكن جديدة إذ نجدها في أديان اليهود والفرس والهنود والمصريين واليونان وفلسفاتهم . فرغبة الرواقيين في الألم والموت وعدم اهتمامهم في النجاح المادي ، والخضوع التام إلى القوى الطبيعية ، ورفض الهنود للعالم المادي والانغماس في الروح ، واهتمام اتباع « زرادشت » بالنزاع الدائم بين الخير والشر واهمالهم واجبات ومسؤوليات المجتمع ، كل هذه وكثير غيرها نجدها في حياة الرهبنة . وقد جمعت الرهبنة هذه الرغبات والرغبة المسيحية في العيش وفقاً لنظام أخلاقي رفيع في نظام يقوم على مبدأين أساسيين (١) اماتة الجسد و (٢) نبذ العالم .

(١) اماتة الجسد :

كان أحد أهداف الرهبنة نكران مطاليب الجسد ورغباته وكبح شهواته ، وكان فضل الراهب يقاس عادة بمقدار تفننه في ابتداع الطرق الجديدة لتعذيب جسده بواسطة الصيام والاكتفاء بكميات قليلة وغير ملائمة من الطعام أو بالاقلال من النوم أو بارتداء الملابس الخشنة والقليلة أو بوضع الجسم في أوضاع مزعجة وغير مريحة أو بتحمل جميع أنواع العذاب الجسماني باستخدام أية طريقة تعذب الجسد ، وكل ذلك يتم في سبيل تنمية الروح وتحسين أخلاق النادم أو التائب الذي يود أن يكفر عن ذنوبه .

(٢) نبذ العالم :

أما المبدأ الثاني ، أي نبذ العالم ، فمعناه نكران جميع مطالب المؤسسات الاجتماعية والبشرية وقد فرض قانون بندكت على الراهب ثلاثة نذور أو تعهدات (١) العفة و (ب) الفقر و (ج) والطاعة .

---

(3) **Barnes, Harry Elmer**; An Intellectual and Cultural History of the Western World, New York Random House, 1937, pp. 326 - 440

(١) فالعفة تتضمن القضاء على العلاقات العائلية والبشرية والعواطف المتأتية عن مؤسسة البيت واستبدال الارتباطات والمسؤوليات العائلية بعلاقات دينية ومصالح روحية يعبر عنها بالتأمل والانصراف الدائم إلى العبادة والصلاة .

(ب) ومبدأ الفقر يتضمن رفض كل العلاقات الاقتصادية والمصالح المادية في الحياة . وعندما يدخل الراهب إلى الدير يجب أن يتخلى عن ممتلكاته وكافة حقوقه بالارث ، أما في الدير فكل شيء مشترك وعلى الرغم من أن الدير يستطيع أن يمتلك العقارات وغيرها ويصبح غنياً إلا أن الراهب الفرد لا يحق له ملكية أية حصة من ثروة الدير . وبسبب مبدأ الفقر هذا تشجع الاحسان والعطاء في القرون الوسطى واعتبر أسمى فضيلة مسيحية ، ثم تحول فيما بعد إلى ما نسميه اليوم بالمؤسسة المسيحية الإنسانية الخيرية .

(ج) والطاعة كانت تقتضي التخلي عن كل سلطة أو رتبة أو تمييز . وعندما يدخل الراهب إلى الدير ، عليه أن يتخلى عن جميع حقوقه الشخصية ، وعن التصرف بوقته الخاص ، وعن ارضاء رغباته ومصالحه الخاصة . وعليه أن يخضع لمشيئة رؤسائه ورغبات اخوانه ، وعليه أيضاً أن يتخلى عن علاقاته بالمؤسسات الأخرى وولائه لها . ويعني أيضاً مبدأ الطاعة التخلي عن آخر أثر لشخصية الفرد وقطع كل ارتباطاته السياسية والاجتماعية . وهكذا نجد ان الرهبنة رفضت رفضاً كلياً أهم ثلاث مظاهر من التنظيم الاجتماعي — البيت (العائلة) ، والنظام الاقتصادي ، والنظام السياسي . فكان هدف التربية الرهبنية الاعداد للعالم الثاني وليس لهذا العالم .

ان المثل الأعلى للرهبنة يتضمن دوماً عنصراً من التصوف أو التسامي العقلي . وكان هدف التصوف أو التسامي العقلي بلوغ أسمى معرفة روحية وأنقى الاكتفاء الروحي وذلك عن طريق التدريب على فن التأمل والتفكير والوحي . وكان التصوف محاولة للوصول عن طريق الحدس ، إلى الحقيقة النهائية « الوجود الإلهي » لكي يكون الإنسان على اتصال مباشر بالله . والله كان بالنسبة إلى المتصوف اختباراً وليس موضوع عقل ، والأمل بتحقيق هذا الاتصال الإلهي كان ممكناً بمقدار ما يستطيع المرء أن ينسى نفسه كلياً ، ويصبح العالم المادي والعلاقات البشرية لا شيء بالنسبة اليه . وهكذا كان هدف الرهبنة التصوفية تحقيق حياة قائمة على التأمل والانصراف الكلي إلى الله والاتصال المباشر به . وبمقدار ما كان الرهبان متصوفين كانت الرهبنة نظاماً روحياً ونظاماً اخلاقياً . (٤)

أنواع التربية :

ان أهدافاً ضيقة كهذه ، كان من الطبيعي أن تحصر أعمال مدارس الرهبنات بالتدريب

---

(4) **Monroe, Paul :** Text Book in the History of Education, New York, the Macmilan Company, 1922, pp. 248 - 251.

الأدبي واليدوي . وكان ينظر إلى هذين النوعين من التدريب كانواع من التربية الخلقية والتربية الدينية ، ولكن بما ان علاقات الراهب البشرية كانت محدودة فلم تكن التربية الاخلاقية شاملة . أما التعليم الديني بمعناه الحقيقي فلم يتوافر إلا للمتصوف .

لقد نصت المادة ٤٨ من قانون بندكت على ما يلي : « ان البطالة هي العدو الأعظم للروح لذا يجب ان يشتغل الرهبان دوماً في عمل يدوي أو في قراءات دينية » . وقد حددت هذه المادة ٧ ساعات من العمل اليدوي كل يوم لكل راهب ، وساعتين من القراءة في الكتب المقدسة والأدب الكنسي . والغرض من العمل اليدوي كان جعل الرهبان في حالة جسدية جيدة و إشغالهم ، بحيث لا يبقى لديهم وقت للوقوع في التجربة . فاصبحوا ماهرين في صناعة الخشب والجلد والمعادن ، كما أصبحوا مزارعين مدربين في شؤون الزراعة وقد جُففت المستنقعات بواسطة الأديرة كما قُطعت الغابات وأُصلحت الصحارى ومُهدت التلال وغُرست بأشجار العريش واستصلحت مساحات كثيرة وأصبحت صالحة للزراعة . فتعلم الفلاحون طرقاً أفضل للزراعة وزودوا بمعلومات زراعية كما تعلموا أنواع كثيرة من الفنون والحِرَف .

أما في أديرة الراهبات ، وكانت تسير على النظام نفسه الذي تسير عليه أديرة الرهبان ، فقد تعلمت الراهبات الأشغال اليدوية الضرورية للحياة كما تعلمن الغزل والتطريز لإعداد ما تحتاجه الكنائس من أغطية وألبسة . وكان من فضل هذا التقدم في الاعمال اليدوية والاحترام للعمل اليدوي ، انتقال الالمان البرابرة إلى مستوى جديد من المدنية العملية .

أما واجب الانكباب على القراءة فقد أدى الى جمع المخطوطات في مكتبات الأديرة واستنساخها لتأمين نسخ لمكتبة الدير وللتبادل مع الأديرة الأخرى . وقد قام بعملية الاستنساخ أولئك الرهبان الذين لا يستطيعون القيام بالاعمال الجسدية فكان يسمح لهم أن يقضوا الساعات السبع المخصصة للعمل الجسدي بالاستنساخ ، لكن هؤلاء الرهبان لم يحصروا عملهم بالاستنساخ فقط بل أنتجوا أشياء جديدة في الكتابات الدينية والاخلاقية والتاريخية ، وان كانت من نوع متوسط . وهكذا نجد ان التدريب الأدبي واليدوي الضروري لحياة الأديرة كان يتجه دوماً نحو الأهداف الخلقية والأهداف الدينية والأهداف الأدبية .(٥)

المنهاج :

ان المواد التعليمية التي علمتها مدارس الأديرة نُظمت ، فيما بعد ، بمنهاج ثابت سُمي الفنون السبعة الحرة ، ويتألف من (١) الثلاثي أو الثلاثيات — أي القواعد والبلاغة والمنطق . و(٢) الرباعي أو الرباعيات أي الحساب والهندسة وعلم الفلك والموسيقى . كان المنهاج التربوي في الأديرة الأولى بدائياً جداً وكان الغرض الوحيد منه اعداد الرهبان لواجبات حياة الرهبنة .

---

(5) **Monroe, Paul ;** Ibd. pp. 251 - 253.

فكان المبتدئون مضطرين أن يتعلموا القراءة لكي يدرسوا الكتب المقدسة ، والكتابة لكي يستنسخوا المخطوطات ، والانشاد لكي يسهموا في ترتيل الخدمات الدينية ، والحساب لكي يحسبوا مواعيد احتفالات الكنيسة .

وأخذت الأديرة المتقدمة فيما بعد تدخل بعض العناصر من الحضارة الكلاسيكية اليونانية والرومانية . وكانت المواضيع التي تدرس تؤخذ من ملخصات أو موسوعات من المعرفة وليس من مصادر مباشرة .

لم تشر أسماء المواضيع في منهاج مدارس الرهبنة إلى مضمونها بوضوح ، وكان لمعظم هذه المواضيع معان تختلف عن المعاني التي تشير اليها الآن . فالقواعد ، وهي أهم الدروس التي اكدتها مدارس الأديرة ، كانت في الحقيقة مقدمة إلى الأدب . وكان التلميذ يتعلم في البداية بعض المهارات في مبادىء القراءة ثم ينصرف إلى قراءة مختلف الكتب المسيحية ويسمح له ، في بعض الأديرة القوية ، بقراءة « فرجيل » وبعض المؤلفين الوثنيين . أما البلاغة فقد كانت في الدرجة الأولى الانشاء ، ولكنها بالاضافة إلى تعليم كتابة أنواع مختلفة من الرسائل الكنسية والوثائق والتقارير ، تضمنت أيضاً درس بعض الجوانب من تاريخ الكنيسة والقوانين الكنسية أما الجدل أو الحوار (أصول المنطق) فقد كان شبيهاً بالمنطق الشكلي (الصوري) اليوم ، وعلى الرغم من أن المنطق لم يقم بدور فعال في منهاج مدارس الأديرة الأولى إلا انه أصبح الموضوع الرئيسي في « الثلاثيات » (Trivum) اثناء « الحركة المدرسية » (Scholasticism) أو الفلسفة اللاهوتية كما تسمى أيضاً والتي سنبحثها فيما بعد .

أما الحساب فلم يشمل بادىء الأمر اكثر من معرفة مواعيد الاحتفالات الكنسية والأعياد ، لكنه في القرن العاشر ، بعد ادخال العد العمودي ونظام الترقيم العربي اتسع نطاق الحساب حتى أصبح يضم مسك الحسابات . وكانت الهندسة بادىء الأمر تتناول العناصر الهندسية والجغرافية المستعملة في درس المساحة والهندسة المعمارية ورسم الخرائط . أما فيما بعد فقد أصبحت تضم كل نظام اقليدوس . وكان الغرض من درس علم الفلك معرفة مواعيد الصيام والأعياد ، ومعرفة مواعيد الزرع والحصاد . أما الموسيقى فكانت تدرس قليلاً وتحصر في درس الأناشيد المقدسة وخدمات القداس والكنيسة .

الوسائل والتنظيم :

بالاضافة إلى مدارس الكاتدرائية التي كانت تسير على مستوى منخفض ، ومدارس الأبرشية التي كانت تقوم بمهمة مدارس المبتدئين ولكن بطريقة سطحية ، كانت مدارس الرهبان أو الأديرة ، الوسيلة الوحيدة للتربية خلال معظم القرون الوسطى . كان الصبيان يدخلون هذه المدارس عادة في سن العاشرة ، وبعد دراسة تمتد إلى ثمان سنوات أي في سن الثامنة عشرة

يدخلون سلك الرهبنة . لكن كثيراً من الأديرة وخاصة في القرون الأخيرة من العصور الوسطى سمحت للبنين الذين لا يودون الانخراط في سلك الرهبنة ، دخول هذه المدارس كتلاميذ عاديين ، وكانوا يسمون تلاميذ خارجيين ليميزوا عن التلاميذ الداخليين الذين كانوا يعدون للتعهد بالدخول في سلك الرهبنة . وكان رئيس هذه المدارس يسمى رئيس الدير .

لقد بلغت مدارس الأديرة أوجهـا، من حيث الكفاءة، في عهد شارلمان (٧٤٢ – ٨١٤) في القرنين الثامن والتاسع . فشارلمان رغم انه محارب افرنسي – الماني ، قد تثقف بالثقافة اللاتينية وكان مسيحياً مؤمناً عنيفاً . ولكي يحقق رغبته في ايجاد وحدة ثقافية بين شعوب مملكته أحدث نهضة في التربية . فأسس « مدرسة البلاط » وخصصها لابناء النبلاء على أمل أن تعد منهم قادة أفضل للكنيسة والدولة ، واستحضر من المدرسة الكاتدرائية في « يورك » في انكلترا أعظم معلم في عصره « الكوين » (Alcuin) (٧٣٥ – ٨٠٤) الذي لم يصبح رئيس مدرسة البلاط فقط بل أصبح رئيس كل النظام التعليمي في عهد شارلمان . وقد أصدر شارلمان مراسيم رسمية إلى رؤساء مدارس الأديرة والمطارنة المشرفين على مدارس الكاتدرائيات يطلب اليهم فيها تحسين نوعية الاكليروس وتأسيس مدارس الرعية للاولاد في المناطق التي لم تتوافر فيها هذه المدارس وقد أوفد الرسل الرسميين ليتأكدوا بأن هذه المراسيم قد نفذت .

وبعد ذلك بفترة وجيزة ارتفع مستوى مدارس الأديرة في انكلترا على أيدي الملك الفرد العظيم (٨٤٩ – ٩٠١) وكان هذا الملك يقوم بنفسه في نشر كتب تاريخية ودينية وترجمتها إلى اللغة الانكلوساكسونية . وقد طلب من أوروبا العلماء البارزين أمثال «غرمبالد» (Grimbald) الذي أصبح رئيس مدرسة الدير في « وستمنستر » و « جون ساكسون » (John the Saxon) الذي أصبح رئيس دير « أثالني » (Athelney) . وهكذا تكاثرت بسرعة مدارس الأديرة في عهد شارلمان والفرد في غربي أوروبا وتقوت وتحسنت من حيث التنظيم والادارة .

طرائق التربية :

لم يبد معلمو مدارس الأديرة أي اهتمام أو مهارة في الطرائق . كانت الطريقة العامة المتبعة في التعليم طريقة السؤال والجواب . ولما كانت نسخ المخطوطات قليلة جداً اضطر المعلمون أن يلجأوا إلى الاملاء فكان المعلم يملي مقطعاً على التلاميذ فينسخونه ثم يحفظونه . وكان التعليم يتم باللغة اللاتينية فقط وليس باللغة الأم وكانت هذه المدارس ثانوية ، أكثر منها ابتدائية.

أما من أجل النواحي التصوفية في هذه المدارس، فكان يعتمد في توفيرها على التأمل الهادىء لأن المتصوفين يعتقدون ان اسمى المعرفة واعمق الاختبارات تأتي بالبديهة والايحاء الإلهي .

وكان النظام صارماً جداً في مدارس الأديرة وهذا طبيعي بالنسبة إلى طبيعة التقشف العامة في حياة الأديرة وكثيراً ما لجأ المعلمون إلى العصا .

موقف «الحركة المدرسية» من التربية

في المرحلة الأخيرة من القرون الوسطى ، أي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، أخذت تدب حياة جديدة في التربية المسيحية ، وقد سميت المعتقدات المعدلة التي تبنوها ، وطرق البحث الأكثر منطقاً التي اتبعها الاساتذة « الحركة المدرسية » أو « الفلسفة اللاهوتية » . وكانت القرون الوسطى الأولى التي تمتد من القرن السادس حتى القرن العاشر عهد الايمان ، حيث تقبّل الإنسان دون استفهام الايمان وكل المعتقدات التي أقرتها الكنيسة . وما ان توقفت غزوات البرابرة من الشمال ومن الشرق وخيم على أوروبا عهد من السلام والهدوء النسبيين ، حتى اتسع الوقت للنشاطات الفكرية وتنمية الحياة العقلية . وبدخول العلوم العربية الارسطوطاليسية إلى أوروبا المسيحية عن طريق اسبانيا ، وبعودة الصليبيين بعد اقامتهم بين اليونان والعرب في الشرق ، أخذ الشك يتسرب إلى أوروبا ، وأخذ الناس يفكرون بقيمة المعتقدات التي قبلوها سابقاً دون ما شك أو تردد أو تساؤل . فكانت النتيجة ان بعض مدارس الأديرة ومدارس الكاتدرائية أخذت تدرس اللاهوت بحماسة جديدة، وظهر في أماكن مختلفة عمالقة في الفكر دعوا قادة في التفكير الديني فاجتذبوا التلاميذ اليهم من قريب ومن بعيد .

لقد قام معلمون عظام قبل القرن الحادي عشر أمثال « بادي » (Bede) « وإلكوين » (Alcuin) و « اريغينا » (Erigena) المعروف بـ « John the Scott » « جون السكوت » ، ولكن الحركة المدرسية لم تقدم آثاراً تربوية تذكر حتى ظهور رسائل « انسلم » (Anselm) وتعاليمه (١٠٣٣ – ١١٠٩) الذي أصبح في سنة (١٠٩٣) رئيس أساقفة « كنتربري » .

ان لفظة « مدرسية » لا تشير إلى أية مجموعة من العقائد ، انما هي اشارة عامة إلى طرق معينة ونزعات فلسفية كانت تشجع في الأديرة ومدارس الكاتدرائية في القرن الحادي عشر ، ثم بلغت حدأمن الكمال في جامعات القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ثم تداعت بسرعة بعد القرن الرابع عشر . وابرز مميزات « الحركة المدرسية » كانت ضيق ميدان الفكر فيها من جهة ، ودقة طرق الفكر فيها من جهة أخرى .

« لقد بدأت « الحركة المدرسية » كحركة لبناء عقائد الكنيسة على العقل فانتهت كنظام متقن من المدنية والحضارة . وقد شبه « شو » « الحركة المدرسية » بعريشة غرست فامتدت جذورهـا في أعماق الأرض وملأت الدنيـا وغلفت بظلها الوارف الجبـال والسهول وامتدت غصونها فوق الأنهر . ربما كانت هذه العريشة مورقة اكثر مما كانت مثمرة ،

ولكنها كانت تملك الحياة وقد اثبتت انها تستطيع أن تتشعب إلى كل زاوية من زوايا الكنيسة والدولة »[٦]

أهداف التربية :

كان هدف « الحركة المدرسية » دعم عقائد الكنيسة بالحجة العقلانية . فكانت بذلك محاولة لمساندة السلطة بالفكر ، ولتبرير الايمان بالعقل ، ولدعم اللاهوت بالمنطق . لقد أُفترض ان الكنيسة كانت تملك « الحقيقة » النهائية التي أتتها عن طريق الوحي الإلهي ، وهذه الحقيقة قد قبلت بالايمان . وكان هدف التربية المدرسية ان تبرهن بأن هذه الحقيقة منسجمة بعضها مع بعض ومتفقة اتفاقاً كلياً مع العقل .

أما منشأ هذا الهدف فنجده في كون القضايا الآتية من الشرق والهرتقات في الكنيسة نفسها حتمت نشر هذه الحقيقة لا على أساس الايمان فحسب بل على أساس الفكر أيضاً .

كانت كنيسة القرون الوسطى ، حتى هذا الوقت ، معادية للاسلوب الفكري في درس اللاهوت . وعندما تجرأ « اريغينا » (Erigena) واكد ان كل فلسفة صحيحة هي مماثلة للعقيدة الكنسية استقبلت جهوده بقليل من القبول . وكان الشعور بان الايمان وحده كاف ولا يحتاج إلى أي دافع عقلي ، ولكن عندما عبر « انسلم » (Anselm) عن الموقف نفسه بعد قرنين من « اريغينا » استقبلت حججه بالاستحسان وكانت سبباً في ترقيته في الكنيسة . لقد اعتقد « انسلم » ان العقل متفق مع العقيدة وبان الايمان يجب أن يسبق المعرفة ، وبان الشك كمقدمة للايمان لا يمكن تقبله . وقال في حديثه عن « الطريقة التي يعبر المرء فيها عن ايمانه » ما يلي[٧]

« لا أحاول أن أعرف لكي أؤمن ، بل أؤمن لكي أتمكن من أن أعرف » .

« يجب أن يتوصل المسيحي إلى المعرفة عن طريق الايمان ، ولا يتوصل إلى الايمان عن طريق المعرفة » .

« ان النظام الصحيح يتطلب أن نؤمن بالأشياء العميقة في المسيحية قبل أن نلجأ إلى التفكير فيها » .

وهكذا كان الهدف الغالب خلال الفترة التي سميت « الحركة المدرسية » أو « الفلسفة اللاهوتية » أو كما سماها العرب « علم الكلام » اثبات التناسق الجوهري بين العقل والايمان .

---

(6) **Shaw, Charles, Gray ;** Trends of Civilization and Culture, New York, American Book Company, 1932, pp. 236 - 258

(7) **Wilds, Elemer Harrison ;** The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. 1950, p. 183.

لقد حاولت التربية في الحركة « المدرسية » أو « الفلسفة اللاهوتية » أن تنمي القدرة على جمع المعتقدات في نظم منطقية وتدافع عن هذه النظم ضد أي جدل عقلي قد يوجه نحوها . ولم تقم أية محاولة لاجراء فحص دقيق للمعتقدات الأساسية التي كانت قد صيغت وقبلت ، كما لم تقم أية محاولة لتنشيط موقف المنقب الباحث المبني على الشك الصادق وعلى عدم استباق العقائد ، الأمر الذي يشكل أساس التفكير العلمي الحديث . ان الهدف الرئيسي للحركة المدرسية كان جمع كل النظريات اللاهوتية التي اعتبرت ملهمة ، في نظام فلسفي محكم التنظيم . وكان هدف التربية « المدرسية » التدريب أو الترويض العقلي .

نوع التربية ومنهجها :

لقد حصرت الحركة المدرسية نفسها في التربية الدينية والتربية الفكرية ، وكان منهجها محصوراً بالأمور اللاهوتية والفلسفة الدينية . أما مدى المعرفة الذي سُمِحَ للعقل العمل فيه فكان ضيقاً جداً . فلا يحق للعلماء الدفاع إلا عن القضايا التي تعتبرها الكنيسة مستقيمة لذا كان عملهم منحصراً في مواضيع قليلة يعالجونها بتعمق . وكان بنتيجة ذلك ان قسم علماء « الحركة المدرسية » مواد بحثهم ونظموها إلى أقصى الحدود . ولما كانت الكنيسة تفرض لغتها ومثلها العليا على كل نشاط في القرون الوسطى من هندسة وموسيقى وأدب ، فقد فرضت تأثيرها على المعرفة والحياة الفكرية . وهكذا لم يكن منهاج الحركة المدرسية نظاماً فلسفياً جديداً بمقدار ما كان نظاماً جديداً في التفلسف حول المعتقدات اللاهوتية .

وفي هذه المحاولة لابتداع نظام تربوي جديد ، انقسم أصحاب المذهب اللاهوتي أو الحركة المدرسية إلى معسكرين أو مذهبين فكريين ، وكان الخلاف الكبير بينهما يدور حول طبيعة مفاهيم الكليات . فكان « انسلم » (Anselm) في كانتربري أول ممثل للواقعيين (Realists). ولهذا المفهوم « الواقعيين » اليوم معنى يختلف تماماً عن معناه آنذاك . ان الواقعية المدرسية مبنية على « الأفلاطونية الجديدة » (Neo - Platonism) وربما سهل علينا فهمها اكثر اذا استعملنا لفظة « المثالية الأفلاطونية » التي تعني الايمان بواقعية الآراء . فالواقعي يعتقد ان الآراء أو « المفاهيم » هي الكائنات الوحيدة الحقيقية ، والأشياء التي نعرفها بواسطة الحواس ليست إلا نسخاً عن هذه الآراء . ويعتقد الواقعي أيضاً ان الحواس البشرية خداعة وان المعرفة الحقيقية (الصحيحة) لا يمكن التوصل اليها إلا عن طريق ادراك الكليات ادراكاً عقلياً مجرداً . [٨]

لقد قدم « انسلم » حجته هذه عن الواقعية لكي يقاوم بها تأثير هرتقة مذهب « الاسمية »

---

(8) **Wilds, Ibd. p. 184**

« Nominalism » الذي أتى به روسالينوس « Rocellinus » (١٠٥٠ – ١١٢٢) وبناه على فلسفة أرسطو . لقد اكد ان المفاهيم والآراء الكلية « Universals » ليست سوى أسماء أو مجردات أو رموز لتسهيل التسمية ، وان الأشياء الفردية التي نختبرها بواسطة الحواس ، هي الكائنات الحقيقية . لم تكن هذه الفكرة موافقة للمفاهيم الدينية كالله والأنسان والخطيئة الأصلية والخلاص كما وانها لم تكن موافقة لمفهوم الكنيسة نفسها لذلك شجبها مجلس « سواسون » (Soissons).

وقد حاول « بيار ابيلارد » (Pierre Abélard) ((١٠٧٩ – ١١٤٢) وهو من اكثر المعلمين « المَدْرَسيين » استقلالاً وشجاعة ، أن يوفّق بين « الواقعية » و « الاسمية » باتخاذ موقف يسمى أحياناً « التصورية » أو « فلسفة المعاني » (Conceptualism) . وحجته انه وان لم يكن للكليات وجود موضوعي فهي ليست فقط اسماً مجرداً لا علاقة له بالاشياء الأخرى ، بل هي تعبير عن جميع المميزات التي تشترك بين مجموعة من الأشياء . كان « ابيلارد » مهتماً كثيراً بشؤون هذه الحياة بحيث آمن كما آمن « انسلم » واستاذه « وليم شامبو » بأن الحقيقة ليست في الفرد ، ولكنه كان يسلم مع « روسالينوس » بأن الأشياء الفردية هي وحدها حقيقية ، ومن هنا أنشأ فلسفته القائلة بأن الكليات تبقى مفهوماً إلى أن يعبر عنها فردياً فتصبح حقيقية ، اي ان الكليات موجودة لكنها ليست مستقلة عن الظواهر الطبيعية التي تكمن فيها .[٩]

وهكذا أنقذ « ابيلارد » حركة الفلسفة اللاهوتية أو الحركة المدرسية أو « علم الكلام » ومنعها من أن تتحول تحولاً صرفاً إلى ما « بعد الطبيعة » . وعلى الرغم من أن موقفه من فلسفة المعاني كان مقبولاً لدى الكنيسة ، لكن الحاحه بأن العقل هو سابق للايمان ويمكن جعله الأساس الذي تقوم عليه عقيدة الكنيسة ، رماه بالهرتقة وحكم عليه مرتين . بيد أن تأثيره استمر ، وفي القرن الثالث عشر بلغت الفلسفة اللاهوتية أو « الحركة المدرسية » أوجها اذ اتحدت فلسفة أرسطو واللاهوت المسيحي في نظام لاهوتي منطقي . وقد قام بهذا الجمع والتنظيم توما الاكويني (Thomas Aquinas) (١٢٢٥ – ١٢٧٤) ولا يزال مؤلفه بهـذا الصدد (Summa Theologiae) « خلاصة اللاهوت » المرجع الثقة للاهوت الكنيسة الكاثوليكية .

وسائل التربية :

كان ممثلو الفلسفة اللاهوتية أو الحركة المدرسية الأُول ، مرتبطين في مدارس الكاتدرائية أو الأديرة وقد عرضوا آراءهم بالتعليم وبالكتابة ، وتوافد التلاميذ على مدارسهم لسماع محاضراتهم ، أما كتاباتهم فقد انتشرت انتشاراً واسعاً واستنسخت بكثرة كما استعمل الكثير منها ككتب للتدريس في المدارس .

---

(9) **Weber, Alfred ;** History of Philosophy, New York, Charles Scribner's, Sons.

وبانتشار شهرة بعض رجال « الفلسفة اللاهوتية » أو « الحركة المدرسية » مع مرور الزمن ، وتجمع عدد من الطلاب الأكثر نضجاً حولهم ، نشأ معهد للتعليم أوسع واكثر مرونة بالنسبة إلى المعاهد القائمة ، وهذا كان بدء الجامعة في القرون الوسطى . ثم جاءت اليقظة في الاهتمام بالدروس العلمانية ، كالقانون المدني والطب ، وذلك على أثر الحروب الصليبية والاحتكاك بالعرب والحضارة العربية . فنشطت حركة نمو الجامعات ، ونشأ في وقت متقارب جامعة بولونيا [١٠] في مدينة بولونيا (Bologna) في ايطاليا عام ١٠٨٨ ، ثم جامعة باريس التي لا يمكن تحديد تاريخ معين لانشائها لأنها نشأت بالتدريج من عدة مدارس « كاتدرائية » كانت موزعة في باريس أو ضواحيها وذلك في أوائل القرن الثاني عشر [١١].

تنظيم التربية :

بقي تنظيم مدرسة الكاتدرائية ومدرسة الرهبنة كما وصفناه سابقاً ، لكن تنظيم الجامعات الأولى كان يختلف تماماً ، فقد بدأت الجامعة كرابطة للمعلمين أو في الحقيقة كنقابة مرخصة من البابا أو الامبراطور أو الملك ، ولذلك كانت اكثر استقلالاً عن سلطة الاكليروس من مدارس الرهبان أو الكاتدرائية حيث كان هذا النوع من المدارس كما رأينا تحت سلطة رئيس الدير أو المطران . وكانت الجامعة الأولى مستقلة أيضاً عن السلطة السياسية أو العلمانية . وبموجب ميثاق ترخيص الجامعة منح أعضاؤها كثيراً من الامتيازات التي منحت إلى رجال الاكليروس فقط مثل الاعفاء من الضرائب ومن الخدمة العسكرية والمحاكم الخاصة خارج نطاق التشريع المدني ، والحصانة ضد التوقيف من قبل السلطات المدنية الخ . وكان يعرف تنظيم الجامعة الكامل « بالتنظيم الجامع » « Universitas Magistrorum et Scholarium » وكان هذا التنظيم يعطى لأية شركة أو جمعية أو رابطة مرخصة . فلم تكن الجامعة في البداية إذن إلا « شراكة من الأساتذة والتلاميذ » . أما التلاميذ في الجامعة فيدعون « هيئة المتعلمين العامة » « Studium Generale » ويجتمع التلاميذ خارج غرفة المحاضرات في جماعات تدعى « أُمماً » (Nations) وذلك حسب الأمم التي أتوا منها لأن التلاميذ أتوا إلى الجامعة من جميع بلدان أوروبا . وكل « أمة » من الطلاب تنتخب سنوياً « مستشاراً » ، وكل جماعة من الأساتذة تقوم بتدريس مادة واحدة ، تدعى « فاكيلتاس » (Facultas) « أي هيئة المعلمين » . وكل جماعة من هؤلاء ينتخبون سنوياً « عميداً » . وكان مجلس الجامعة يتشكل من عمداء الكليات ومستشاري الأمم (الطلاب) ، وهذا المجلس ينتخب سنوياً الرئيس (Rector) الذي يُفوض من قبل المجلس السلطة الادارية للجامعة . وفي بعض الجامعات في جنوبي أوروبا كان الرئيس من التلاميذ وكان التلاميذ يديرون الجامعة .

---

(10) **Encyclopedia International**, Grolier, New York 1973, vol. 3. pp. 116 - 117

(11) **Encyclopedia International** .. Ibd. vol. 4, pp. 90 - 91

يدخل التلميذ الجامعة في سن الرابعة عشرة فيلتحق باستاذ يدرس على يده إلى أن يصبح في امكانه أن « يحدد ويعرِّف » أي أن يتمكن من قراءة اللغة اللاتينية وكتابتها والنطق بها . وبعد أن يثبت بالامتحان قدرته هذه يمنح لقباً يعادل ما نسميه اليوم بكالوريوس ، أو الاجازة ، ثم يدرس على عدة أساتذة مدة أربع أو سبع سنوات إلى أن يصبح في امكانه أن يناقش ويجادل أي أن يناقش « رسالته » أو « بحثه » ويدافع عنه وإذا ما نجح في دفاعه عن الرسالة اعطي شهادة « الاجازة بالتعليم » (Licentia docendi) ، وعُد في مصاف الأساتذة وسمح له أن ينافس الأساتذة الآخرين في اجتذاب التلاميذ وتقاضي اجور على عمله .

وفي نهاية القرن الثالث عشر نظمت معظم الجامعات في أربع كليات : الأداب والفنون ، والطب ، والحقوق ، واللاهوت . وكانت كلية الأداب تضم الثلاثي (الثلاثيات) أي القواعد والبلاغة والمنطق والرباعي (الرباعيات) أي الحساب والهندسة وعلم الفلك والموسيقى ، هذه الموضوعات التي علمت في عهد مدارس الأديرة ، وقد توسعت الآن باضافة هندسة اقليدوس وفلك بطليموس اليها. وبعد أن ينهي التلاميذ هذا القسم أي قسم الأداب والفنون يلتحق معظمهم بكلية اللاهوت والآخرون يلتحقون بكليتي الحقوق والطب . أما الطب فلم يتقدم إلا بعد تأثير الحضارة العربية في جامعات أوروبا وكتب الطب العربية من تأليف الأطباء العرب واليهود . (١٢)

طرائق التربية :

ان الطرائق التي اتبعت في عهد « الحركة المدرسية » وفي جامعات القرون الوسطى كانت تستهدف اعطاء التلميذ المعرفة ، معرفة مواضيع الدراسة ، والقدرة على التفكير والمناقشة في هذه المواضيع . وكانت هذه الطرائق تلخص في طريقتين اثنتين : أولاهما : طريقة المحاضرة حيث كان المعلم يقرأ الدرس مع شرحه وشرح مفرداته لكي يتمكن التلميذ من تدوينه تدويناً صحيحاً ، فكانت هذه الطريقة بمثابة املاء . وكانت الطريقة الثانية طريقة الجدل أو النقاش ، حيث يعارض تلميذ أو جماعة من التلاميذ جماعة أخرى في موضوع ما فتقدم البراهين من جهة وتقدم الاعتراضات من جهة أخرى ويعالج الموضوع بالحوار بطريقة منطقية دقيقة .

ان طريقة « الحركة المدرسية » أو « علم الكلام » ، بوصفها احدى طرق التحليل المنطقي تتمثل في كتابات توما الأكوني و « بطرس لومبارد » (Lombard) . وتتكون من الخطوات الآتية : (١) عرض قضية أو افتراض و (٢) اعطاء البرهان عليه و (٣) استعراض الحلول ثم رفض غير الملائم منها والاحتفاظ بالحل الصحيح و (٤) درس الاعتراضات على الحل الصحيح .

---

(12) **Wilds, op cit, pp. 186 - 189.**

ان هذه الطريقة لم تؤكد الترتيب النظامي فحسب بل تطابت الدقة في التفكير والتوصل إلى خلاصات معينة وواضحة .

لقد حاولت الطريقة « المدرسية » الوصول إلى الاستنتاجات التي يمكن أن تستخرج من المبادىء العامة المقبولة . وكان شكل الجدل أو الحوار المستحب « القياس المنطقي » (Syllogism) وهو نوع من التفكير ، يتكون من ثلاث قضايا : « مقدمة منطقية كبرى » ثم « مقدمة منطقية صغرى » ثم « النتيجة » او الة معينة . مثال على ذلك :

كل إنسان فان

سقراط انسان

فسقراط فان

ويتكون القياس المنطقي من ثلاثة حدود : « الحد الأكبر » و« الحد الأوسط » و « الحد الأصغر » . فاذا امكن وضع « الحد الأوسط » كلياً ضمن نطاق عمل « الحد ا لأكبر » في المقدمة المنطقية الكبرى ووضع « الحالة المعينة » ضمن نطاق عمل « الحد الأوسط » في المقدمة المنطقية الصغرى ، عندئذٍ تقع « الحالة المعينة » ضمن نطاق عمل « الحد الأكبر » وتكون النتيجة صحيحة .

على الرغم من أن الطريقة « المدرسية » كانت غير مثمرة في نتائجها المباشرة ، فانها اثارت النشاط العقلي وأدت بالنتيجة إلى يقظة فكرية أوسع وثم إلى تطور في أوروبا . ان هذه الطريقة رغم انها كانت في معظم الأوقات تنصرف إلى مجادلات ومما كات لا نهاية لها ولا فائدة منها حول أمور غير مهمة ، فانها ساعدت النشاط الفكري وهيأت الطريق « للنهضة » ولتطور العلم الحديث . (١٣)

لم يسد الانضباط في جامعات القرون الوسطى إلا بمقدار قليلٍ جداً فالامتيازات التي منحت للطلاب جعلتهم يرفضون الضغط ومكنتهم من الانغماس في الفساد والفوضى وقد منحت هذه الامتيازات للطلاب اثناء تنقلهم بين الجامعات فكان الطلاب يتنقلون من جامعة إلى أخرى ويمارسون الشغب والتظاهر .

---

(13) **Monroe, Paul ;** Text Book in the History of Education, New York, the Macmillan Company, 1916, pp. 243 - 313

موقف الفروسية من التربية وممارساتها التربوية

ما زال المجتمع منذ بزوغ الحضارة يتميز بثلاث طبقات لم تتبدل وهي :

١ – طبقة الكهنة ٢ – وطبقة المحاربين ٣ – وطبقة العاملين . وكان المجتمع في غربي أوروبا حتى نهاية القرن الثاني عشر يتكون من الكهنة المسيحيين ، ومن الأشراف الاقطاعيين ، ومن العبيد أي العمال الذين لا يملكون الأرض التي يعملون فيها .

والمؤسستان اللتان بحثناهما الآن ، « الرهبنة » و « الحركة المدرسية » أو « الفلسفة اللاهوتية » كانتا وليدتي الكنيسة المسيحية مباشرة ، وكانت أجهزتهما التربوية مُعدة في الدرجة الأولى لتربية رجـــال الاكليروس . أما تربية الطبقة الدنيـــا ، طبقة العبيد في القرون الوسطى ، فلا تحتاج إلى اهتمام كبير لأنها كانت محدودة وبسيطة . فالتدريب على حراثة التربة وقطع الخشب وجر المياه كان يتم بتقليد الكبار ، والتعليم الديني البسيط الذي يحتاجه الإنسان للاشتراك في المراسم والطقوس الدينية كان يقدمه الكهنة في مدارس الأبرشية . أما طبقة الأشراف فقد أعد لها نظام تربوي خاص وضعته مؤسسة اجتماعية خاصة تفرعت من الاقطاعية البربرية . هذه المؤسسة هي الفروسية التي تعود بدايتها إلى أوائل القرن التاسع عندما ثُبت النظام الاقطاعي بمميزاته الأساسية ، وقد استمرت حتى القرن السادس عشر عندما أخذت الاقطاعية تتفكك .

لكي نتفهم الفروسية يجب أن نفهم الجو الاقطاعي الذي نشأت منه . ولفظة اقطاعية ، وهي ترجمة اللفظة الانكليزية (Feudalism) ، يرجح أنها نشأت بين الشعوب الالمانية من لفظة « Fehu » الالمانية التي تعني ماشية ، لأن هؤلاء الالمان كانوا يقيسون الملكية بالمواشي . ولا ريب في ان لفظة « اقطاعية » تتعلق بالملكية وتقوم عليها . لقد وصفت الاقطاعية بكونها تنظيماً كاملاً للمجتمع بواسطة ملكية الأراضي حيث كان جميع المالكين ، من الملك إلى أصغر ملاك ، مرتبطين وخاضعين إلى واجبات الخدمة والدفاع ، فالسيد (المولى) يحمي مُقْطَعِيه أو مزارعيه أو عبيده « Vassals » والمُقْطَعُون يحمون سيدهم ويدافعون عنه . ولما كانت الأحوال مضطربة وغير مستقرة في ذلك العهد ، فكان يستحيل على الملك أو السيد (اللورد) أن يحكم مقاطعة واسعة لذلك كان يقسم ممتلكاته بين محاربيه ويعطي كلاً منهم السلطة على الممتلكات الواقعة في عهدته . ويتعهد المحاربون مقابل ذلك بأن يقدموا المعونة العسكرية أو أية معونة أخرى إلى سيدهم كلما دعت الحاجة ، ونجد في هذه الاتفاقيات أو التعهدات القائمة بين السيد ومُقطَعيه

بذور المؤسسة التي أصبحت في القرن التاسع نظاماً واضحاً ثم أصبحت في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر قوة سياسية واجتماعية هائلة . (١٤)

ان النظام الاقطاعي بلغ أقصى حدود النمو والتطور في فرنسا والمانيا وايطاليا وانكلترا واسكوتلاندا ، وكانت امبراطورية شارلمان مهد الاقطاعية . عندما كان شارل الالماني لا يزال ملكاً على الفرنج فقط عزم على انشاء امبراطورية مسيحية عظيمة تضم كل الالمان. وعندما توّجه البابا سنة ٨٠٠ « امبراطوراً على الرومان » باسم شارلمان ، حقق عزمه بدهشة فائقة . وبذلك أصبح كل ملك في الغرب خاضعاً له – ولما كانت ثروة شارلمان في الأرض وليس في المال فقد كافأ قادته ومحاربيه الأمناء والحكام المدنيين باقطاعهم أراضي شاسعة ووعدهم بالحماية ، كما تعهد هؤلاء بأن يقدموا له معونتهم وخدماتهم وخدمات رجالهم المحاربين ، وكذلك فعل النبلاء الذين قهرهم . وهكذا تماسكت امبراطوريته بطريقة الاقطاعية على نطاق واسع ومنظم وتقدمي فعال لم يعرف من قبل فاصبحت الاقطاعية نظاماً اجتماعياً في القرون الوسطى.

لقد انتشرت الاقطاعية بسرعة في أوروبا بعد انفراط عقد امبراطورية شارلمان العظيمة . ولما كان الذين خلفوا شارلمان في حكم الامبراطورية المقسمة ضعفاء وكانت هجمات العرب والسلافيين « Slavs » والهُون « Huns » متوالية خلال القرن الذي عقب شارلمان ، شاعت الفوضى في ذلك القرن فرحبت جميع الطبقات بتأمين هذا النوع من الحماية الذي قدمته الاقطاعية . وصدق ذلك بصورة خاصة على الطبقات الدنيا لأن قلاع النبلاء الاقطاعيين كانت تشكل حصوناً قوية ضد المهاجمين سواء من النبلاء الآخرين أم من اللصوص وقاطعي الطرق . ولما كان نظام الاقطاع يقضي بأن يحمي الملك أو السيد مُقطِعيه ويرشدهم ، ويتعهد هؤلاء مقابل ذلك بأن يكونوا أمناء له فيقدمون له المعونة العسكرية والخدمات الاجتماعية ، أصبحت الاقطاعية نظاماً للعلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وتركزت الاقطاعية السياسية حول العلاقات بين النبلاء بعضهم مع بعض ثم بينهم وبين الملك ، وأما الاقطاعية الاقتصادية فتركزت حول علاقة السيد (النبيل) بعبيده الذين كانوا يعملون في الأراضي ، وهؤلاء العبيد أو المزارعين كانوا ينتقلون مع الأرض من سيد إلى سيد كلما تبدل مالك الأرض .

ويكمن سر الاقطاعية بكونها مثلاً أعلى للخدمة التي يعبر عنها اما في حراثة الأرض وزرعها أو في الحرب . فالذين كانت خدماتهم عسكرية (حربية) كان ينظر اليهم كنبلاء والذين كانت تقوم خدماتهم على حراثة الأرض وزرعها كان ينظر اليهم نظرة وضيعة حقيرة . وهكذا نشأت

---

(14) **Robinson, James Harvey;** Readings in European History, Vol. I, p. 187

طبقة المحاربين وكانوا من النبلاء ولم يكن لوجودهم مبرر سوى الحرب . وكان النبيل يقضي حياته العادية في ممتلكاته حول القلعة وفي الحرب وفي الصيد . ونشأ من هذه الحياة القائمة على الجرأة والشجاعة نظام من أهم الأنظمة الاجتماعية عرف بنظام « الفروسية » . وهكذ تشكلت الفروسية وتأسست على القوانين والعادات الاجتماعية التي انبثقت عن حياة النبلاء ، وكان الاستعداد لهذه الحياة يتضمن التربية على الفروسية . وتنحدر لفظة فروسية بالأساس من اللفظة الفرنسية (Cheval) أي حصان .

فالفروسية إذن تتضمن ركوب الخيل كعمل أساسي ، والنبيل الذي يجتاز المنهاج المقرر من التدريب ويعطي العهود ويقسم اليمين المقررة يصبح فارساً .

أهداف التربية :

كانت الفروسية ، باعتبارها نظاماً لتربية النبلاء ، تستهدف تعليم أفضل المثل العليـا الاجتماعية والخلقية التي كان بامكان هؤلاء البرابرة الالمان المتنصرين أن يفهموها . لقد حاولت الفروسية أن تأخذ الخير الذي وجدته في هذا المجتمع المحارب الأناني الجاهل المتوحش السمج ، وتنميه لكي يصبح متمشياً مع مستوى المسيحية ، وحاولت أن تمزج أفضل ما في المحارب البربري بالقداسة المسيحية ، فعلمتهم حماية الضعيف ، والشهامة واللطافة والظُرف في معاملة المرأة والأمانة في كل شيء . كانت الفروسية نظاماً معيناً من التربية يستهدف تعليم « مبادىء **المحبة والحرب والدين** » .

كانت أعظم فضيلة في عهد الفروسية هي الشجاعة وأنفع المعرفة هي المهارة في القتال . ولم يكن في امكان هؤلاء المحاربين فهم المثل العليا والعادات التي مارسها المسيح وأتباعه . انما كان في امكانهم أن يفهموا البطولة وأن يكونوا أبطالاً ، فاذا أمكن استخدام شجاعتهم ومهارتهم الحربية لشيء نافع مفيد كان بالامكان تحسين العالم . كانت هذه بداية حسنة وكان على الفروسية أن تجد بعض الفضائل التي تنسجم مع استعداداتهم ، فكان حب المجد دافعاً قوياً ، فلجأت اليه الفروسية واستغلته فقدمت بذلك شيئاً مجيداً « شريفاً » ليحاربوا من أجله . فالهدف الملموس الواضح الخاص الذي له طابع شخصي يفعل اكثر بكثير من الهدف أو المبدأ المجرد : « فالحب والحرب والدين أهداف اكثر وضوحاً من العمل والفكر والأخلاق » .[١٥]

لقد اختلفت مثل الفروسية العليا عن مثل « الرهبنة والحركة المدرسية » فبدلاً من التقشف والأخذ بمذهب تثقيف العقل اكدت الفروسية الحياة العملية ، فكانت حياة الفروسية تتضمن مثلاً عليا رفيعة ومستويات عالية ، والفارس الحقيقي عليه أن يكون مخلصاً لربه وملكه وسيدته .

---

(15) **Messenger, J. F.; An Interpretive History of Education, New York, The Macmillan Company, 1916, p. 78**

وكان عليه ، قبل أن يعطى لقب فارس أن يؤمن العهود الآتية :

١ — **عهد الدين** ، أي أن يكون أميناً للدين والكنيسة .

٢ — **عهد الشرف** ، أي أن يكون أميناً لسيده أو رئيسه الاقطاعي .

٣ — **عهد الشهامة** ، أي أن يكون أميناً لسيدته شهماً كريماً في معاملتها .

وكان هدف التربية الفروسية في الدرجة الأولى الانضباط الاجتماعي وتدريب الفارس على القيام بامانة بدوره في المحافظة على العادات والممارسات الاجتماعية والمثل العليا التي تقرها الطبقة التي ينتمي اليها وتمارسها . وكان القول المأثور الذي يسير حياة الفارس :

« تصرف وكأن الرجل الذي تكن له أسمى الاحترام ينظر اليك ويراك »

ان هذا المبدأ أنشأ في الفارس اللطافة والشهامة والكرم والشجاعة والعادات الطيبة — وكان لجميع هذه الخصال أثرها في تهذيب المجتمع حتى حين كانت هذه الأعمال تتم بصورة سطحية وليس من أعماق القلب .

وتجلت المثل العليا للتربية في عهد الفروسية في الشعر الغنائي والشعبي في فرنسا والمانيا وانكلترا . وكان شعراء أوروبا أمثال « تشوسر » (Chaucer) و «سبنسر » (Spencer) و« سكوت » (Scott) و « تانسون » (Tennyson) يبتهجون بسرد حوادث الفروسية التي تجلت فيها الشجاعة والشهامة والنبل . على أن هذه الحوادث كان يبالغ فيها كما كانت مشحونة بالتصنع والمبالغة والعاطفة وقد أظهر ذلك بوضوح كاتب قصة « دون كيشوت » (Don - Quixote).

نوع التربية :

كانت التربية الفروسية نوعاً من التدريب الاجتماعي أو التربية الاجتماعية ، فقد اكدت العادات اكثر مما اكدت الأخلاق . ومن حيث التدريب على أداب الاجتماع فلم تجارها بذلك مؤسسة أو هيئة أخرى . لقد اكدت أيضاً التربية العسكرية وجعلت القتال مهنة ، وخصصت قسماً كبيراً من اهتمامها إلى تنشئة المهارات العسكرية المهنية . وقد اكدت ناحية من التربية أهملتها مدارس الرهبنات والجامعات ، تلك الناحية كانت التربية البدنية . كما وانها لم تهمل التربية الدينية لكنها كانت سطحية وكان على الفارس أن يتدرب على الاشتراك بجميع الطقوس والمراسم الدينية في الكنيسة كما كانت الفروسية تقدم شيئاً من التربية الأدبية لكنها كانت في أغلبها شفوية ومنحصرة باللغة الأم « المحلية » . وكانت التربية الفروسية تربية طبقية في الأساس كما كانت ارسطقراطية واضحة .

المنهج :

كان المنهج قائماً على الفعالية أي انه منهج عمل ونشاط وليس منهاج فكر . وكانت الدروس تتألف من نشاط بدني ونشاط اجتماعي ونشاط عسكري ونشاط ديني . وتتضمن هذه الدروس في المراحل الأولى التعليم الصحي والتعليم الديني والتدريب على الآداب وطاعة الرؤساء ولعب القيثارة والغناء ولعب الشطرنج واتقان ركوب الخيل والتطاعن والملاكمة والمصارعة ولعب السيف . وكانت تتناول أيضاً قليلاً من التدريب على القراءة والكتابة باللغة الأم « المحلية » . أما في المراحل العليا من الدراسة فكان المنهاج يتألف مما دعوه بالفنون السبعة الحرة : (١) التطاعن على ظهر الخيل (٢) وترويض البُزاة والصيد بها (٣) والسباحة (٤) والفروسية (ركوب الخيل) (٥) والملاكمة (٦) والكتابة والغناء (٧) والشطرنج . أما الفتيات فقد نلن تدريباً كافياً في أداب الاجتماع شبيهاً بما ناله البنون، لكن التربية البدنية والتربية العسكرية قد حذفتا واستبدلتا بالتدريب على الشؤون المنزلية كتدبير المنزل والخياطة والحياكة والتطريز . وقد اختلفت تربية البنات في مدارس الفروسية عن مدارس الأديرة إذ كان التأكيد في الأولى على الأمور الاجتماعية اكثر منه على الأمور الدينية والفكرية .

وأهم تغيير أحدثته الفروسية كان تطوير الأداب المحلية بسرعة واستخدامها كجزء من التربية . وما ان أطل عهد شارلمان حتى كانت اللغات المحلية تتكون من مجموعتين مختلفتين ، الأولى اللغات المتفرعة من اللغة الالمانية والثانية المتفرعة من اللغة الرومانية . فاللغة الانكليزية ، وهي مزيج من اللهجات الالمانية اصابتها مسحة لاتينية في عهد الاحتلال الروماني ثم زادت بعد احتلال النورمانديين ، وتداولت القصص الأولى عن الفروسية بما نسميه اليوم اللغة الانكليزية الوسطى « Middle English » . وكذلك نشأت عدة لهجات محلية مختلفة ضمن المجموعتين الالمانية والرومانية . فاللغة المحلية المكتوبة التي استعملت في مدارس شمالي فرنسا اختلفت كثيراً عن اللغة المكتوبة التي استعملت في مدارس جنوب فرنسا، هذا الجزء الذي كان بين سنة ١١٠٠ و ١٣٠٠ مسرحاً للشعر والغناء تثيرهما الفروسية . ان الشعراء المنشدين الذين حملوا قصصهم البطولية وأناشيدهم الغرامية إلى بلاط تولوز ثم تجولوا في غربي أوروبا ساعدوا كثيراً على تفوق اللغة الفرنسية ، التي حلت سريعاً محل اللغة اللاتينية كلغة الثقافة العلمانية في القرون الوسطى

وسائل التربية :

كان يعهد بتعليم الولد في أول مراحله إلى الأم في البيت ثم إلى الأسياد والسيدات في قلعة رئيس والده الاقطاعي . وهكذا كانت القلعة وساحات الاحتفالات وساحات القتال هي المدارس التي تعنى بتربية الولد . أما تربية البنات فكانت تتم في البيت والبلاط . ولا يجوز أن نهمل أهمية الشعراء المنشدين الضاربين على الأعواد وأثرهم التربوي في القرون الأولى من عهد الفروسية .

أما الذين يحسنون القراءة في القرون الوسطى فكانوا قليلين جداً باستثناء الرهبان والعلماء وبعض التجـــار . ولما كان السفر بطيئاً وصعباً وخطراً ، وكانت وسائـــل التسلية باستثناء الأكل واللعب والصيد والقتال قليلة أيضاً ، فكان الشعراء المنشدون المتجولون يحملون الأخبار وينشرونها ويقدمون المتعة والتسلية ، وكان عملهم التنقل بين قلعة وقلعة ينشدون المديح للسيدات الجميلات والفرسان الشهـام . فكانوا بمثابة مجلات أو جرائد تنقل إلى سكان منطقة ما عادات وتقاليد منطقة أخرى في اللغة والملبس وطرق الصيد وعادات الطعام وقوانين المجاملة والأداب . كما كانوا أحياناً ينذرون بخطر كامن من منافس غيور أو عصابة لصوص . وحتى الشعراء المنشدين المقيمين الذين لم يتجولوا من قلعة إلى أخرى بل أقاموا في قلعة واحدة، كان لهم تأثير كبير في تربية شبان محلتهم كما كانوا ينشدون ويعلمون اللغة المحلية الجديدة التي كان الجميع يسهم في تطويرها ويستفيد منها .

تنظيم التربية :

بقي أولاد الطبقة الخاصة (الذوات) منذ ولادتهم حتى السن السابعة في البيت في عهدة أمهاتهم حيث كانوا ينالون منهن التدريب البدني والخلقي والديني الضروري . أما في سن السابعة فكانوا يرسلون إلى قلعة السيد الأعلى . ويرجح ان هذه العادة قد بدأت عندما أخذ النبلاء الصغار يرسلون أولادهم إلى قلعة السيد الأعلى كاسرى أو رهائن لولائهم له . أما الأولاد اليتامى فكانوا يرسلون إلى قلعة السيد الأعلى لأنه كان وليهم الشرعي وكانوا يعملون كخدم أو حرس لديه ، وكذلك أرسل الأهل بناتهم إلى البلاط على سبيل ترتيب أزواج مناسبين لهن ، وهكذا أصبحت القلعة مركز التربية الفروسية .

وقام الولد ما بين السابعة والرابعة عشرة بدور وصيف (خادم) (Page) ، والتحق باحدى سيدات البلاط النبيلات التي قامت بتوجيه تربيته داخل البيت وخارجه . أما من الرابعة عشرة حتى الواحدة والعشرين فيُعتبر الشاب أحد أفراد الحاشية ويسمى « سكوير » « Squire » أي «حامل الترس» ، ويلتحق بأحد الفرسان ولكنه يتابع خدمة السيدة وينشد معها ويلعب القيثارة والشطرنج ، لكن واجبه الرئيسي هو خدمة سيده . اما الخدمات التي كانت تطلب منه فكثيرة ، فكان عليه أن يخدم سيده على المائدة ويعد فراشه ويعتني بفرسه وينظف سلاحه ويحمل درعه وكان يرافقه في مباراة الفروسية وحتى في المعارك الفعلية وهكذا يتعلم فنون السلم والحرب .

وعندما يبلغ الحادية والعشرين يكتمل تعلمه ويصبح مؤهلاً للفروسية ويعد نفسه للاحتفال بذلك بالاعتراف أمام الكاهن والصيام والصلاة طوال الليل وهو في كامل سلاحه . أما هذا الاحتفال فيتكون من مراسم دينية دقيقة ، وبعد أن يقدم وعداً بأن يكون أميناً وأن يحمي المرأة واليتامى وألا يكذب وألا يغتاب الناس وأن يعيش بانسجام مع أترابه وأن يحمي الكنيسة ،

ينال ضربة خفيفة بقفا السيف على كتفيه ثم يسلم سيفاً جديداً والمهمازين وهكذا يتم بذلك منحه لقب « فارس » .

طرائق التربية :

لما كانت التربية الفروسية تتألف في الدرجة الأولى من اكتساب المهارات كانت الطرق المستعملة طريق المثال والممارسة ، فخدمة سيدته وسيده مكنت الشاب من تطوير سلوكه الاجتماعي والقيام بالمنجزات الفروسية المطلوبة منه بطريقة التقليد . كما وان لون الحياة في البلاط ونوع النشاط فيه والرغبة في الحصول على التقدير الاجتماعي كانت الدوافع لتعلمه . أما المُثل العليا فكانت تكتسب من أغاني المحبة والحرب التي كانت تمدح السيدات الجميلات الفاضلات والفرسان البواسل الشهام ، ومن العهود التي يقطعها الفارس في اثناء الاحتفالات المهيبة عند تنصيبه « فارساً » . أما الانضباط فيؤمن بالمثل الرفيعة في الطاعة والخدمة على الرغم من أن هذه المثل كانت تفرض أحياناً بالوعيد والتهديد . أما الطرائق التي استعملت فكانت حديثة بمعنى أنها كانت تعتمد التعلم بالعمل .. وكانت تحركها مثل عليا رفيعة ، كما كانت محصورة ومضبوطة لتمسكها بمستويات اجتماعية معروفة .

موقف نظام النقابات من التربية وممارساتها التربوية

لا نستطيع أن نختم د س فترة العصور الوسطى دون الاشارة بايجاز إلى عامل آخر من العوامل التي أسهمت في تطوير النظريات التربوية ، ذلك العامل هو نشوء الطبقة الوسطى ونظام النقابات وقد تم ذلك حوالي أواخر القرون الوسطى . لقد توسعت حركة التجارة وتزايدت المبيعات نتيجة الحروب الصليبية ، فنشأت نتيجة ذلك المدن الحرة ، وبنمو هذه المدن نشأت طبقة اجتماعية جديدة ، الطبقة الوسطى « البورجوازية » وكان من الطبيعي أن يؤدي نشوء هذه المدن وهذه الطبقة إلى الحاجة لنوع جديد من المدارس لتربية أبناء الطبقة الجديدة وفقاً لحاجاتهم .

ان الحروب الصليبية التي كانت أبرز حركة لنظام الفروسية الاقطاعي كانت السبب الرئيسي لسقوط الفروسية والاقطاعية . لأن اشتراك النظام الاقطاعي القديم بالحروب الصليبية كان بمثابة انتحارها ، على ان ذلك لم يخطر في بال الاقطاعية . كانت الحروب الصليبية عملاً مقدساً وكان فرسان القرون الوسطى متحسسين جداً بمشكلة عصرهم وهي خلاص النفس وكان السبيل لهذا الخلاص هو بنظرهم انقاذ القبر المقدس من أيدي الاتراك . فالقوة الروحية التي حملت الناس على دخول الأديرة حركت الألوف من الفرسان الصليبيين في كل بلد مسيحي في أوروبا .

لكن الحروب الصليبية فشلت في تحقيق تعهدها الأصلي انما توصلت إلى نتائج لم تكن متوقعة ، نتائج جلبت في النهاية الدمار إلى النظام الذي دعي اليها وقام بها . فالعزلة الضيقة التي أحاطت بالحياة الاقطاعية تحطمت وقام محلها الاتصال والتواصل بين الأمم . ان ضرورة نقل جيوش الصليبيين وأسلحتهم أسفرت عن انشاء المدن البحرية لتكون مراكز للنقل والتجارة والشحن وانشاء أعمال الصيرفة ، فتعرف الصليبيون أنفسهم إلى أنواع جديدة من الأطعمة والملابس والرفاهية والزينة والسلع . وقد أثارت هذه المعرفة الكثير من الرغبات الجديدة في الأوروبيين . وكان من شأن هذه المتطلبات الجديدة ان انشيء نظام جديد لأعمال الصيرفة والتجارة والصناعة لاستيراد السلع المطلوبة وتوضيبها وتوزيعها . وأصبحت المدن التي تجمعت فيها هذه التجارة والصناعة حرة تتمتع بحصانة الاقطاعية والاستقلال عن الكنيسة والدولة . وقد استطاعت هذه المدن ، بشتى الوسائل ، أن تؤمن حرياتها واستقلالها وحكمها الذاتي . وهكذا نشأت طبقة جديدة ، الطبقة الوسطى التي اختلفت عن طبقة الاكليروس والنبلاء والعبيد . وكانت حاجات هذه الطبقة الجديدة تختلف عن حاجات غيرها من الطبقات القديمة في القرون الوسطى ولذلك كانت تحتاج إلى نوع جديد من التربية لأولادها .

وقد تركزت الحياة في هذه المجتمعات الجديدة إلى حد كبير حول نظام النقابات . أما النقابات فكانت منظمات أو جمعيات تضم الذين يعملون في التجارة والصناعة وكانت تقسم إلى نوعين نقابات التجار ونقابات أصحاب الحرف . وقد ظهرت نقابات التجار قبل النقابات الأخرى وازدهرت ما بين القرن الثاني عشر والرابع عشر خاصة في انكلترا ، وانضوى تحت لوائها كل التجار الذين يقطنون في مدينة واحدة . وقد احتكرت النقابة تجارة المفرق في المدينة وكان لها حق فرض ضريبة على الغرباء الذين يحملون بضائعهم لبيعها في مدينتهم وكانت من ناحية ، بمثابة غرف التجارة أو جمعية الصناعيين عندنا اليوم .

أما نقابات أهل الحرف فكانت منظمات تضم المنتجين والعمال المهرة والصناعيين . ففي كل مدينة التف الذين يعملون في حرفة واحدة أو صنعة واحدة كالحياكة مثلاً أو الحدادة أو النجارة أو الصباغة ... الخ حول بعضهم بعضاً لكي يرفعوا مستوى صنعتهم . وازدهرت نقابات الصناعيين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ثم انقسمت هذه النقابات إلى منظمتين ، فشكل **العمال المهرة** نقاباتهم التي تعتبر ما نسميه اليوم **اتحاد العمال** ، وشكّل أصحاب المصانع جمعيات الرأسماليين التي تعتبر ما نسميه اليوم « Trade Associations » أي « نقابة أصحاب المصانع » وقد نشأ نوع خاص من التربية لكل من هذه النقابات يلائم حاجاتهم .

أهداف التربية وانواعها ومنهجها :

كانت أول حاجات هذه الطبقة الوسطى الجديدة تربية عملية . فالتربية المهنية كانت هي

النوع المطلوب لأن أولاد هذه الطبقة كان عليهم أن يستعدوا للحياة التجارية والصناعية . وهذا بالفعل ما قدمته حركة النقابات إلى التربية ، التأكيد على نوع جديد من التربية المهنية ، على أن الطبقة الوسطى ، لم تشأ أن يكون لها نوع ضيق من التربية المهنية يهمل كل شيء آخر ، بل تطلبت تعليماً ابتدائياً في مبادىء القراءة والكتابة باللغة القومية ومبادىء الحساب ، لأن هذا التعليم ضروري للاستعداد للعمل التجاري والصناعي لاعضاء النقابات . أما الدين فلم يهمل أيضاً ، لأن معلمي مدارس النقابات كانوا من الكهنة عادة ، بيد ان التربية الفكرية لاعضاء النقابات لم تتعد في معظمها المستوى الابتدائي ، لكن بعض مدارس النقابات اتسعت فيما بعد فاصبحت مدارس ثانوية « Latin School » كمدرسة التاجر تايلور « Taylor » في لندن .

وسائل التربية :

لقد نشأت أنواع جديدة من المدارس في هذه المدن الجديدة الناشئة ، لتعليم أولاد الطبقة الوسطى . فأنشئت مدارس « الانشاد » (Chantry) على نفقة الأوقاف أو التركات التي اقتطعها الأغنياء من التجار أو الصناعيين وأوصوا بأن يستخدم فيها كهنة خصيصاً ليرتلوا القداس من أجل راحة الموتى . ولما كان لدى هؤلاء الكهنة الكثير من الفراغ فقد أوصى الذين أوقفوا هذه المدارس بأن يخصص هؤلاء الكهنة بعض وقتهم لتعليم أولاد المدينة مبادىء التعليم الابتدائي . فكان في انكلترا وحدها ثلاثماية مدرسة من هذا النوع عند قيام حركة الاصلاح . وكانت تتعاون أحياناً بعض مؤسسات « الترتيل » فتؤسس مدارس قوية في المدن الكبيرة ، وهكذا بدأت أول حركة أو مؤسسة خيرية تعضد المدارس والتربية .

وقامت أيضاً مدارس الترتيل في المدن الكبيرة وقد ساند هذه المدارس وادارها السلطات العامة وكثيراً ما قام بالتدريس فيها علمانيون بالاضافة إلى الكهنة . لكن أهم أنواع المدارس كانت مدرسة « النقابة » التي تنفق عليها النقابات لتعليم أولاد أصحاب الحرف والصناعات . وكان معلمو هذه المدارس هم الكهنة الذين يمارسون واجباتهم الدينية تجاه أعضاء النقابات كالمعمودية والزواج والجنائز ، وكانت هذه المدارس تقدم التعليم الابتدائي باللغة المحلية وهذه اللغة كانت اجبارية لكونها ضرورية كأساس في المرحلة اللاحقة من التعليم المهني في مدارس النقابات نفسها .

التنظيم :

ان التعليم الوحيد المنظم تنظيماً دقيقاً في نظام النقابات كان التدريب المهني . فقد كان أعضاء النقابة مقسمين إلى ثلاث طبقات : طبقة الأسياد أو (الأساتذة) وطبقة الاجراء المياومين (Journeymen) ، وطبقة المبتدئين . فالأسياد هم الوحيدون الذين يحق لهم أن يملكوا مخزناً أو مشغلاً وأن يشتروا المواد الخام ويبيعوا البضاعة المصنوعة . وكانوا يشترون ويبيعون بأسعار تقررها النقابة التي كانت تشرف على مؤسساتهم لكي لا تنتج بضاعة رديئة . أما الذين يباشرون

في تعلم الصناعة فكانوا يسمون مبتدئين أو تلاميذ صناعيين وبموجب شروط تتلمذهم كان على المعلم أو السيد أن يقدم للتلميذ مسكناً ويعلمه الصنعة التي استخدم فيها وكان على المبتدىء المتتلمذ أن يطيع سيده أو معلمه وأن يخدمه ما دام في دور التلمذة ولا ينال مقابل ذلك اجراً سوى المسكن والمأكل . أما مدة التلمذة فتختلف باختلاف الصنعة ولكنها كانت عادة سبع سنوات .

ما الأجير المياوم، فلم يكن مرتبطاً بسيد أو معلم واحد، بل كان في امكانه ان ينتقل من سيد إلى سيد حسب رغبته . وكان ينال اجراً من سيده ولكنه يسكن في بيته الخاص ، على انه كان يتابع تحسين عمله وكسب المهارة، وكل أجير مياوم كان عليه أن ينجز عملاً فائق الاتقان قبل أن يحق له لقب « أستاذ » أو « سيد » كما كان يطلب في القرون الوسطى إلى المرشحين لنيل الشهادات الجامعية كتابة رسالة قبل نيلهم الشهادة ، وبعد أن ينال لقب « أستاذ » يعتبر تعلمه قد تم ويستطيع أن يبدأ عملاً خاصاً به حالما يتوفر له رأس المال .

الطرائق :

لم تستخدم هذه المدارس أية طريقة جديدة . ففي مدارس « الانشاد » أو « الترتيل » ومدارس الطبقة الوسطى ومدارس النقابات كانت الطريقة تشبه كثيراً الطريقة التي استعملت في مدارس الرهبان ومدارس الأبرشيات . فكانت طريقة التتلمذ شبيهة بطريقة المثال والتقليد والممارسة . أما النظام والانضباط فلم يكونا أقل شدة من المدارس الأخرى في القرون الوسطى . و « الأساتذة » كانوا قساة وصارمين في معاملة المبتدئين .

مراجع الفصل السادس

1. Aymard, André et Auboyer, Jeanine; Histoire Générale des Civilisations, Tome II Rome et son Empire, Edition Oueidat, Beyrouth, 1964, pp. 614 - 616

2. Barnes, Harry Elmer; An Intellectual and Cultural History of the Western World, New York, Random House, 1937. pp. 326 - 440

3. Davidson, Thomas; A History of Education, New York, Charles Scribners' Sons, 1900. pp. 151 - 174

4. Encyclopedia International, New York, pp. 116 - 117, Vol. 3, Grolier 1973

5. Ibd. Vol. 14, pp. 90 - 91

6. Messenger, J. F; An Interpretive History of Eudcation, New York, The Macmillan Company, 1916, p. 78

7. Monroe, Paul; Text Book in the History of Education, New York, the Macmillan Company, 1922.

8. Robinson, James Harvey; Readings in European History, Vol. I

9. Shaw, Charles Gray; Trends of Civilization and Culture, New York, American Book Company, 1932.

10. Weber, Alfred; History of Philosophy, New York, Charles Scribner's Sons.

11. Wilds, Elemer, Harrison; The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. 1950,

الفصل السابع

مفهوم التربية عند العرب

أو

تطبيق المعرفة العلمية

على الرغم من أن الحركة التربوية العربية قد عاصرت باقي حركات القرون الوسطى فان مفهوم العرب للتربية اختلف اختلافاً بيناً عن مفهوم التربية المسيحية في تلك القرون .

وكان لهذا المفهوم أثر بالغ الأهمية فيما بعد ، واننا لا نجد في تاريخ الفكر التربوي فصلاً أمتع واكثر روعة من الفصول التي سجلت منجزات الحضارة العربية وازدهارها ، خاصة في الأندلس . فهذه الحضارة بمصادرها لم تكن ظاهرة مهمة بحد ذاتها فحسب ، بل انها قدمت خدمات جلى إلى العالم الحديث ، على الرغم من أن بعض العوامل كانت في كثير من الأحيان تمنع الاعتراف بهذه الخدمات .

لقد تميزت الحضارة العربية في الأندلس ، بصورة خاصة ، باختلافها عن الظروف والأحوال التي كانت سائدة في سائر بلدان أوروبا . فحين كانت الأندلس العربية متقدمة جداً كانت أوروبا المسيحية لا تزال متخلفة بسبب النزعات القامعة الموروثة من العصور المظلمة ، ولم تكن الدروس الدنيوية قد حلت محل الدروس الإلهية بعد . فكان على العرب ، والحالة هكذا ، مسؤولية المحافظة على العلوم القديمة من حيث المادة والروح ، ويعود إليهم الفضل الكثير في اخراج أوروبا من العصور المظلمة .

لم يحافظ العرب على العلوم اليونانية فحسب ، بل هذبوها واضافوا اليها الكثير وتكمن عظمتهم في قدرتهم على هضم أفضل ما عند الشعوب التي احتكوا بها من أرث حضاري فكري

وتكييفه ثم استخدامه لمقتضيات حاجاتهم العملية . فأخذوا العلوم الرياضية والطبية من العالم الهليني ، وأخذوا نظام الترقيم والحساب والجبر من الهنود ، وطوروا العلوم العملية والميكانيكية ، وأنشأوا مدنية لم يعد فيها العلم ، قصة اسطورية ، بل طبق على الفنون والحرف والصناعات اليومية ، وبعبارة أخرى لقد سخروا العلم لخدمة الإنسان مباشرة في حياته اليومية . والعالم مدين لهم في بدء روح البحث والتجربة العلمية التي استطاع الإنسان بواسطتها أن يوسع حدود سلطته على الطبيعة ، وفي اكتشاف الأدوات العلمية وتحسينها . لقد ترك العرب أثراً عظيماً على أوروبا الغربية في حقل الفكر الفلسفي ، نعم لم ينشىء العرب مذاهب فلسفية جديدة لكنهم هضموا الفلسفة اليونانية ووسعوها ، وبفضلهم اهتم العلماء المسيحيون باحياء علوم أرسطو ومنطقه . وعن طريق الأندلس العربي اطلع الغرب المسيحي ، لأول مرة وبصورة كاملة ، على كتابات أرسطو .

لقد كانت اسبانيا ، في عهد العرب ، مركز العالم الثقافي في القرنين العاشر والحادي عشر ، على الرغم من أن بذور هذه الثقافة قد غرست منذ بضع قرون بين شعب بسيط غير متعلم مشتت في صحراء البلاد العربية . هذه البذور كانت الإسلام . أما قصة نموه وانتشاره فهي من أدهش وأروع الحركات في التاريخ . فمن هم العرب ؟ وما هو تاريخ حضارتهم ؟ وما هي قصة هذه الحركة العظيمة ؟ .

من الصحراء العربية ، أرض الرعاة ، والموطن الأصلي للشعوب السامية نزحت منذ أقدم الأزمنة موجات متتالية من هؤلاء الرعاة إلى الشمال والشرق والغرب نحو الأراضي الخصبة في مصر وبلاد ما بين النهرين وشاطىء البحر الأبيض المتوسط . وكانت الممالك العظيمة كمصر ، وفارس ومكدونيا وروما وبيزنطيا ، كل بدورها ، تحاول السيطرة ، إلى درجة ما ، على القبائل في الصحراء العربية . فكان ينهض من وقت لآخر زعيم أو حاكم عربي فيحقق بعض الاستقلال للمدن التجارية الكبرى ، كتدمر ومكة والمدينة .

بدأت الحركة التربوية الإسلامية في مكة والمدينة ، ففي مكة ولد محمد (صلعم) (٥٧٠ — ٦٣٢م) مؤسس الإسلام . وتمت الهجرة إلى المدينة عام ٦٢٢م فسجلت بدء سلطته . وقد بدأت التربية العربية رسمياً عام (٦٥٠م) أي بعد مرور ثماني عشرة سنة على وفاة النبي (صلعم) ، أما المدرسة فقد بدأت مع ظهور الإسلام . وذلك بأن النبي محمد (صلعم) كان يلقن أصحابه وأتباعه القرآن الكريم . ثم أخذ من حفظه يعلمه لغيره من معتنقي الدين الجديد ، ولا سيما بعد أن كثر العدد ، ولم يعد في وسع الرسول وحده أن يقوم بهذا العمل . وحينما هاجر الرسول (صلعم) من مكة إلى المدينة أمر بعض أصحابه بتعليم الناس القرآن الكريم ومنهم عبادة بن الصامت ، ومصعب بن عمير بن هاشم ، ثم بعث فريقاً ممن حفظ القرآن الكريم إلى الجهات ليعلموه الى القبائل والحضر ، ومنهم عناب بن أسيد في مكة بعد فتحها ، ومعاذ بن جبل في اليمن

بعد فتحها . [1]

أما الكتابة فقد تولى تعليمها كثيرون من الرجال والنساء ، منهم عبد الله بن سعيد بن العاصي الذي كان كاتباً محسناً ، ومنهم الشفاء أم سليمان بن أبي حفصة علمت حفصة بنت عمر بن الخطاب الكتابة وكانت حفصة زوجاً للرسول (صلعم) [2]

وهكذا نجد أن محمداً (صلعم) قد فتح أول مدرسة في الإسلام ، بعد ان انتصر في غزوة بدر ووقع في قبضة أسره عدد من رجال قريش ، فقرر امكانية افتداء الأسير نفسه إذا علم عشرة من المسلمين الأميين أو أولادهم القراءة والكتابة [3] .

وقد بلغت النهضة التربوية أوجها في اسبانيا في المائة سنة التي سبقت عام ١٠٥٠م عندما هاجر المفكرون المسلمون إلى الأندلس هرباً من الاضطهاد في بغداد ودمشق وغيرهما من المراكز الفكرية ولجأوا إلى افريقيا الشمالية واسبانيا .

وقد توقفت هذه النهضة حوالي سنة ١٢٥٠م عندما طرد العلماء المسلمون من اسبانيا بعد سقوطها بأيدي الجيوش الأوروبية الزاحفة من الشمال .

لقد كان العرب سريعي الاقتباس فتأثروا بالشعوب المثقفة التي احتكوا بها اما عن طريق السفر أو عن طريق احتلال بلادها ، واخضاعهم لسلطتهم . وأخذ العلماء الإسلام يترجمون إلى العربية العلوم اليونانية في الرياضيات والفلسفة والطب كما أخذوا أيضاً الرياضيات عن الهنود ، وأنشأوا مكتبات عظيمة في بلاطات الخلفاء ، وأتوا بالعلماء والفلاسفة والشعراء والأطباء والرياضيين من البلدان المحتلة ليكونوا بالقرب من البلاط ، وما ان جاء القرن العاشر حتى أنشئت في بغداد وبصرى وبخارى والقاهرة ودلهي وغيرها مدارس تزاحم مدارس سوريا .

ومن أبرز علماء العرب إبن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧م) وهو من أصل فارسي وقد اشتهر في أوروبا كطبيب وكمفسر لأرسطو وواضع نظام الطب . وقامت في عهده جماعة « اخوان الصفا » ونشرت رسائلها التي تعتبر ابحاثها منهاجاً كاملاً للتعليم العالي .

ويجدر بنا هنا أن نشير بايجاز إلى نشأة المدارس وسير التربية عند العرب لكي نكوّن فكرة واضحة عن الدور العظيم الذي قام به العرب في خدمة الإنسانية وتنويرها ابان عصور الجهل والظلام ، بما قدموه من حضارة وعلم وأدب وتراث انساني كريم .

---

(١) تخريج الدلالات السمعية ، للخزامي ص ٤٤ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه من ص ٤٧ وما بعد .

(٣) راجع غزوة بدر في كتب السيرة والتاريخ .

رأينا في مطلع البحث ان الحركة التربوية الإسلامية العربية بدأت في مكة المكرمة والمدينة المنورة مع ظهور الإسلام . وانه لم يكن للعرب قبل الإسلام مدارس ولم يعرف القراءة والكتابة إلا القليل من أهل الجاهلية على الرغم من قرضهم الشعر ولفظه وروايته ، وما ان ظهر الإسلام وأنزل القرآن الكريم حتى أصبح لزاماً على العرب تعلم القراءة للتمكن من قراءة الكتاب ، وهكذا بدأ فن القراءة في حوالي منتصف القرن السابع للميلاد [٤] .

نشأة المدارس :

كلما التقى عربي يعرف القراءة بعربي آخر لا يعرفها ولكنه يحب أن يتعلم علمه إياها ، لا فرق أفي بيت كان أم تحت شجرة أم خيمة . لقد أقام المسلمون منذ أول عهد الإسلام بيتاً للعبادة والصلاة ، وكان هذا البيت مركزاً للقراءة والتثقيف أيضاً . وهكذا نجد المسجد ، بيت الله ، يقدم خدماته للتعليم وأصبح كأنه مدرسة لتثقيف أبناء المسلمين ، وهكذا نشأت المدارس في المساجد في أول عهد الإسلام في القرن الأول للهجرة . وقامت في العهد الأموي بالاضافة إلى هذا النوع من المدارس بعض المدارس الملحقة بالبلاط لتعليم الأمراء . بيد ان الأمويين كانوا منصرفين إلى توطيد حكمهم وتعميم اللغة العربية في دواوين الحكومة لتحل محل اليونانية والسريانية في سوريا ، والقبطية في مصر والأرامية والفارسية في بلاد ما بين النهرين وفارس ، أو إلى تأمين الاستقرار فلم يبق لديهم الوقت الكافي للاهتمام بشؤون التعليم والمدارس [٥] .

أما في عهد العباسيين فقد اختلف الأمر وشهد العرب في هذا العهد عصرهم الذهبي من حيث الثروة والقوة والنفوذ والعلم والحضارة ، فعندما كان « شارلمان » يتعلم الأحرف مع أولاد النبلاء في مدرسة البلاط ، كان المأمون يدرس الفلسفة في بغداد ويناقشها ، وعندما لم يكن لمعظم الأولاد الأوروبيين مدارس يتعلمون فيها كان أولاد العرب يتمتعون بعلم وافر ومدارس مزدهرة .

كان العرب في أول عهد العباسيين يتعطشون للمعرفة وينهلونها من أقرب الموارد ، فكانت مجالس العلم ومجالس الأدب تقوم بمثابة صفوف يؤمها التلاميذ ويكافأون على تفوقهم . أما المدارس فكانت تقوم في المساجد والكتاتيب والبيوت الخاصة وأحياناً في الدكاكين . وكانت ظاهرة الحاق المدارس بالمساجد منتشرة كما رأينا في كل العالم الإسلامي ، وكانت هذه المساجد متوافرة بكثرة في المدن كما يوجد واحد على الأقل في كل قرية . ويقول اليعقوبي ان بغداد

---

(٤) طوطح ، خليل ؛ **Totah, Khalil A**; The Contribution of the Arabs to Education, Teachers College Columbia University: Contributions to Education, Bureau of Publications, New York, 1926, p. 12.

(٥) طوطح ، المرجع نفسه ص ١٤ .

ضمت في القرن التاسع ثلاثين الف مسجد ، ويجب أن نذكر هنا ان كل مسجد كان يضم مدرسة.[٦] وبالاضافة إلى المساجد والمدارس الملحقة بها ، كانت الكتاتيب تقوم مقام مدرسة ابتدائية . وقد ذكر الأغاني في القرن التاسع للميلاد « الكتّاب » والمكتب « والكتاتيب » ، في الكوفة كما استعمل الجاحظ ، الذي عاش في القرن التاسع للميلاد « الكُتّاب » ليعني المدرسة . ويقال ان الخليفة المعتصم قد درس في « الكتاب » كما أشار كتاب آخرون أمثال ياقوت ، إلى هذه المدارس الابتدائية ومعلميها [٧] .

وجرى التعليم أيضاً في بيوت خاصة ودكاكين مما اكمل عمل المساجد والكتاتيب . ويقال ان اسحق بن عمار علم الشعر في بيت عيسى ، وعلم اسماعيل بن حسين في بيت خاص « منزل » . كما لقن أبو العتاهية الشعر في دكانه أو فاخورته حيث كان التلاميذ يفدون اليه فيقرأ عليهم أشعاره ويدونونها على قطع الفخار المكسورة .

ولم يقتصر تدريس العلوم على المساجد والمدارس والزوايا والتكايا والرباطات والخانقاهات والبيمارستانات بل تعداها إلى القصور . جاء في كتاب الذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام (ص ١٨٦) خلال ترجمة الموفق : « صحبته منذ أعوام ، أيام اختلافنا إلى (الزاهرة) واذ تلك المواطن قائمة غير داثرة ، وبالنور من آل عامر عامرة ، وكنا كثيراً ما نتدارس ضروب العلم : من أدب وخبر وفقه وطب وصنعة وحكمة » .

ولم يكن التعليم في عهد العباسيين مقتصراً على المستوى الابتدائي فقد أنشأ المأمون عام ٨٣٠م بيت الحكمة كمعهد رسمي للتعليم العالي ومكتبة للترجمة والبحث العلمي وأوفد رسلا إلى بيزنطيا لابتياع الكتب القديمة في الحقلين العلمي والفلسفي . وقد أمر جماعة من العلماء « بترجمتها وكان من بين هذه الجماعة أسماء مشهورة مثل يحيى بن ماسويه الذي عينه المأمون رئيساً للمعهد الجديد ، ومثل الحجاج بن مطر ويحي بن البطريق وسلما الذي وصفه الفهرست بكونه أمين بيت الحكمة » .

لكن أبرز من لمع في تاريخ ترجمة الفلسفة والعلوم اليونانية كان حنين بن اسحق (٨٠٩ — ٨٧٣م) تلميذ وزميل يحي بن ماسويه . وقد وضع حنين فن الترجمة العربية على أسس علمية ، ولا شك انه يعتبر من أهم شخصيات عصر المأمون [٨]

---

(٦) طوطح ، المرجع نفسه ص ١٥ .

(٧) طوطح ، المرجع السابق ص ص ١٦ .

(8) **Fakhry, Majid ; A History of Islamic Philosophy, Columbia University Press, New York & London, 1970, pp. 24 - 25**

ويذكر ابن النديم ان سلما « أمين بيت الحكمة » انتدبه الخليفة للذهاب إلى بلاد اليونان بقصد ترجمة كتبهم إلى العربية . ويبدو انه كان رياضياً لأنه اختير لتفسير كتاب « المجسطي » لبطليموس . وكان هذا المعهد يضم مكتبة ضخمة تفتخر بأن القيم عليها كان الرياضي والفلكي المشهور الخوارزمي الذي لا تزال رسالته في الجبر معروفة حتى اليوم . ولا ريب في ان معهداً على رأسه عالم رياضي يفسر « بطليموس » ويدير مكتبته عالم رياضي آخر كالخوارزمي يعتبر معهداً بالمعنى الحديث اليوم [٩]

ولكي نلقي ضوءاً على حركة التعليم في القرنين التاسع والعاشر للميلاد عند العرب يكفينا أن نذكر بعض الأسماء التي لمعت في حقول المعرفة المختلفة ، كأبي النواس وأبي العتاهية بين الشعراء ، واليعقوبي والمسعودي والطبري بين المؤرخين ، والكسائي وسيبويه بين المعلمين والنحويين . وقد أم العلماء والباحثون معاهد العلم العالية في بغداد من كل صوب للاشتراك في النقاش والمناظرة وكثيراً ما كانت تجري هذه بحضور الأمراء والخلفاء . لقد كان الشوق إلى العلم عظيماً فكثر الإقبال عليه وكثرت الترجمة إلى العربية من الفارسية والسريانية وبصورة خاصة اليونانية . وقد ذكر جرجي زيدان بعض الكتب التي ترجمت إلى العربية في عصر النهضة هذه ، فكانت ثمانية كتب لأفلاطون ، وتسعة عشر كتاباً لأرسطو ، وعشرة كتب لابقراط ، وعشرين كتاباً لجالينوس ، بالاضافة إلى كتب اقليدس وأرخميدس وبطليموس وسواهم [١٠]

وما دمنا في صدد بحث التعليم العالي عند العرب تجدر بنا الاشارة إلى بعض أهم هذه المعاهد.

بيت الحكمة :

لا ريب في ان بيت الحكمة، وقد أتينا على ذكره سابقاً ، كان أول معهد علمي للتعليم العالي عند العرب ، فقد أسسه المأمون في بغداد في الثلث الأول من القرن التاسع (٨٣٠م) وانتدب لرئاسته يحي بن ماسويه .

ونستطيع أن نقدر قيمة هذا المعهد إذا ما عرفنا قدر الأساتذة الذين علموا فيه ، فيحي بن ماسويه رئيسه الأول ، أستاذ يحي بن اسحق ومؤلف عدة كتب اكثرها في الطب [١١] ، وسلما امينه رياضي معروف وقد كلفه المأمون ترجمة بعض الكتب اليونانية إلى العربية ، والخوارزمي العالم الفلكي والرياضي المشهور كان من أساتذته وأمين مكتبته . وكان منهاجه

---

(٩) طوطح ، المرجع السابق ، ص ١٦ — ١٧ .

(١٠) زيدان ، جرجي ؛ تاريخ التمدن الاسلامي ، دار الهلال ، المجلد الثالث ص ١٤٦ القاهرة (١٩٢٠) .

(١١) فخري ، المرجع السابق ص (١٩) .

يضم الهندسة والفلك ومؤلفات بطليموس في « المجسطي » واقليدس في الرياضيات والمنطق [١٢] ويضم مكتبة غنية ومرصداً فلكياً عظيماً . فبيت الحكمة يحمل بحق شرف تسميته أول معهد عال في القرون الوسطى والحديثة . فقد حمل مشعل التعليم العالي والبحث والترجمة زمناً طويلا قبل جامعات « بولونيا » و « باريس » و « براغ » و « اكسفورد » و « كامبردج » .

وقد شق من هذا المعهد ، المأمون واسحق بن حنين ويحي بن ماسويه وسلما والخوارزمي وغيرهم من العلماء ، طريقاً جديداً اتبعه في ما بعد وسار فيه « بترارك » و« دانتي » و« اراسموس » وعلى هذا وجب شكر العرب من أجل حضارتهم التي فتحت الطريق أمام «النهضة الأوروبية»[١٣]

الأزهر :

أسس الأزهر في القرن التاسع للميلاد ، أي بعد بيت الحكمة وهو اليوم أقدم جامعة اسلامية عاملة في العالم كما انه أقدم جامعة في العالم اطلاقاً ، ان شهرته التاريخية والعالمية كمعهد رفيع للعلوم الدينية والعربية تغنينا عن الخوض في بحث مفصل عنه . وقد أمه ، منذ تأسيسه ، الطلاب من كل أنحاء العالم الإسلامي لينصرفوا إلى الدرس فيه . وقد جاء في كتاب تاريخ التربية الإسلامية للدكتور أحمد شبلي ما يلي [١٤] :

« ..... وفي الأزهر يجتمع جمهرة من الطلاب ، قدموا من البلاد المختلفة في العالم الإسلامي ، ابتداءً من الساحل الذهبي حتى جزر الملايو ، وقد حدد رواق خاص لكل قطر من الأقطار ، ويتلقى الطلاب دروسهم من شيوخ أجلاء ورعين ..... »

« ..... وليس التعليم بالمجان فحسب ، بل ان الطلاب يتلقون جرايات وأطعمة من أوقاف معينة تسد حاجاتهم ، فالأزهر مثل نموذجي لمجانية التعليم ، تلك المجانية الممنوحة لجميع الطلاب على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم من غير أي تمييز لعنصر أو طبقة من الطلاب ..... »

« ..... هكذا كان الأزهر منذ الف عام ولا يزال كذلك حتى اليوم ، ولا تزال جموع الطلاب تؤمه من كل حدب وقطر فتتلقى العلم والعون المالي ، وكثيراً ما استقبل الأزهر طلاباً معوزين لم يكن لهم لفقرهم ملجأ علمي سواه فكان لهم كالأب البار والأم الرؤوم ، رباهم وعلمهم ، وفيه بدأت عبقرياتهم تبرز وأخلاقهم القومية تلمع ؛ ثم القى بهم الأزهر إلى المجتمعات حيث أخذوا أهبتهم وأصبحوا في ما بعد قادة ومصلحين » .

---

(١٢) ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ص ٤٤١ « ليبزغ » ١٩٠٣ .

(١٣) طوطح ، المرجع السابق ص . ٢٨-٢٩ .

(١٤) شبلي ، أحمد ، تاريخ التربية الاسلامية – دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ص ٢٨٣ بيروت ١٩٥٤ .

دار العلم :

دار العلم أو دار الحكمة كما يسمى أيضاً وقد انشيء على شاطىء النيل شبيهاً بشقيقه بيت الحكمة على شاطىء دجلة . كان الفاطميون في مصر ينافسون العباسيين في بغداد في السياسة والعلم . وما كان انشاؤهم لدار الحكمة إلا نموذجاً على هذا التنافس . فقد أسسه الحاكم في مطلع القرن الحادي عشر وأستمر حتى نهاية العهد الفاطمي أي بعد حوالي قرن وربع قرن .

يقول المقريزي (١٥) ان منهاجه كان يضم الفلك والطب والقواعد وفقه اللغة كما يضم مكتبة ضخمة تفتح أبوابها للشعب للدرس والمطالعة والنسخ والافادة منها بصورة عامة .

ومما دل على اهتمام الحاكم بهذه الدار وتشجيعه لها دعوته اساتذة الرياضيات والمنطق والفقه والطب إلى القصر للبحث والنقاش . وكان ينعم عليهم في النهاية « بالخلع » الثمينة .

المدرسة النظامية :

أسسها نظام الملك وزير السلطان الب ارسلان وولده ملكشاه سنة ١٠٦٥م واستمرت عدة قرون . ويبدو ان منهاج هذه المدرسة كان دينياً لا علمياً لأنه لم يؤت فيه على ذكر الطب أو الفلك أو الرياضيات كما كانت الحال في بيت الحكمة . بل نجد ذكر النحو وعلم الكلام والفقه . وان أسماء الأساتذة الذين علموا فيها أمثال ابو اسحق الشيرازي والغزالي وغيرهما لا تشير إل أن العلم التطبيقي كان من بين الموضوعات التي ضمها منهاجها . كما ان مؤسسها لم يكن من أنصار البحث العلمي (١٦) .

على أن النظامية كانت أول مؤسسة هيأت للطلاب أسباب العيش ، وأصبحت مثالاً يحتذى لاكثر المؤسسات . كان الطلاب يتناولون الطعام فيها وتجرى على كثير منهم رواتب سنوية . كذلك خصصت الرواتب السنوية للاساتذة والمعلمين . وهكذا بدأ التعليم في هذا القرن يصبح من وظائف الدولة ، تشرف عليه وتموله . وكان الخليفة يصدر موافقته بتعيين الأساتذة . وكان الأستاذ يلقي محاضرته يعاونه معيدان ، فيقوم المعيد بتلاوة المحاضرة نفسها بعد انتهاء الدرس لايضاحها لمن لم يفهم من الطلاب .

قال ابن جبير الرحالة بأنه حضر محاضرة أثر صلاة العصر لفقيه المدرسة ، فصعد الأستاذ وخطب ثم دفعت اليه عدة رقاع كتبت عليها أسئلة فراح يجيب عنها حتى المساء .

---

(١٥) ابن المقريزي ، المجلد الثاني ص ٣١٣ – ٣٣٤ – الخطه القاهرة ١٩٠٦ .

(١٦) طوطح ، المرجع السابق ص (٣٢) .

لقد قام الغزالي بالتدريس في هذه المدرسة مدة أربع سنوات . ورسخ نظريته بأن هدف التربية ليس ادخال المعرفة إلى العقل فحسب بل تحريك الشعور الاخلاقي عند الطالب .

المدرسة المستنصرية :

بناها المستنصر سنة ١٢٣٤م فجهزها بالحمامات والمطابخ ، وبمستشفى ودار للكتب وقد زارها ابن بطوطة الرحالة عام ١٣٢٧م . وكان في بغداد ثلاثون مدرسة وفي دمشق عشرون وفي الموصل ست وفي حمص واحدة .

انتشار المدارس :

وبين يدينا احصاء مدهش لعدد المدارس التي كانت في دمشق وحدها خلال القرن العاشر الهجري، خلفه لنا « النعيمي » في كتابه الضخم : « الدارس في تاريخ المدارس » جاء فيه :[١٧]

العدد	الاختصاص
٧	مدارس القرآن الكريم
١٦	مدرسة لتعليم الحديث الشريف
٣	مدارس لتعليمهما معاً (أي القرآن الكريم والحديث الشريف)
٦٣	مدرسة لتعليم الفقه الشافعي
٥٢	مدرسة لتعليم الفقه الحنفي
٤	مدارس لتعليم الفقه المالكي
١١	مدرسة لتعليم الفقه الحنبلي
٣	مدارس لتعليم الطب
٢٩	خانقاه [١٨]

(١٧) طبعه المجمع العلمي في دمشق في مجلدين وحققه الأمير جعفر الحسين الجزائري .

(١٨) الخانقاه : الدار التي يجتمع فيها الصوفية ، وكانت للعبادة والعلم معاً .

٢١	رباطا [١٩]
٢٦	زاوية [٢٠]
٣١	جامعاً شهيراً
٢٦٦	المجموع

وأنشأت الدولة على يدي نظام الملك مدارس على غرار المدرسة النظامية بالاضافة إلى بغداد في نيسابور وبلخ وهرات واصفهان ومرو والبصرة والموصل ، ومنحتها المخصصات والأراضي ، ويقدر انه كان ينفق سنوياً على التعليم في المؤسسات التعليمية والدينية مبالغ طائلة تقدر بملايين الليرات بعملتنا الحاضرة . [٢١]

يمكننا أن نلخص بأن التربية عند العرب ، مرت في مرحلتين : الأولى مرحلة النمو الطبيعي السريع من شيء قليل ، في الربع الأول من القرن السابع للميلاد ، إلى نمو هائل في القرنين التاسع والعاشر للميلاد . والمرحلة الثانية بدأت في القرن الحادي عشر للميلاد عندما أصبحت المدارس مؤسسات حكومية وأصبح التعليم من خصائص الدولة . أما القرنان الثاني عشر والثالث عشر فقد شهدا نمواً كبيراً في انشاء المدارس في انحاء العالم العربي ، وقد لعب خريجو هذه المدارس دوراً مهماً في شؤون الدولة والبلاد إذ كان منهم الكتاب والقضاة والمعلمون والموظفون .

كان عدد المدارس كبيراً جداً وكانت المدارس والكليات والجامعات والمعاهد من كل الأنواع ، موزعة في جميع أنحاء العالم العربي في المشرق والمغرب ، من كردستان إلى العراق فسوريا وفلسطين ومصر وشمالي افريقيا وصقلية والأندلس (اسبانيا) وكانت أفضل المدارس في العواصم لكن المدن والقرى لم تحرم من مدارس كافية وجيدة . وهكذا كان بامكان كل من شاء دخول المدرسة وطلب العلم أن يفعل ذلك . ومن المميزات التي اشتهر بها العرب انهم أسسوا هذه المدارس على أسس مالية سليمة بحيث أمنوا استمرارها . فكلما انشأوا مدرسة خصصوا لها أوقافاً تضمن لها دخلاً دائماً يؤمن نفقاتها : فقد خصص صلاح الدين « المدرسة السيوفية في

---

(١٩) في الأصل هي الثكنة العسكرية ، غير انه لما كان الجهاد فرض في بعض الأحوال ، لذلك كان يأوي اليه بعض المتطوعين من الأتقياء والعلماء والقضاة ، فاصبح داراً لإيواء المجاهدين من جهة ولدراسة العلوم من جهة أخرى .

(٢٠) الزاوية : مكان يأوي اليه الفقراء ويتلقون فيه بعض العلوم .

(٢١) زيدان ، جرجي . المرجع السابق ص ١٩٥ .

القـــاهرة » باثنين وثلاثين مخزناً ، كما خصص الصلاحيـــة في القدس بشارع كامل . وخصص لمدرسة في « حصن الأكراد » في سوريا سدس الضرائب التي كانت تجبى من المدينة كمعونة دائمة لهذه المدرسة[٢٢] . ويقول ابن جبير انه كان في بغداد ثلاثون مدرسة كلها مخصصة بأراض وأملاك يعود ايرادها لدفع رواتب الأساتذة ومخصصات التلاميذ [٢٣] وكثيراً ما وقفت السيدات والأميرات عقارات وأملاكاً على المدارس ، وفعل مثل ذلك تجار وقضاة ووزراء وامراء وسلاطين .

وهكذا تأمنت بهذه الطريقة المنح المدرسية للذين تعطشوا إلى العلم فعبوا من معين لا ينضب.

المنهاج :

كان المنهاج يدور إلى مدى بعيد حول القرآن الكريم ويستوحي منه الكثير . وسندرس المنهاج الذي سارت عليه هذه المدارس تحت ثلاثة عناوين : المنهاج الابتدائي ، والمنهاج الحر (الثانوي) والمنهاج العلمي (العالي) .

المنهاج الابتدائي :

يدخل الولد حوالي السن السابعة « الكُتّاب » أي المدرسة الابتدائية ، حيث يحفظ القرآن الكريم وينهيه حوالي التاسعة من عمره . وعليه أن يحفظ ذلك ويرتله بدقة في اللفظ ، وان ابسط خطأ يعرضه للرسوب . ولا يخفى ما يتطلب ذلك العمل من قوة ذاكرة ودقة وتدريب .

ويتضمن المنهاج الابتدائي درساً في الخط الذي توجه عناية خاصة لتعليمه . وإلى جانب ذلك كان الولد يحفظ الكثير من الشعر والأمثال التي كانت تستعمل كنماذج يستنسخها التلميذ لأجل تعلم الخط . وتضمن هذا المنهاج أيضاً مبادىء الحساب وتمتد الدراسة فيه سنتين أو ثلاثاً بعد انهاء القرآن الكريم ، يتابع خلالها التلميذ درس الحساب والقواعد والأدب واللغة والدين .

وهكذا نجد ان مدة الدراسة في المدرسة الابتدائية كانت تبتدىء في السابعة ، وتمتد حوالي خمس سنوات منتهية في الثانية عشرة من عمر الولد .

المنهاج الحر (الثانوي) :

وهذا هو القسم الرئيسي من المنهاج ونود تسميته « المنهاج الحر » [٢٤] كما يمكننا أن

---

(٢٢) طوطح ، المرجع السابق ص ٢٥ .

(٢٣) ابن جبير ، ص ٢٠٧ .

(٢٤) طوطح ، المرجع السابق ص (٥١) .

تسميه « منهاجاً دينياً » لأنه كان ككل مناهج التعليم في العالم في القرون الوسطى مشحوناً بالتعليم الديني . وبنظرنا اليوم ان منهاجاً دينياً من هذا النوع يمكن تسميته منهاجاً حراً « Liberal »، لأنه يؤمن ثقافة ثانوية عامة ، ولا يوجه نحو تعلم حرفة أو صنعة .

كان هذا المنهاج يشبه ، إلى حد بعيد ، المناهج الإنسانية المتبعة في المدارس الالمانية الثانوية اليوم أو مناهج الليسه الفرنسية أو المدرسة العامة الانكليزية اليـــوم . ويضم منهاج المدرسة العربية أو الكلية العربية المستوى نفسه الذي يطلب اليوم من منهاج البكالوريا الأوروبي ، فيضم الأدب و« الدين » و« المنطق » و« الحساب » و« الجبر » و« الهندسة » و« الفلك » ، بالاضافة إلى القرآن الكريم والفقه والشعر والتاريخ « والجدل » و « علم الكلام » والفيزياء والفلسفة .

وقد صنفت الدروس في المنهاج العربي في بابين رئيسيين ، كما صنفت الدروس في منهاج القرون الوسطى في أوروبا في بابين أيضاً « الثلاثي » أو « الثلاثيات » و« الرباعي» أو « الرباعيات » . أما البابان العربيان فهما « العلوم النقلية » (الحديث أو العلوم الإنسانية) و « العلوم العقلية » . ويضع ابن خلدون في الباب الأول أي العلوم النقلية : القواعد والتفسير والحديث والفقه ، ويضع في الباب الثاني ، أي العلوم العقلية : المنطق والعلوم الطبيعية والماتافيزيا (أي ما بعد الطبيعة) والموسيقى والحساب والهندسة والفلك ، لذلك سمينا هذا المنهاج حراً لأنه كان يضم الأدب والدين والرياضيات والفلسفة وبعض عناصر العلوم . هذا هو المنهاج الذي تمشت عليه المدارس العربية وقد قام بتدريسه أساتذة قديرون .

المنهاج العلمي (العالي) :

وقد ضم هذا المنهاج درس الطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات وعلم الفلك والفلسفة وما بعد الطبيعة والموسيقى ، وكان يقوم بتدريسه علماء معروفون وكان الطلاب يقصدون العالم (الأستاذ) للدرس عليه وليس المعهد أو المؤسسة ، ولم يعرف من المعاهد إلا بيت الحكمة في بغداد ودار العلم في القاهرة حيث نظمت هذه الدروس بمنهاج علمي متقن التنظيم . ومن مميزات التربية عند العرب انها لم تدر حول « معهد » بقدر ما دارت حول معلم [٢٥] . وقد قصد التلاميذ الأساتذة المشهورين للدرس عليهم ، وكانت الاجازة (الشهادة) تحمل اسم الأستاذ وليس اسم المعهد .

أما الطب فقد درّس في المستشفيات وتحت رعاية أطباء . وشجع درس الرياضيات وعلم الفلك ، يشهد على ذلك عدد المراصد التي أقيمت في « الشماسية » في بغداد وفي جبل « نيسون » في دمشق وجبل « المقطم » في القاهرة وفي القبة التي شيدت خصيصاً في اشبيليا لهذه الغاية [٢٦].

---

(٢٥) طوطح ، المرجع نفسه ص (٥٢–٥٣) .

(٢٦) ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص (٢١٩) ليبزغ .

الطرائق :

كانت طريقة الالقاء أو المحاضرة هي المتبعة في التدريس حيث يلقي الأستاذ المحاضرة على تلاميذه وهم يتحلقون حوله . ويأتي التلميذ والمعلم باللباس الأكاديمي الرسمي « الجبة والعمامة » وعلى المعلم أن يطبق بدقة أشد قواعد الوقار والنظافة والحشمة والسلوك ، فلا يمكنه أن يتساهل أو أن يخرج عن الرسميات . عليه أن يجلس مستقيماً دون أن ينحني أو يلف رجلاً على الأخرى أو يمزح أو يرفع صوته . عليه أن ينظر إلى عمله بجدية تامة ، ويطلب من التلميذ نفس السلوك والتصرف.

يجلس المعلم مستنداً إلى عمود الجامع أو المعهد ويجلس التلاميذ حوله بحلقة أو حلقات كل بيده كتاب مفتوح . يبدأ المعلم بدعاء قصير ثم يباشر بالقاء محاضرته ، فيقرأ ويفسر ويشرح ويطرح عليه التلاميذ الأسئلة ويدور نقاش بينهم وبين المعلم . ينتهي الدرس فيقوم كل من التلاميذ يقبل يد المعلم ثم يذهب بينما يبقى المعلم جالساً يقرأ . أو قد يجلس المعلم على منبر ويحيط به التلاميذ في حلقات ثم يبدأ محاضرته أو يقرأ ويفسر ويوجه اليه التلاميذ الأسئلة ويدور بينهم النقاش . وكثيراً ما يخالف التلميذ رأي استاذه ويجادله شرط أن يدافع عن وجهة نظره بتأدب وحشمة . وكان الأستاذ يتقبل ذلك لا بل يشجعه . وعلى الرغم من أن المعلم العربي كان يسيطر على عقل تلميذه إلا أن هذه السلطة كثيراً ما تحداها التلميذ ولجأ إلى تفكيره الخاص واستقلاله الفكري . وبهذا يؤكد المعلم العربي ضمناً اعترافه بجهله حين لا يستطيع أن يعرف الجواب عن سؤال ما — ..... « ان من يقول لا أعرف عندما لا يعرف قد بلغ نصف المعرفة » (٢٧)

الاملاء :

نظراً لعدم توافر الكتب قبل معرفة الطباعة ، كان على الأستاذ أن يملي محاضرته على الطلاب ببطء لكي يكتبوها ، وكانت ركبة التلميذ هي الطاولة التي يكتب عليها . ولما كانت عملية الاملاء هذه متعبة بالنسبة إلى الأستاذ كان له معيد أو اكثر يعاونه في ذلك . وقد وصف ابن بطوطة محاضرة شهدها تعطى في المدرسة المستنصرية في بغداد قال « جلس الأستاذ مرتدياً ملابسه السود ، وجلس عن يمينه معيد وآخر عن يساره ، يملي محاضرته على تلاميذه ويعيد من بعده المعيد مرة هذا ومرة ذاك » (٢٨)

وقد وصف ابن خلدون طريقة المربي في التعليم فجاء ت مشابهة كثيراً لطريقة التعليم المتبعة في أوروبا اليوم قال :

---

(٢٧) الجاحظ : البيان والتبيين ، الجزء الثاني ص (١٤٤) القاهرة .

(٢٨) ابن بطوطة ، ص ١٤١ القاهرة .

على المعلم :

١) أن يأتي على الموضوع بصورة عامة في البداية دون الدخول في التفاصيل .

٢) أن يعيد نفس الموضوع بشيء اكثر من التفصيل .

٣) أن ينهي الموضوع بالدقة المتناهية مفسراً وموضحاً كل نقطة وكل صعوبة .

وفيما يلي تفصيل هذه الخطوات [٢٩] :

« اعلم ان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيداً اذا كان على التدريج ، شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً ، يُلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب . ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه ، حتى ينتهي إلى آخر الفن ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم ، إلا انها جزئية وضعيفة . وغايتها انها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به إلى الفن ثانية ، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويستوفي الشرح والبيان ، ويخرج عن الاجمال ، ويذكر له ما هنالك من الخلافه ووجهه ، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا منغلقاً إلا وضحه وفتح له مقفلة ، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل في ثلاثة تكرارات . وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه . وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي ادركنا ، يجهلون طرق التعليم وافادته ، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ، ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه ، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله ، فيخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها وقبل أن يستعد لفهمها ، فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً ، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة ، إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالأمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً ، بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه ، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه ، حتى تتم الملكة في الاستعداد ، ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن » .

وكانت الطريقة العربية تعتمد كثيراً على تدريب الذاكرة وتقويتها وذلك بالاعادة والتكرار واستخدامها استخداماً وافراً . وقد قال أحد الكتاب عن طريقة التعليم ..... « ان ما تعلمه الولد بالأمس يجب أن يعاد خمس مرات ، وما تعلمه أول من أمس يجب أن يعاد اربع مرات ،

---

(٢٩) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠٣١ و ١٠٣٢ ، المجلد الأول ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٧ .

وما تعلمه قبل ذلك بيوم يجب أن يعاد ثلاث مرات [٣٠] .

ولم تهمل الطريقة العربية التفكير والتدريب عليه ، فأوصى المربون الأساتذة بأن يلقوا محاضراتهم ببطء لكي يفسحوا المجال أمام التلميذ للتفكير والتأمل . وقد ميز المعلمون العرب بين « الحفظ » والفهم في « عملية التعليم » وسموا « الفهم » أو « التمثل » ملكة (Faculty) وبرأيهم ان التلميذ لا يستطيع ان « يفهم » أو « يتمثل » المعرفة بالذاكرة الجيدة فقط ، ويظهر ضعفه هذا حالما يشترك في النقاش والجدل . ان مقدمة ابن خلدون حافلة بأمثلة عن ضرورة التعليم الذكي الواعي حيث يجب أن يطلب إلى التلميذ توجيه الأسئلة إلى الأستاذ والدخول في النقاش والجدل معه ومخالفته الرأي . ولا ريب في أن هذا النوع من التعليم يجب أن يعتمد على تدريب التفكير وتمرينه وتقويته . يقول « الزرنوجي » [٣١] « ان قيمة النقاش هي اكثر بكثير من الاعادة والتكرار » ثم يقول « : يجب أن يفكر التلميذ حتى حين يعالج أبسط أنواع المعرفة»، لأنه كما قيل : « فكر تفهم » . ثم يقول ان التأمل والتفكير والهدوء أمور ضرورية في النقاش ، تعادل شهراً من الاعادة .

وقد اكد المعلمون العرب في طريقتهم على الدقة فكانت من مميزات طريقتهم التي حققوها بوسائل شتى وأحياناً كانت هذه الوسائل ميكانيكية (آلية) . وقد اكد المربي الغزالي على الدقة في التعليم والعمل التحليلي الدقيق [٣٢] واكد الزرنوجي الدقة أيضاً بقوله « لا يجوز للعالم أن يترك كتاباً قبل أن ينهيه أو أن يبدأ موضوعاً جديداً قبل أن ينهي الموضوع الذي بين يديه » [٣٣].

يمكننا أن نقول بالخلاصة ان عيب طريقة التعليم العربية اهتمامها المبالغ فيه بتقوية الذاكرة ، بينما كانت حسناتها تقوية التفكير وتدريبه والتأكيد على الدقة المتناهية . ومن أفضل مميزات هذه الطريقة تمرين التلميذ على النقاش والجدل وطرح الأسئلة أو ربما أحياناً تحدي الأستاذ . ولا ريب في أن طريقة كهذه كانت مفيدة جداً للتلميذ والمعلم على السواء .

الآداب المدرسية :

لقد رافقت طريقة التعليم مجموعة من القوانين في الأداب والعادات تحدد سلوك المتعلم وعلاقته باستاذه كما تحدد سلوك الأستاذ وعلاقته بتلميذه . وأفضل ما كتب في هذا الباب ما كتبه الغزالي في « احياء علوم الدين » و « فاتحة العلوم » وخلاصته ما يلي [٣٤]

---

(٣٠) الزرنوجي : « تعليم المتعلمين » ص (٣٣) القاهرة ١٩١٦ .
(٣١) الزرنوجي : المرجع نفسه ص ١٣ ، و ٤٣ .
(٣٢) الغزالي : احياء علوم الدين – القاهرة ١٨٩٨ الجزء الأول ص ٤٧ .
(٣٣) الزرنوجي : المرجع السابق ص (١٩) .
(٣٤) طوطح : المرجع السابق ص ٦٣ .

١) ارفق بتلاميذك وعلمهم كما لو كانوا أولادك .

٢) احتذ مثال النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا تتقاضى اجراً على تعليمك .

٣) كن أميناً صادقاً مع تلاميذك ولا تدعهم يتقدمون لنيل شهاداتهم قبل أن يستكملوا استعدادهم لنيلها .

٤) وبخهم لسوء سلوكهم .

٥) لا تنتقد استاذاً زميلا لك أمام التلاميذ .

٦) لا تعلم التلميذ ما هو فوق طاقته وفهمه .

٧) مارس ما تعلم كي لا تكذب اعمالك أقوالك .

٨) واعلم ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم .

وقال الغزالي في العقاب ، يجب أن يمدح الولد ، ويُشجع حين يقوم بعمل جيد ، ويجب التغاضي عن هفوته الأولى ، ولكنه اذا ما كرر ذلك يجب توبيخه على انفراد ، ولا يجوز بأي حال اللجوء إلى التنكيل والتحقير كوسيلة لاصلاح التلميذ . والعلاج الأفضل بنظر الغزالي « هو ابعاد الولد عن قرناء السوء » .

لقد سمح بالعقاب البدني في مناسبات كثيرة ولكنه حظر على المعلمين استعمال بعض الأدوات لانزال العقاب البدني أو الاكثار منه بحيث يصاب التلميذ بأذى .

وكان على التلميذ الذي يعاقب أن يتحمل الألم برجولة ولا يجوز له أن يبكي أو أن يطلب وساطة الآخرين بل عليه أن يتذكر دوماً أن تحمل المشاق والآلام ، هو من مميزات الشجعان وشيم الأبطال أما البكاء فهو من شيم النساء .

وعلى الرغم من ازدهار الحضارة العربية في الشرق العربي فان الباحث في تاريخ الفكر التربوي يجد ان حضارة العرب في الأندلس كانت أبلغ أثراً ، ذلك لأن الفضل في اعادة الروح العلمية التي فقدتها اوروبا يعود إلى العرب ، وبخاصة في الأندلس ، وإلى الحضارة الرائعة التي أنشأوها في اسبانيا بعد ادخال العلوم الإسلامية الهللينية اليها . وقد سمى حكامهم أنفسهم حماة للعلم وأقاموا من حياتهم مثالاً للرقى لا يجاريه بشيء مثال حكام أوروبا المسيحيين . وكانت قصور الخلفاء مجهزة برخاء بينما كانت قصور حكام أوروبا قاحلة مظلمة . وكانت شوارع مدن قرطبة واشبيليا وغرناطة وطليطلة معبدة ومنورة بمصابيح بلدية قبل أن تعرف شوارع لندن هذه المصابيح بسبعماية سنة وقيل بعدة قرون ، وقبل أن يكون في امكان سكان باريس السير في شوارعها أيام المطر دون أن يغرقوا في الوحل حتى كواحل ارجلهم .

فلا غرو إذا ما قام نظام جيد للتعليم في حضارة راقية كهذه الحضارة ، وقد انتشرت هذه المدارس المنظمة ، لا بل التامة التنظيم ، كما رأينا في معظم المدن العربية ، وبصورة خاصة في كل أنحاء الأندلس فكان ذلك مثالاً رائعاً ومهماً للبلدان الأوروبية المسيحية .

نظرة العرب الى التربية

أهداف التربية :

كانت التربية بنظر العرب تعني البحث عن المعرفة العلمية وتطبيق الحقائق العلمية ، وفي الواقع ان العرب قدروا العلوم من أجل قيمتها الفكرية ووجدوا ، في ذلك ، لذة ورضا بالغين .

« لقد وجد العقل العربي لذة خاصة في تتبع العلوم الطبيعية ، وخيال العربي الواسع وحبه للخفايا والأسرار قد ساعداه على جعل قوى الطبيعة وحركاتها موضوع درس جذاب » (٣٥)

لكن الهدف الأول للتربية الإسلامية كان هدفاً عملياً . لقد عمل العرب على تنمية الفنون والحرف ، وكان قصدهم استخدام العلم لسد حاجاتهم وصنع المسائل العلمية واستخدامها في شؤونهم اليومية وحياتهم العملية . وهكذا استهدفت التربية العربية تمثل العلوم وتطويرها ليس من أجل العلوم فقط بل ، وبصورة خاصة ، من أجل الخدمات التي يمكن أن تقدمها العلوم لمختلف نشاطات الإنسان . لذلك لم يحتقر العربي العمل في المختبر بل قام بالأعمال والتجارب الطويلة المتعبة ، لأنه كان يسعى وراء نتائج عملية ، وكان يصنع المنتجات والسلع ليزيد حياته وحياة أخيه الإنسان ثراء ورخاء ، كان يستخرج الحقائق العلمية ويستخدمها لكي ينمي حضارته ويزيدها .

هنا نجد تربية يقوم العلم فيها بدور جديد ومهم ، فلم يعد العلم مجرد رياضة فكرية ، بل كان عليه أن يُستخدم في كل الفنون والحرف المفيدة . وكذلك القراءة لم تكن لمجرد تعلمها بل كانت ضرورية لكل رجل أعمال . أما تأكيد العرب على الفلسفة فكان نتيجة طبيعية لاهتمامهم بالعلوم التطبيقية . وقد استرعى ارسطو اهتمام العرب لأنه لم يترك ناحية من نواحي العالم الطبيعي أو عالم الإنسان لم يفكر بها ويكتب عنها . فكانت فلسفته موضوعية واقعية قابلة

(35) **Hungerford ; « The Rise of Arabic Learning », Atlantic Monthly, Vol, 58, p. 549**

للاستعمال المفيد . لقد اهتموا بالطب لأنه كان فناً عملياً وضرورياً للمحافظة على الحياة . أما الكيمياء فقد درسوها لأنها ضرورية للطب والصناعة ، ودرسوا الرياضيات لأنها ضرورية للميكانيك والصناعة والعلوم الأخرى ، حتى علم الفلك كان يدرس للاستعانة به في درس الجغرافية والملاحة ورحلات القوافل .

وكانت التربية العربية تربية حرة بأصدق معاني الكلمة ، لأنها كانت تستهدف تنمية المبادرة الفردية وخير المجتمع . وتبدأ التربية بالتعليم الديني بتحفيظ القرآن الكريم . ومن فضائل الإسلام التأكيد على اللطف والرقة ومراعاة الآخرين في الحياة اليومية ، وقد أوصى النبي محمد (صلعم) بأن جميع المسلمين اخوان ومتساوون في الايمان (إنما المؤمنون اخوة) . لم ينشىء الإسلام نظاماً كهنوتياً متدرجاً ونظام رهبنات كما فعلت المسيحية ، فهنالك العلماء والمعلمون والخطباء ، لذلك لم يُطلب التعمق في التعليم الديني إلا من أولئك الذين سيصبحون أساتذة للالهيـــات أو الفلسفة وهكذا لم يكن التعليم الديني عائقاً في سبيل حرية تربية الشباب .

لقد نجحت التربية العربية نجاحاً باهراً في تحقيق أهدافها العملية ، فأعدت رجال أعمال استطاعوا أن يحسنوا ظروف الحياة في كل ناحية ، فأعدوا نظاماً زراعياً وسنوا له القوانين وأدخلوا إلى أوروبا مزروعات جديدة مثل الأرز والسكر والقطن والسبانغ والعصفر (زعفران) والكثير من الثمار . واعتنوا أيضاً بتربية المواشي كالخيل والغنم والبقر والدواجن كما أدخلوا تربية دود القز وصناعة الحرير . وأدخلوا أيضاً نظام الري المتبع في مصر من سدود ومضخات ودواليب مائية . وصنعوا الورق والمنسوجات والأواني الخزفية والحديد والفولاذ مما جعل مدينة طليطله ذات شهرة عالمية كشهرة دمشق . وقد سميت أفضل أنواع الجلود بأسماء البلدان التي انتجتها كـ « قرطبة » و « مراكش » مثلاً . وأدخل المغاربة البارود واخترعوا المدافع وأنواعاً أخرى كثيرة من الأسلحة ، كما صنعوا « البوصلة » المعروفة بابرة الملاحين . وبفضل تفوقهم بالاختراع كانت مدن العرب وبيوتهم مجهزة بكثير من تسهيلات العيش والكماليات الترفيهية التي لم يحلم بها جيرانهم الأوروبيون . وقد استهدفت التربية تنمية الكثير من قدراتهم ومهاراتهم العملية التي كانت ضرورية للقيام بأعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية .

أنواع التربية :

اهتم العرب ، وفي الأندلس بصورة خاصة ، بالتربية المهنية اكثر من أي نوع آخر ، ولكن هذا النوع من التربية كان يعطى لأصحاب الحرف والصناعيين الماهرين . وكان يتضمن التعليم والتدريب . وكانت المهارات ، في هذا النوع من التربية ، تبنى على أساس معرفة الحقائق والمبادىء العلمية بدلاً من تقليد المهارات واقتباسها بطريقة التجربة والخطأ — وقد اختلف العرب ، بهذا الأسلوب ، الممتاز ، عن أي أسلوب آخر ، فجعلوا التدريب الفكري في العلوم

أساس التدريب المهني لأصحاب الحرف والصناعات . واهتموا أيضاً بالتعليم التجاري ، كما نجد عندهم مبادىء علم الاقتصاد كأساس للتجارة والصناعة .

ولم يدخل العرب في تربيتهم تعليم الفن لاعداد النحاتين والرسامين لأن صنع التماثيل البشرية كان محرماً دينياً ، ولكنهم ادخلوا تعليم الفن المعماري والحفر والنقش الفني ونقل التصاميم والتلوين مما أسفر عن تشييد أروع تُحف فن البناء ذات الشهرة العالمية قصر « الحمراء » . وقد تجلت أيضاً قابليتهم الفنية في صناعة النسيج والأواني الخزفية والمعدنية .[٣٦] والظاهر ان الإسلام لم يحرم التماثيل إلا خوفاً من عبادتها . ولهذا رأينا ان الشيخ محمد عبده قد افتى انه بعد ان زال هذا الخوف ، أصبح من الجائز اقامتها ، لما لها من غاية تثقيفية ، وقد نقل عباس محمود العقاد هذه الفتوى عنه . وذهب الامام جمال الدين القاسمي إلى مثل ذلك في موضوع التصوير . ويبدو ان هذا الخوف قد زال في الأندلس ، فأجازوا اقامة التماثيل في قصورهم ودورهم ، روى المقرّي في نفح الطيب [٣٧] :

« ... ان سبب بناء مدينة « الزهراء » هو ان الناصر كانت له جارية اسمها الزهراء ، وكان يحبها حباً شديداً ، فقالت له : « اشتهيت لو بنيت لي مدينة تسمى باسمي ، فبناها ... وأحكم الصنعة فيها ... ونقش صورتها على الباب »[٣٨] وأضاف : « وفي القصر الحوض المنقوش المذهب من الشام . وفيه نقوش وتماثيل وصور على صورة الإنسان . وأمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً »[٣٩]

أما التعليم الديني فقد اقتصر عادة على درس القرآن الكريم . ولا ريب في ان القراءة كانت مصدر بهجة وقد بلغت القصة منزلة رفيعة من التطور في الأدب العربي يثبت ذلك قصة الف ليلة وليلة . واشتهر العرب بنظم الشعر وبارتجاله ، وكل عربي تقريباً كان شاعراً ، كما ابدع العرب في الموسيقى والرقص ، على ان الرقص كان يترك عادة للعبيد .

وكان التعليم عاماً ومجانياً للجميع ، وان كان للاغنياء احياناً بعض الامتيازات التي لم تكن للفقراء . أما التعليم الابتدائي فقد كان مجانياً ومفتوحاً على السواء للبنين والبنات ولجميع الطبقات الاغنياء والفقراء ، وكذلك كان التعليم العالي ، وقد رأينا الاهتمام به والاقبال على انشاء معاهده ورعايتها . وكانت الدولة تؤمن مساعدات مالية للطلاب المتفوقين المحتاجين . ان هذه الحرية

---

(36) **Wilds, Elmer, Harrison**; The Foundations of Modern Education, pp. 215 - 217, New York, Rinehart & Company Inc. 1950.

(٣٧) نفح الطيب ، ـ٢ ص ١٢ .

(٣٨) نفس المرجع ص ٦٥ .

(٣٩) نفس المرجع ص ٧٧ .

وهذه المساواة في منح التعليم لجميع أبناء العرب كانت من أهم العوامل لنمو حضارة العرب بسرعة وروعة ، فقد انتشر التعليم بحيث امكن القول انه يستحيل أن يوجد عربي لا يعرف القراءة والكتابة .

المنهج :

كان منهج المدارس العربية من أتم المناهج التي عرفت حتى ذلك العصر وأدقها تنظيماً . فكان يتضمن منهج التعليم الابتدائي القراءة والكتابة والحساب والدين والقواعد والعلوم الابتدائية . أما في المراحل التي تلي مرحلة التعليم الابتدائي فقد ضم المنهج ، كما رأينا ، الجبر والهندسة والمثلثات والفيزياء والكيمياء والجغرافية والفلك وعلم التشريح والصيدلة والطب والجراحة وفقه اللغة والتاريخ والأداب والمنطق وما بعد الطبيعة « ماتافيزيكا » والقانون . وفي الحقيقة ان المنهج العربي كان يشمل كل المواضيع التي تدرس اليوم في المدارس الحديثة .

ان نظام التعليم الذي اقامه اخوان الصفا في مدينة البصرة على شط العرب والذي تضمنته رسائلهم كان رائعاً من حيث دقة اكتماله . فقد تضمن احدى وخمسين رسالة مبوبة في أربعة مواضيع : (١) ثلاث عشرة رسالة في المنطق (٢) سبع عشرة رسالة في العلوم الطبيعية (٣) عشر رسائل في ما بعد الطبيعة (ماتافيزيكا) (٤) احدى عشرة رسالة في اللاهوت (فلسفة الإلهيات) . وتستدعي هذه الرسائل اهتمامنا لأسباب عديدة : (١) انها تلخص أفضل ما انتجه الفكر خلال حقبه طويلة من الحضارة ، و (٢) تمتد جذورها إلى ماضي الإنسانية بجميع نواحيه كما تمتد فروعها إلى جميع نواحي مستقبل الفكر الإنساني . و(٣) انها شاملة تضم الطبيعة والروح وتبين ان منشأ الطبيعة هو من الروح . و (٤) تحاول جهدها التوفيق بين العقل والشريعة . و (٥) تبين للإنسان مكانه في العالم ومنشأه ومصيره وبالتالي واجبه . و(٦) تقدم منهاجاً للتربية تاماً يمكن من يتلقنه أن يعيش حياة عقلانية هادفة . ان هذا النظام التربوي كان سابقاً لعصره بعدة أجيال والعالم لم يكن مستعداً بعد لتفهمه .

لقد كان منهج التربية العربية في الأندلس غنياً جداً بموضوعاته علاوة على ان كل موضوع كان يتناول البحوث الواقعة في اطاره باسهاب ودقة مدهشين .

وكان العرب فخورين بلغتهم وكانوا يوجهون لها وللأدب العربي العناية الكافية في مدارسهم . أما فقه اللغة فقد كان موضوعاً بالغ الأهمية بالنسبة اليهم . فالفوا كتب النحو والمعاجم العظيمة وكان بعض هذه المعاجم يضم ستين مجلداً ويشرح كل كلمة بالتفصيل مع الصور والرسوم . وان اللغات الغربية مدينة إلى اللغة العربية بكثير من المفردات والأسماء الشائعة الاستعمال أمثال شراب وجلاب والاكسير وأميرال والكحول والسبانغ والكيمياء والجبر والقطن والشميز (قميص) ومئات غيرها . فقد تجمع لدى العرب مجموعات مهمة من الأدب

الرائع ، فكان على المدارس أن تدرسها كلها بالاضافة الى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة . وأول كُتّاب اشتهروا بين العرب كتبوا في حقل التاريخ والسيرة والقصة الرومانطقية والقصة القصيرة أما شعرهم فقد ضم كل الأشكال الحديثة من الشعر المعروفة اليوم .

وقد بنى العرب علومهم الرياضية على الأسس اليونانية والهندية . أما الحساب فقد تقدم تقدماً سريعاً بفضل العرب والأرقام التي ادخلوها اليه لتحل محل الأرقام الرومانية المعقدة . وكان الرياضيون العرب أول من استعمل الصفر وأدخل الكسور العشرية وأعطى للمنزلة قيمها العددية في الحساب . أما الجبر فهو من انتاج العرب ، وفي حقل المثلثات لم يزيدوا الكثير على اقليدس « Euclid » ، لكنهم طوروها واخترعوا الجيب « Sine » والمماس « Tangent » والظل « Co - Tangent » .

لقد استخدم العرب الرياضيات في درس الفيزياء والفلك وقاسوا محيط الأرض أي انهم وجدوا نصف قطر الكرة الأرضية وبالتالي حجمها ، كما قاسوا ميل المدار وتبادر الاعتدالين (Precession of the Equinoxes) . وقد استخدموا الرياضيات في ضبط القوى المادية كما فعلوا في علم السوائل المتحركة (Hydraulics) وقد اخترعوا الساعة ذات الرقاص (بندول) ، وتوصلوا إلى اكتشافـات مهمة في علم البصريات وبعض الفروع الأخرى في الفيزياء ، وفسروا انكسار الضوء والجاذبية ، والجاذبية الشعرية (Capillary Attraction) والغسق ، وغير ذلك من الظواهر الطبيعية . وبينما كان العلماء الغربيون والملاحون يعلنون ان الأرض مسطحة كان العرب يعلمون الجغرافية في مدارسهم بواسطة الخرائط الكرويه ويدرسون علم الفلك في المراصد . وقد صنعوا كثيراً من الأدوات الفلكية التي لا تزال قيد الاستعمال حتى الآن ، كما اضافوا معلومات عن الأجرام السماوية كانت في عصرها اسبق بكثير من كل ما كان يعرفه العالم الغربي في هذا الباب . وان قصة أحد المراصد الغربية في اسبانيا الذي حوله المسيحيون إلى برج بعد احتلال البلاد واخراج المسلمين منها لأنهم لم يعرفوا كيفية استعماله ، لا تزال مشهورة [٤٠] .

صحيح ان العرب أخذوا مبادىء علم الطب عن اليونان الا انهم اضافوا اليه الكثير . فقد دأبوا على درس الأمراض والغذاء والعقاقير ومختلف نواحي الفسيولوجيا وعلم الصحة بعمق واسهاب . ولا تزال عقاقيرهم الطبية (Materia Medica) تشكل جزءاً مهماً من عقاقير العصر الحاضر . وقد بدأوا في تركيب الأدوية وخطوا في ذلك خطوات جيدة كما تفهموا طبيعة التغيرات الكيماوية واستطاعوا بواسطة ذلك ان يصنعوا الألوان والعطورات والشراب . وقد عرف جراحوهم كيفية استعمال البنج واجروا عمليات جراحية صعبة بأدوات جراحية

(40) **Wilds...** op. cit. p. **216 - 222.**

لا تزال قيد الاستعمال حتى الآن . ودرسوا علم التشريح بالتشريح الفعلي . وحينما كان المرضى في أوروبا يطلبون الشفاء عن ايدي القديسين والأماكن المقدسة كان اطباء العرب في الأندلس وجراحوهم يمارسون فنونهم الطبية العلاجية بكثير من النجاح . وقد عرف العرب أيضاً شيئاً عن الاصول العلمية في تحسين نسل المواشي والخيل ، وفي البستنة والتطعيم لتحسين انواع الفواكه والزهور وخلق انواع جديدة .

وقد عمل العرب الكثير في حقل الكيمياء فاكتشفوا مواد كيميائية جديدة مثل الكحول والبوتاس ونترات الفضة وحامض النيتريك وحامض الكبريت وغير ذلك . وقد استخدموا الكيمياء في نواح عديدة لصنع المعادن والمواد الأخرى وحراثة التربة فنتج عن الأول صناعة المعادن والسيراميك « Ceramics » . وقد اشتغل كثيرون في صناعة استنباط الأشياء النافعة والجميلة من الذهب والفضة والنحاس والبرونز والحديد والفولاذ ، كما اشتغلوا أيضاً في صناعة الزجاج والخزف . ومكنتهم مهارتهم في دقة صنع الفولاذ من اعداد الصفائح الفولاذية المشهورة كصفائح دمشق وطليطله ، ومن صنع الأدوات الدقيقة التي يستعملها الفلكيون والملاحون ، واستخدموا الكيمياء أيضاً في حقل الزراعة فاستخرجوا الأسمدة بطريقة علمية واستخدموا تناوب المحاصيل الزراعية الممتازة .

وبفضل المزج بين الفن والعلم بلغت مهارة العرب الفنية اوجها في فن البناء في اسبانيا ، فالهندسة العربية لم تكن جميلة دقيقة بما تميزت به من النقوش الحجرية والخشبية والقرميد المحبك والمحكم الألوان فحسب ، بل كانت عملية وقوية أيضاً يشهد على ذلك مساجد قرطبة واشبيليا وقصورهما وقصر الحمراء في غرناطة ، وقد كان آخر تحفة معمارية قدمها العرب في القرن الرابع عشر فاكسبتهم الفخر في هذا المضمار ، كل هذه تعتبر من الأمثلة العالمية في روعة الفن المعماري.

ولم يهمل العرب علم الاقتصاد والتجارة فقد باشروا بوضع مبادىء هذا العلم . ولم يكتفوا بالعمل في المختبر وصنع المنتوجات المخبرية والتوصل إلى الحقائق العلمية فقط ، بل كتبوا أيضاً عن مكتشفاتهم ولم يتركوا موضوعاً إلا وكتبوا فيه ، حتى انه وجد في مكتبة احدى الجامعات في احدى المدن العربية ما يزيد على اربعماية الف مجلد كلها كتبها مؤلفون عرب . على ان هذه الكتب لم تكن كلها علمية بل كان منها كتب في الفلسفة ، ولما كان العرب يحبذون فلسفة ارسطو فقد كانت كتاباتهم الفلسفية شروحاً وتعليقات حول الفكر الارسطوطيليسي وفي طليعة هؤلاء المفكرين العرب كان ابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨) الذي كان يدرس في جامعة قرطبة والذي اصبح المفسر الثقة لأرسطو في نظر الجامعات المسيحية في القرون الوسطى حيث ترجمت كتبه واستنسخت .

وسائل التربية :

لقد شجع الخلفاء العرب ، في اسبانيا ، تمشياً على خطة خلفاء الشرق وحكامه ، التربية والمنجزات العلمية بكل وسيلة تمكنوا منها وكانوا ناشطين في انشاء المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات والمكتبات . أما في الشرق فقد كانت بلاطات الخلفاء بمثابة معاهد تعليمية وكانت منذ البداية اعظم وسائل التعليم ، لأن الخلفاء احاطوا أنفسهم بجماعات المتعلمين من نصارى ويهود بالاضافة إلى المسلمين ، وفي أحيان كثيرة اصبح الخلفاء أنفسهم علماء متحمسين . كما شجع الخلفاء انشاء مكتبات كبيرة فجمعوا المخطوطات من كل اطراف المعمورة . لقد رأى هارون الرشيد خليفة بغداد ومعاصر شارلمان ، وهو أول اعظم انصار التعليم ، الحاجة إلى المدارس فأنشأ ، كما درج العرب منذ ظهور الإسلام ، مدرسة ابتدائية ملحقة في كل مسجد ، تعلم القراءة والكتابة والحساب والقرآن الكريم . وقد انتشر هذا النظام من التعليم وعممت هذه المدارس في كل العالم الإسلامي . وكانت ظروف المسلمين تساعدهم لأن يصبحوا انصار العلم والمعرفة فقد كانوا أغنياء ، وبامكانهم أن ينفقوا اموالاً طائلة في سبيل التعليم وقد فعلوا ذلك ، واجروا تجارب دقيقة وصنعوا أدوات باهظة الثمن لتستخدم في سبيل العلم . وقام العلماء برحلات علمية لأماكن بعيدة حيث عادوا بمجموعات ثمينة ونادرة من المخطوطات ليترجموها إلى العربية في البلاط . وهكذا لم يجد العرب ما يعيقهم لا من حيث المال ولا من حيث الوقت – في سعيهم وهضمهم السريع للمعلومات العلمية والفكر الفلسفي .

وقام العرب في الأندلس بمثل ما قام به العرب في الشرق من حيث تخصيص النفقات والثروات الكبيرة لتأسيس الجامعات والمدارس والانفاق على الأساتذة والطلاب ، وأصبحت جامعاتهم في قرطبة واشبيليا وطليطلة وسالامنكا ذات شهرة عالمية . وكانوا يدعون اليها أفضل أساتذة في العالم من مسلمين ونصارى ويهود ، لأن العرب تمسكوا بالروح العلمية فلم يميزوا بين العلماء على أساس الدين ، وقد أوصاهم النبي محمد (ص) بأن يحترموا أهل الكتاب . وكان في جامعة قرطبه ، وهي أعظم الجامعات ، خمس عشرة دائرة مختلفة ، كل دائرة مختصة بحقل معين من حقول المعرفة وكان لها ابنية جميلة مجهزة بأتم المعدات .

أما المكتبات فلم يكن نصيبها من هذه الثروة والكرم بأقل من نصيب الجامعات . فقد أوفد الخلفاء والأمراء رسلهم إلى كل انحاء العالم المعروف آنذاك لجمع المخطوطات ، فكانت نتيجة هذا البحث والجمع ونتيجة نشاط العرب الأدبي تأسيس مكتبات ضخمة تضم كتباً منسوخة بعناية ومجلدة تجليداً فخماً . وكانت هذه الكتب التي لا تحصى ، قيد التداول المستمر ، وبامكان الطلاب الوصول اليها ساعة يشاؤون . وكان لكل جامعة مكتبة خاصة ، كما درجت العادة أن يفتح الأغنياء ابواب مكتباتهم للطلاب .

وكان من الطبيعي أن تجذب هذه التسهيلات التربوية انتباه الأوروبيين الذين شاؤوا أن ينهضوا من الهوة التي وقعت فيها المدارس المسيحية ، ففي الوقت الذي كانت فيه مدارس المسيحيين في أوروبا الشرقية والغربية تضعف وتضمحل كانت مدارس العرب تنمو وتزدهر وتجذب الطلاب التواقين إلى العلم . وكانت الجامعات العربية إنموذجاً لأحسن الجامعات المسيحية التي كانت تنشأ في أوروبا .

تنظيم التربية :

كان نظام التعليم العربي في الأندلس يتكون من ثلاث مراحل : مرحلة التعليم الابتدائي ومرحلة التعليم الثانوي ومرحلة التعليم العالي (الجامعي) . وقد نسج عرب الأندلس على منوال هارون الرشيد حيث تبنوا التعليم الابتدائي ونشروه في كل قرية ومدينة . وكانت هذه المدارس مرتبطة بالمسجد والتعليم فيها مجاني والأبواب مفتوحة للجنسين من كل الطبقات . يدخل الأولاد هذه المدارس في سن الخامسة ، فاذا كانوا من عائلات فقيرة بقوا فيها ثلاث سنوات ثم انتقلوا إلى حرفة أو صناعة .

أما أولاد الأغنياء فلم يتركوا المدرسة قبل سن الرابعة عشرة ثم يلتحقون بعد ذلك بالمدارس الأعلى أو يلتحقون بمرب خاص . وكان منهاج التعليم الابتدائي يضم القراءة والكتابة والحساب والقواعد والدين والجغرافية ونظم الشعر . أماالقرآن الكريم فكان كتاب القراءة الأساسي في هذه المراحل الابتدائية . وقد اتينا في مكان سابق من هذا الفصل على ذكر تنظيم مراحل التعليم ومناهجه بشيء من التفصيل .

أما في الأندلس فكان لتلاميذ الطبقة الغنية مدارس ثانوية تشبه المدارس الثانوية الداخلية القائمة اليوم في انكلترا وأميركا حيث كان التلاميذ يوزعون على ٢٤ أو ٣٠ شقة كل شقة تضم حوالي ٤ تلاميذ ، وكان لهذه المدرسة رئيس يشرف عليها ، أما التعليم فكان يقوم به علماء معدون اعداداً وافياً وتدفع لهم اجور كبيرة ، وكان من بين هؤلاء الأساتذة مسيحيون ويهود ، وكانت هذه المدارس تدرس الأدب العربي والقواعد والرياضيات والفلك وما بعد الطبيعة « ماتافيزيكا » والكيمياء والطب .

أما الجامعات التي نشأت في مدن الأندلس الرئيسية فقد اقام فيها الطلاب والأساتذة ، وكانت تضم دوائر خاصة أو كليات خاصة لكل نوع من مختلف فروع العلم ، فكانت هنالك كليات الطب والمختبرات التابعة لها والمستشفيات المجهزة تجهيزاً تاماً ، كما كانت هنالك كليات الفلك والمراصد التابعة لها المجهزة بالمعدات والآلات الدقيقة الثمينة . وكانت هنالك مدارس أخرى خاصة بالرياضيات والزراعة والموسيقى والملاحة والفيزياء وغير ذلك من فروع المعرفة .

وكانت أبواب هذه الجامعات مفتوحة للجميع على السواء للاغنياء وللفقراء وللوطنيين والأجانب كما وان بعض المؤسسات كانت تقدم المساعدات المالية للطلاب الذين يحتاجونها .

الطرائق :

ان الطرائق التي كانت تستخدم في المدارس الابتدائية كانت في الغالب طريقة السؤال والجواب التي رأيناها في المدارس المسيحية ، على ان العرب لم يحسنوا كثيراً في باب الطريقة المتبعة في التعليم الابتدائي والتي كانت تتبع في بقية البلدان وتقوم على الحفظ والتقليد . أما في المدارس العليا والجامعات فهنا ابدع العرب واظهروا نبوغهم وتفوقهم حيث ابتدعوا طرقاً جديدة . فلجأوا إلى طريقة التجربة والملاحظة في باب العلوم وإلى التنقيب الموضوعي في الحقول التي كانت تروق لهم وهنا نجد منشأ الطريقة العلمية الصحيحة التي تقوم على التجرد والدقة والامانة ، كما نجد المختبرات والعيادات لأول مرة ، ونجد ان الكيمياء والفيزياء والفلك والطب كانت تدرس بالطرق التجريبية لأول مرة ، ولا ريب أنه بفضل هذه الطرق تمّ التوصل إلى اكتشافات كثيرة مهمة .

مراجع الفصل السابع

1. **Perroy, Edward ;** avec : **Auboyer, Jeannine ; Cahen, Claude ; Duby, Georges ; et Mallat, Michel ;** Histoire générale Des Civilisations, Tome III, Le Moyen Age, Traduit par Joseph Dagher, et Farid M. Dagher, Edition Ouedat, - Beyrouth, **1966**.

2. **Fakhry, Majid ;** A History of Islamic Philosophy, pp. **24 - 25**, Columbia University Press, New York & London, **1970**.

3. **Hungerford ;** « The Rise of Arabic Learning », Atlantic Monthly, Vol. **58**, p. **549**.

4. **Totah, Khalil ;** The Contribution of the Arabs to Education, Teachers College Columbia University : Contribitions to Education, Bureau of Publications, New York, **1926**.

5. **Wilds, Elemer Harrison ;** The Foundations of Modern Education, New York, Rinehart & Company Inc. **1950**,

المراجع العربية للفصل السابع

١. ابن بطوطة – القاهرة

٢. ابن جبير –

٣. ابن خلدون : طبعة ثالثة، المطبعة الادبية بيروت (١٩٠٠)

٤. ابن خلدون : المقدمة، المجلد الاول، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت (١٩٦٧)

٥. ابن القفطي : تاريخ الحكماء، طبعة ليبزغ (١٩٠٣)

٦. ابن المقريزي : المجلد الثاني، الخطة، القاهرة (١٩٠٦)

٧. الجاحظ : البيان والتبيين، الجزء الثاني، القاهرة

٨. الخزامي : تخريج الدلالات السمعية، للخزامي

٩. الزرنوجي : « تعليم المتعلمين » القاهرة (١٩١٦)

١٠. زيدان جرجي : تاريخ التمدن الاسلامي، دار الهلال، المجلد الثالث، القاهرة (١٩٢٠)

١١. عبدالدايم، عبدالله : التربية عبر التاريخ، بيروت دار العلم للملايين (١٩٧٣)

١٢. احياء علوم الدين، القاهرة (١٨٩٨) الجزء الاول

١٣. غزوة بدر في كتب السيرة والتاريخ

١٤. نفح الطيب ج ٢

١٥. شلبي، احمد : تاريخ التربية الاسلامية، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت (١٩٥٤)

الفصل الثامن

مراجعـــة عـــامة

بعد ان انهينا المجلد الأول من بحثنا يجدر بنا ان نلقي نظرة على التربية عند مختلف الشعوب التي تمثل سير المدنية من المستوى الحضاري البدائي حتى المستوى الرفيع نسبياً والذي بلغه العرب في حضارتهم . وهذه المراجعة ضرورية قبل ان ننتقل إلى درس الاتجاهات التربوية المعقدة في العصور الحديثة لأن نظرة خاطفة إلى الآراء التربوية المتبدلة عند مختلف الشعوب خلال العصور القديمة والوسطى قد تساعدنا على تفهم الأسس التي قامت عليها النظريات التربوية الحديثة . وهكذا سنعرض فيما يلي مراجعة عامة للمفاهيم التربوية المتبدلة في العصور القديمة والوسطى ، مع تأكيد خاص على العصور التي تم فيها تقدم بارز وعلى النقاط التي ظهرت منها حركات ونظريات جديدة .

عندما ندرس تطور الفكر التربوي منذ بدايته في أشد عهود البربرية البدائية حتى ارفع تطوراته في عهد العرب نرى قبل كل شيء ان التربية هي ، في النهاية «مرآة الحياة» ، فحياة شعب ما — أي طريقة عيشه والأشياء التي يقوم بها يوماً فيوماً والأهداف التي يصبو اليها — هي التي تحدد مثله التربوية العليا . ان تاريخ الفكر التربوي عند شعب ما هو تاريخ الحضارة نفسها . وسيتضح لنا من هذه المراجعة بأنه يستحيل ان نضع حدوداً فاصلة واضحة بين الأمم المختلفة والعهود المختلفة ، فكل عهد يبزغ مما سبقه ويبنى عليه ، وكل جماعة تكيف وتعدل اراء الجماعات الأخرى لكي تسد حاجاتها ، وان مراجعة كهذه من شأنها ان تمكننا من ملاحظة العلاقات المهمة المتواصلة بين المثل التربوية العليا والممارسات التربوية في مختلف العهود عند مختلف الجماعات .

المفاهيم المتبدلة لأهداف التربية

ان أول مهمة واشقها عند درس علم التربية هي تحديد الأهداف التي جالت في رؤوس مختلف الناس عند تأسيس انظمتهم التربوية . وقد رأينا ان هذه الأهداف كانت تراوح بين الرغبة في السلامة والانسجام مع المحيط بواسطة العمل والعبادة عند الشعوب البدائية ، والبحث عن المعرفة العلمية وتطبيق الحقائق العلمية عند العرب .

كان الإنسان ، في حالته البدائية ، مخلوقاً يهزه الخوف ولا يعي إلا شؤونه الهامة المباشرة ؛ وكانت أهدافه التربوية بسيطة تنحصر في كيفية تأمين عيشه وعيش عائلته وكيف يسترضي القوى غير المنظورة . وكانت أفضل طريقة عند الشعوب المتوحشة لتأمين السلامة التكتل في جماعات ، وهكذا كان أحد الأهداف الأساسية للتربية البدائية المحافظة على الجماعة بواسطة الانسجام ، فكان على التربية البدائية ان تجعل الفرد ينسجم ، في العمل والعبادة ، مع عادات القبيلة المقبولة ، وكان هذا هو المثل الأعلى أيضاً لمختلف الحضارات الشرقية الأولى ولكنها طبقته بشيء من التفصيل والنظاميه اكثر من الشعوب البدائية فجميع هذه الشعوب كان هدفها المحافظة على حياتهم القومية في ظروف ثابتة نوعاً ما . وقد حاول الصينيون القيام بذلك بعبادة الأسلاف والهنود بالمحافظة على نظام الطبقات ، والفرس بالنظام العسكري — وكانت حياة الصينيين اعادة للماضي بجميع تفاصيل الحياه اليومية ، وكان المجتمع الهندي يقوم على نظام الطبقات ذي الستار الحديدي الذي لا يستطيع أن يحيد عنه أي فرد ، وكان المجتمع الفارسي يقوم على تنظيم عسكري يكرس فيه نفسه لخدمة الدولة ، وأعدت التربية الصينية الشباب للقيام بالواجب ، وأعدت التربية الهندية كل شخص ليحتل مكانه في هذا العالم ولكي يندمج **بالروح الأزلي الكلي** .

وأعدت التربية المصرية الشباب للقيـــام بواجباتهم اليومية واستثمار اراضيهم وتسخير مياه النيل في سبيل ذلك . وأعدت التربية الفارسية أمة من العسكريين بتلقينهم الفضائل المدنية قبل أي شيء آخر . وحاول اليهود الأولون المحافظة على مجتمعهم وكانوا يؤمنون بمستقبلهم القومي وبأنهم يستطيعون تحقيق ذلك باطاعتهم وصايا الله .

ونجد في التربية اليونانية ، لأول مرة ، التأكيد على ضرورة تربية الفرد لصالحه ولصالح الجماعة في الوقت نفسه . وقد استهدف اليونان الأول في العهد الهومري تقدم الفرد والنفع

العام . فادرك هومر ان المجتمع الصالح يتوقف على تنشئة أفراد سعداء واكفاء وكانت مثله العليا « رجل العمل » و « رجل الحكمة » أول تعبير عن الرجل الأمثل وليس عن الدولة أو المجتمع الأمثل . وقد رجع السبرطيون إلى المثل الفارسي في تنشئة الفرد واستخدام قدراته في سبيل نفع الدولة وخدمتها اثناء الحرب – أما هدف الاثينيين الأول فقد كان تنمية جميع جوانب شخصية الفرد التي تؤول إلى الخير العام ، وأما في العهد الاثيني الأخير فقد انقلب هذا الهدف الفردي إلى مراعاة التقدم الشخصي الصرف وقد اكد السفسطائيون على فلسفة فردية انانية لا يهمها صالح الجماعة ، فاصبح هدف التربية تقدم الفرد لأجل نجاحه الشخصي .

وقد حاول سقراط وافلاطون وارسطو تربية الشعب على تحقيق هدف وسط بين الفردية الأنانية والمصلحة الاجتماعية ولكنهم لم ينجحوا بذلك – وهكذا نجد ان الصراع بين المطالبة بحرية الفرد والاستقرار الجماعي قد بدأ عند اليونان ولا يزال مستمراً حتى يومنا الحاضر .

كان هدف الرومان في أول عهدهم ، تأمين العدالة للفرد والقوة للدولة ، كان هدفا نفعياً بحتاً ، وكان المواطن الصالح (Vir Bonus) مَثَلَهم الأعلى – اما في عهد التربية الرومانية الأخير فقد كان التأكيد ، في أفضل الحالات ، على تنمية الفرد لخدمة الدولة ، وفي اسوئها ، على تنمية التصنع وحب الظهور الشخصي . وكانت فضائل « الخطيب » وهو المثل الأعلى « الروماني » تشبه بعض الشيء المثل الأعلى اليوناني « رجل الحكمة » كما يشبه المثل الأعلى الروماني للمواطن الجيد المثل الأعلى اليوناني « لرجل العمل » .

ونشأت مفاهيم جديدة لقيمة الفرد وللنظام الاجتماعي بمجيء المسيحية . لقد استهدف يسوع تنمية الفرد تنمية تؤدي إلى خير الجميع ، لقد استهدف كفاءة اجتماعية تكون فيها النزعة الإنسانية والمحبة الأخوية مبعثين لنظام اجتماعي أمثل . وقد حاول المسيحيون الأول ، الذين اساءوا فهم تعاليم المسيح ، تجديد الفرد خلقياً بالتهرب من « العالم والجسد والشيطان » فجاءت أهداف القرون الوسطى الأولى نتيجة لهذا المثل الأعلى للمسيحية الأولى : فكان تعذيب الجسد ونكران العالم ونبذه لخلاص النفس هو الهدف الوحيد . أما الحركة المدرسية فكان السبب الوحيد لوجودها التوفيق بين العقيدة المسيحية والعقل ، لذلك بنت تربيتها على أساس دعم معتقدات الكنيسة بالحجج العقلانية . أما هدف التربية الفروسية فكان جعل الإنسان ينصرف باخلاص إلى خدمة الله والملك والسيدة ، وبعبارة أخرى كان هدفها المحافظة على الممارسات الاجتماعية والدينية وانشاء الأمانة والولاء للحاكم .

أما نظام النقابات في القرون الوسطى فكان هدفه عملياً اكثر من هدف الفروسية ، كان هدفه اعداد المرء للاشتراك في النشاط التجاري والصناعي . ويبدو ان العرب كانوا الأقرب في البحث عن الأهداف نفسها التي يبحث عنها العالم الحديث اليوم ، فقد فتشوا عن المعرفة العلمية وعن كيفية تطبيقها لكي يجعلوا الحياة على وجه الاجمال اكثر رفاهية للفرد واكثر قيمة

بالنسبة اليه . لم يكن غرض العرب النهائي من التربية دينياً واجتماعياً واخلاقياً بقدر ما كان لجعل الحياة أفضل وأنفع وأسهل .

المفاهيم المتبدلة لنوع التربية

لقد فكرت الشعوب المختلفة ، في أزمنة مختلفة ، بأنواع متعددة من التربية التي تستطيع ان تحقق اهدافها بواسطتها . وحتى عند الشعوب المتوحشة نجد النوعين العامين من التربية اللذين نجدهما عند جميع الشعوب وهما : (١) التربية بالنسبة إلى المنظور أو التربية العملية . و (٢) التربية بالنسبة إلى غير المنظور أو التربية النظرية . لقد وجدت التربية العملية منذ بدء المجتمع لأن الفرد لا يستطيع أن ينمو دون أن يكيف نفسه وفقاً لمحيطه ويتعلم ان يفعل ما يفعله الراشدون وقد دُرب الطفل البدائي على هذه الممارسات العملية ، فنشأ فوراً نوع من التربية النظرية إلى جانب هذه التربية العملية وكانت جذور هذه التربية النظرية ممتدة إلى الخرافات الدينية ومحصورة عادة في الكهنة ورجال الطب ، وقد مهد ، هذا النوع من التربية ، السبيل إلى كل الأنواع الأخرى الفنية والموسيقية والأدبية والطبية .

كان نوع التربية في الحضارة الشرقية الأولى منسجماً مع مثلهم العليا في المحافظة على التقاليد والاستقرار الاجتماعي . فقد اكد الصينيون والهنود التربية الاجتماعية الاخلاقية (وتشير لفظة اخلاقي هنا إلى الانسجام مع العادة) واكد الفرس التدريب العسكري والبدني .

أما التربية المهنية عند هذه الشعوب فكانت محصورة فقط بالطبقة الدنيا التي كانت الطبقة الوحيدة للقيام بالأعمال اليدوية . وكانت التربية الدينية والاخلاقية والمدنية عند اليهود واحدة لأن دينهم وواجباتهم نحو الدولة وحياتهم العائلية كانت متشابكة . اما التربيةالمصرية فكانت في المقام الأول تربية عملية . وتضمنت التربية اليونانية في عهد هومر تربية عملية وتربية اجتماعية كما تناولت التدريب في الشؤون المنزلية للنساء والفنون والمهارات العسكرية للفتيان . أما السبارطيون فقد ركزوا اهتمامهم على الشؤون الجسدية والعسكرية واهملوا كل شيء آخر . واهتم الاثينيون الأول بالتربية المدنية والتدريب البدني من أجل جمال الجسم ولم يهتموا إلا قليلاً بالتربية الفكرية ، أما في العهد الاثيني الأخير فقد بلغت التربية الفكرية اسمى مراتبها ، لا بل بلغت مرتبة في بعض الاعتبارات لم يجارها فيها أحد ، ولأول مرة في التاريخ ادخلت التربية الفنية وتضمنت الفن والموسيقى والأدب ودرست من اجل المتعة التي ينالها منها الإنسان . أما عند الرومان الأول العمليين فكانت التربية مدنية واخلاقية تتضمن التربية البدنية والعسكرية

والمهنية كجزء منها . وقد طرأ بعض التبديل في أيام روما الأخيرة ، بحيث اصبحت التربية اكثر فكرية وعملية أيضاً لأن التمرين على النطق كان يمثل المقام الأول وكان ذلك بمثابة التربية المدنية .

وقد نشأ بعد مجيء يسوع نوع من التربية الاجتماعية والأدبية والدينية من أسمى الأنواع وأصدقها . وكانت التربية الاجتماعية والاخلاقية واحدة بنظر يسوع . كما كانت التربية بطبيعة تعليم يسوع عامة وديمقراطية ، وعند تأسيس الكنيسة الأولى لم يؤخذ بعين الاعتبار إلا نوعان من التربية : التربية الاخلاقية والتربية الدينية ، وعندما ادخلت التربية الفكرية فيما بعد ، كانت دائماً خاضعة لهذين النوعين ، وفي عهد مدارس الرهبان كان التأكيد على نوعين من التربية ، التربية اليدوية والتربية الأدبية ، ولكنهما كان ينظر اليهما كناحيتين من التربية الاخلاقية والدينية. وقد اكسب تأكيد مدارس الرهبنة ، على العمل اليدوي ، منزلة محترمة للعمل لم يسبق ان تمتع بمثلها من قبل . أما التربية في عهد الحركة المدرسية فقد اكتفت بالنواحي الفكرية والدينية ، بينما كانت التربية في عهد الفروسية اجتماعية وعسكرية ودينية وأدبية ، ولكن التربية في عهد الفروسية كانت ارستقراطية بحتة — وقد اعطى نظام النقابات الى التربية اثراً غريباً في بابه اذ تطلب هذا النظام تربية تعد لحياة صناعية وفي الوقت نفسه لا تكون هذه التربية صناعية . وقد تطلب هذا النظام تعليماً في مبادئ القراءة والكتابة والحساب كما وان التعليم الديني لم يهمل لان خلاص النفس كان دوماً من اكبر مهام الحياة . ونجد عند العرب نظاماً يختلف بكل معنى الكلمة عن الانظمة التي سادت قبلهم ، فقد اصبحت التربية الفكرية في العلوم اساس التعليم المهني من اجل المهن ومن اجل الحرف التجارية والصناعية ، كما اصبحت التربية عامة ، وكانت المدارس الابتدائية مجانية للجميع كما كانت تعطى مساعدة مالية للتلاميـــذ الفقراء ، اذا ما احتاجوا ذلك لمتابعة دراستهم في المعاهد العليا .

المفاهيم المتبدلة في منهج التربية

يتوقف منهج التربية عند اي شعب ، على أمرين : اولاً : ما هو مقدار معرفتهم وثانياً : ماذا يعتبرون من هذه المعرفة مناسباً لأغراضهم ؟ فهنالك حالات كثيرة كان بامكان منهاج التربية ان يشمل اكثر مما شمل ، ولكن القادة اهملوا عمداً الكثير من المعارف لانها لا تلائم اغراضهم . مثال ذلك الشعوب المحافظة التي تحاول الاحتفاظ بالحالة القائمة او بالأمر الواقع ، عن طريق قمع كل العقائد الخطيرة ، وتشمل أمثلة ذلك الصينيين والهنود واليهود واليونان الأول وكذلك الرومان الأول والكنيسة في القرون الوسطى . كان منهاج التربية البدائية بسيطاً جداً

بحيث يشمل الواجبات العملية التي تسد الحاجات الجسدية ويشمل الاحتفالات لاسترضاء الارواح . اما الشرقيون فقد علموا العلاقات الاساسية بين اعضاء المجتمع بعضهم ببعض ، كما فعل كونفوشيوس ، فعدد العلاقات الاساسية الخمس التي تحمل على استقرار المجتمع . وكان منهاج التربية الهندية يحتوي في الاساس على الآراء والمراسم الدينية ، والفضائل السلبية وقليل من المعلومات النظرية . اما منهاج التربية الفارسية فيتألف من التمارين الجسدية وتلقين الفضائل كالعدالة والشجاعة والامانة والطهارة والاجتهاد . وكان منهاج التربية المصرية يتضمن الوصايا الادبية ، والفلسفة العملية ، والعادات الاخلاقية الجيدة . واتقان فن الكتابة . وكان منهاج التربية عند اليهود دينياً ويشتمل على التوراة والتلمود والتاريخ العبري .

كان مضمون التربية اليونانية في عهد هومر اكثر تنوعاً من اي تربية سبقتها ، فقد ادخلوا تعليم الحرف الى الجميع باستثناء ابناء النبلاء واتبعوا طريقة النقاش الجماعي في معظم تعليمهم ، كما اشتمل منهاجهم على الرقص والغناء ورواية القصص . وقد أكد اهل اسبارطه ، كما فعل الفرس ، التربية العسكرية وبنوا المنهاج حولها ، وعلموا الرقص والموسيقى ولكن لأجل الوصول الى القوة والخفة في الحرب — وعلم الاثينيون الأوّل مبادئ القراءة والكتابة والحساب والمهارة العسكرية لكي يحققوا هدفهم في تنشئة « رجل الحكمة » و « رجل العمل » . وقد غيّر خلفاؤهم كثيراً في منهاج التربية وحولوه الى تربية فكرية وادبية وادخلوا القواعد وعلم البلاغة والفلسفة . وكان أول من اهتم بصورة جدية بمضمون الدروس الفلاسفة اليونان العظام . لقد رفض سقراط العلوم لانه اعتقد انه لا يمكن اكتشاف نواميس الطبيعة ، وانه حتى اذا امكن اكتشافها فانها لا تستخدم الا قليلاً في حياة الانسان ، واعتقد سقراط ان اهم درس هو درس الانسان نفسه . وافضل ما قدمه « اكسنوفون » « Xenophon » الى منهاج التربية كان تعليم الفتيات شؤون تدبير المنزل بدرس كامل واف لاعدادهن للحياة البيتية . وقد اكد افلاطون بأن الفلسفة والادب هما اهم المواضيع ، وكان منهاجه مهنياً وحتى الفلسفة كانت تدرس لتكون بمثابة مرشد للطبقة الحاكمة . وقد اضاف ارسطو الى المنهاج حقل العلوم بكامله وكان يرى ان المعرفة هي مرشدة للسلوك واعتقد ان المعرفة المعينة الثابتة هي اساس كل المعرفة الحقيقية .

وكان منهاج الرومان الاول مكوناً من الخرافات والتقاليد والحفلات والمهارات الحرفية والعسكرية وقوانين الالواح الاثني عشر . ثم ادخلوا فيما بعد المواضيع الفكرية كالقواعد والبلاغة التي استمدوها من اليونان . وعندما نشأ مفهومهم عن الخطيب كالرجل الأمثل ادخلوا في منهاجهم الموسيقى كمساعد لحسن النطق .

وقد علم يسوع مبادئ العلاقات الانسانية — المبادئ وليس التفاصيل — وقد حصر المسيحيون تعاليمهم بالعناصر البسيطة في العقيدة الكنسية والمراسم الكنسية التي تؤدي الى المعمودية وجعلوا منهاجهم التربوي متكوناً من العقائد والمعتقدات . وكان يضم احياناً القواعد والادب والبلاغة

والفلسفة كأداة لدرس الكتاب المقدس وسار منهاج التربية في القرون الوسطى على هذا المنوال ايضاً فقد علمت مدارس الرهبان « الفنون السبعة الحرة » التي اقتبسوها من الاثينيين والرومان . وكانت تتكون هذه الفنون السبع من الثلاثي (الثلاثيات) — القواعد والبلاغة والخطابة — والرباعي (الرباعيات) — الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وعلمت الحركة المدرسية اللاهوت والفلسفة الدينية وقسمت المنهاج التربوي الى مدارس او مذاهب فكرية كالواقعية ومذهب الاسمية (Nominalism) ومذهب فلسفة المعاني . ونجد في جامعات العصور الوسطى مبادىء الفن والقانون والطب . اما مضمون التربية عند الفروسية فكان كل ما يحتاجه الفارس وهو التدريب على شؤون آداب المعاشرة ، والصحة والمهارة العسكرية وما كان يسمى « بالفنون السبعة الحرة» ، اي لعب الجريد والصيد بالباز والسباحة وركوب الخيل والملاكمة والشطرنج وقرض الشعر . وضم منهاج الفروسية أشياء نافعة كالقراءة والكتابة والحساب والتجارة والدين . ويمكننا ان نقول بايجاز ان منهاج التربية عند العرب كان يضم شيئاً ولو ضئيلاً من كل شيء يضمه منهاج التعليم اليوم باستثناء علم النفس وبعض العلوم الاجتماعية الحديثة .

المفاهيم المتبدلة في وسائل التربية

اخذت وسائل التربية تتعقّد شيئاً فشيئاً كلما انتقل الانسان من المجتمع البسيط الى مراحل الحضارة المتقدمة . فالانسان البدائي تلقى تربيته أولاً من محيطه ، من الطبيعة ، ثم من العائلة وهي اول وسيلة اجتماعية ، ثم من رؤوساء القبيلة واخيراً من الاختصاصيين في شؤون الدين وفي الميادين العملية . وكان لهذا التخصص التأثير الاول في تأسيس أقدم المدارس . واستخدمت الأمم الشرقية العائلة والمدارس الخاصة كوسائل للتعليم ، ونظم الصينيون المدارس واقاموا نظاماً للامتحانات العامة لكي يحافظوا على حكمة الاباء . وانتدب للتعليم في هذه المدارس المرشحون الفاشلون في الحصول على الوظائف العامة بسبب رسوبهم في الامتحانات الصارمة التي كانت تعد لمثل هذه الغاية . وكانت وسائل التعليم عند الهنود شبيهة جداً بوسائل التعليم عند الصينيين . ونظم الفرس مدارس البلاط باشراف الدولة كما أقامت الدولة معسكرات للتدريب العسكري للبنين . وكانت المدارس عند المصريين مرتبطة بدوائر الحكومة ويقوم بالتعليم فيها كبار الموظفين .

اما عند اليهود فكانت العائلة أهم مؤسسة للتعليم كما كانت الحال عند كل الشعوب القديمة . وكان لليهود ايضاً معلمون عالمون مدربون في مدارس خاصة — كان هؤلاء هم «الكتبة» الذين تابعوا دراستهم في « مدارس الانبياء » و « بيوت التعليم » . ثم ألحق اليهود فيما بعد مدارسهم بالكنيس واقاموا مدارس ابتدائية في القرى .

واما عند اليونان فكانت العائلة ومجالس النبلاء أقدم مؤسسات التعليم . ففي اسبارطه أقاموا، نظراً لأهدافهم العسكرية، معسكرات تحت رقابة الدولة ومدارس عسكرية لتدريب الجنود . اما الاثينيون الأوّل فقد اقاموا نظام المعلمين الخصوصيين والمدربين الرسميين وكان دور العائلة أقل بكثير مما كان عليه عند الشعوب التي سبقتهم . وأهم مؤسسة في التربية الاثينية كانت الاشتراك في الشؤون العامة وحياة المدينة العامة . وأسس الاثينيون في العهد الاخير نوعين من المدارس الابتدائية « مدرسة الموسيقى » ومدرسة « باليسترا » (Palaestra) أي مدرسة الرياضة. كما استخدموا السفسطائيين الذين أسسوا مدارس البلاغة . وكان لدمج مدارس البلاغة ومدارس الفلسفة في مراكز التعليم العظيمة أثر عظيم في إيجاد مؤسسات تشبه ما سمي فيما بعد بالجامعة .

كانت المؤسسات التربوية الرومانية الاولى : العائلة والمعسكر والمزرعة والمعمل أي كل الوسائل العملية لكسب التربية العملية — ثم أسس الرومان، بفضل نفوذ اليونان، اول نظام تعليمي متقن يشمل المدارس الابتدائية والثانوية والعالية .

واما يسوع المعلم الاول ، فقد مجد بمثاله هذا ، المعلم وجعله أهم مؤسسة تربوية ، لم يهتم كثيراً بالمدارس كمكان فالمدرسة بنظره هي اي مكان يمكن ان يتم فيه التعليم . على ان البيت كان بنظر المسيحيين الأوّل وسيلة مهمة من وسائل التربية . وعندما اصبحت الكنيسة مؤسسة منظمة أصبحنا نجد مدارس كثيرة ملحقة بالكنيسة (١) مدارس الموعوظين Cateehumenal التي تعلم الموعوظين (المتنصرين) واولاد المؤمنين، العقيدة المسيحية والمراسم الدينية(٢) ومدارس العلمانيين Catechetical التي تعلم القـــادة العلمانيين عنـــاصر اللاهوت المسيحي وبعض العلوم الاخرى(٣) ومدارس الكاتدرائية التي تعد الكهنة لمهام الكهنوت والواجبات الدينية . وقد أنشئت المدارس في الاديرة في القرون الوسطى لتعليم الداخليين والخارجيين اي الذين كانوا ينوون تكريس حياتهم لخدمة الكنيسة والذين كانوا يأتون لتلقي العلوم فقط . وكان لرجال التعليم بالاضافة الى عملهم التعليمي ، فضل كبير في تنشئة الجامعات العظيمة في القرون الوسطى . اما وسائل التعليم عند الفروسية فكانت البيت والقلعة والشعراء المغنون المتجولون . وانشئت في عهد نظام النقابات مدارس ابتدائية للانشاد وكان يعلم فيها الكهنة ، كما أنشئت مدارس شعبية في المدن ثم مدارس النقابات التي كانت تنفق عليها النقابة وتعلم اولاد اعضائها .

اما المؤسسات التربوية عند العرب ومناهج التعليم عندهم فتذكرنا لحد بعيد بمؤسسات التربية ومناهجها في العالم اليوم . فقد قام بين العرب اغنياء احتضنوا التعليم وشجعوا انشاء مدارس ابتدائية وثانوية وجامعات وأسسوا مكتبات عظيمة ومختبرات . وقد بلغ العرب من رحابة الصدر وعدم التعصب في سبيل العلم ان استخدموا المعلمين الممتازين بصرف النظر عن ديانتهم .

وهكذا نرى انه في العصور القديمة والوسطى كانت متوافرة ، معظم المؤسسات التربوية التي نألفها اليوم .

المفاهيم المتبدلة في التنظيم

زاد تنظيم التربية في التعقيد بزيادة تعقيد اهدافها ومضمونها — لم يكن للتربية البدائية اي تنظيم — واذا صح ان نقول بأنه كان للشعوب المتوحشة تنظيم فكان ذلك بالفصل بين الطفولة والبلوغ بحفلة التكريس التي تتم عند السماح للشباب بالدخول ال مرحلة الرجولة . لقد نظمت التربية في الحضارات القديمة على ثلاث مراحل هي المراحل المعروفة اليوم . وقد تم التعليم في المرحلة الابتدائية عند الصينيين في البيت او المدارس التي تلحق بالهيكل او في ابنية قديمة حيث كان يتم تعليم الكتب المقدسة والكتابة . وفي نهاية التعليم العالي كانت تجري امتحانات على ثلاث مراحل لاعداد موظفي الدولة . وقد بدأ التعليم عند الهنود في البيت ايضاً — وكذلك كان الحال في التعليم الابتدائي عند الفرس اما بعد السن السابعة وحتى الخامسة عشرة فكان ابناء الفرس يذهبون الى البلاط . وبين الخامسة عشرة والعشرين ينالون تدريباً عسكرياً في المعسكرات التي تشرف عليها الدولة، أما بين العشرين والثلاثين فكانوا يقومون بالخدمة العسكرية وفي الثلاثين يتزوجون ويصبحون اعضاء في المجلس ويباشرون القيام بواجباتهم بتعليم الآخرين . اما عند المصريين فكان الولد يقضي السنوات الاربع من حياته بين العابه وبعهدة أبيه، هذا نظرياً ، أما في الواقع فانه يلتحق بالمدارس المرتبطة بالبلاط حيث يدرس مع اولاد الملوك والامراء .

اما عند اليهود فيدرس الاولاد في البيت حتى السن السادسة وبين السادسة والعاشرة يذهبون الى المدرسة لدرس اسفار موسى الخمسة ، وبين العاشرة والخامسة عشرة يدرسون «المشنا» « Mishna» أي كتاب التعاليم التقليدية عند اليهود . اما اليونان فلم يكن لهم في عهد هومر تنظيم رسمي ، — وكان تنظيم التربية في اسبارطه شبيهاً بالتنظيم الفارسي اذ كان يقضي الولد من السن الواحدة حتى السابعة في البيت ومن السابعة حتى الثامنة عشرة في المعسكرات ومن الثامنة عشرة حتى العشرين في التدريب على الحرب كمهنة ، وفي سن العشرين يقسم يمين الولاء الى الدولة . اما بين العشرين والثلاثين فكان يقوم بخدمة الجيش ، وفي الثلاثين يتزوج ويقوم بواجباته كمواطن . وكان للاثينيين الأوَل نظام جيد ، فبعد ان يدرس الولد حتى السابعة على يدي المربي (العبد) « بيداغوغ » « Pedagoque » يذهب الى مدرسة « باليسترا » « Paleastra » « أي مدرسة الرياضة » ومدرسة الموسيقى ، ومن سن السادسة عشرة حتى الثامنة عشرة يذهب الى « الجمنازيوم » المدرسة الثانوية العامة ، وفي الثامنة عشرة يقسم يمين الولاء ثم يقوم بالخدمة العسكرية لمدة سنتين ، وفي العشرين يصبح مواطناً كامل الحقوق — اما في العهد الاثيني الاخير

فقد حذف التدريب العسكري ، وفي الفترة الواقعة بين السابعة والثالثة عشرة ذهب الاولاد الى مدارس ابتدائية خاصة ، ومن الثالثة عشرة حتى السادسة عشرة الى المدارس الثانوية ، وبعد السادسة عشرة الى مدارس الفلسفة والبلاغة .

أما الرومان القدامى فكان لهم قليل من التنظيم في مدارسهم . ففي سن السادسة عشرة يتشح الشاب بشماله الشجاعة (Toga Virilis) « وهو وشاح يشتمل به الرومان » . وعندما ادخل التأثير اليوناني فيما بعد نشأت المدارس وكانت النتيجة نشوء نظام للمدارس يتكون من ثلاث مراحل . ففي سن السابعة يدخل الولد الروماني المدرسة الابتدائية (Litterator) ، حيث يبقى إلى العاشرة ، ويدرس من العاشرة حتى السادسة عشرة في مدارس القواعد (Grammaticus) أي المدارس الثانوية ، ومن السادسة عشرة حتى الثامنة عشرة يدخل مدرسة البلاغة .

لم يكن لتعليم السيد المسيح تنظيم خاص ، أما بعد ان أسست الكنيسة ونظمت فقد وجدت المدارس الابتدائية « مدارس الموعوظين » والمدارس الثانوية ومدارس الكاتدرائية للتعليم العالي . أما في مدارس الرهبنة فيدخل الولد في السن العاشرة ويقسم يمين التكريس في سن الثامنة عشرة . وكان التنظيم في جامعات القرون الوسطى غير محكم في البداية . فكان للجامعة مجلس يرئسه رئيس الجامعة وكانت الجامعة تقسم إلى كليات ولكل كلية عميد . أما الطلاب فكانوا ينظمون في ثلاثة مستويات ، الطلاب في مرحلة ما قبل التخرج (Undergraduate) وفي مرحلة التخرج بالشهادة الجامعية ، ثم مرحلة ما بعد التخرج أي مرحلة دراسة ما يعادل دبلوم الشهادات العليا أو الدكتوراه .

لقد رأينا في مدارس الفروسية ان الولد يصبح في السابعة خادماً (Page) ويصبح في الرابعة عشرة وصيفاً (Squire) أما في الواحدة والعشرين فيصبح فارساً ، وقد كان لمدارس نظام النقابات ثلاثة مستويات : « المبتدىء » (Apprentice) المتدرب على صنعة ، « والمتنقل » أو المياوم أي (Journeyman) ، و« المعلم » أو السيد والأستاذ (Master) . أما العرب فقد نظموا المدارس الابتدائية المجانية والمفتوحة للجميع من سن الخامسة حتى الثامنة والمدارس الثانوية الخاصة لأولاد الأغنياء من الثامنة حتى الرابعة عشرة ، والجامعات يدخلها الطلاب بعد الرابعة عشرة .

المفاهيم المتبدلة حول الطريقة

لقد تحسنت طرق التدريس تحسناً كبيراً بتقدم الحضارة . فقد اعتمدت الشعوب البدائية على التعلم الذاتي ، وعلى طريقة التقليد الواعي وغير الواعي وعلى طريقة التجربة والخطأ .

واستخدم الصينيون التقليد والحفظ تحت تأثير الانضباط الصارم . واستخدم الهنود هذه الطرق نفسها مع تخفيف الانضباط . وقد استخدم الفرس طرائق الملاحظة والتقليد والمشاركة والتتلمذ والقدوة واتبعوا أيضاً ، في جميع هذه الطرق ، الانضباط الشديد. واستخدم المصريون طريقة الرسائل والمراسلات بين المعلم والتلميذ حيث كان التلميذ يتلقن من هذه الرسائل الحكمة ويتعلم طريقة الكتابة الصحيحة . وقد استخدم اليهود الاملاء والتحفيظ في المدارس الابتدائية والعرض والجدل في المدارس الثانوية والتتلمذ في المهن ، وكان الانضباط شديداً مع نزعة نحو اللطف .

وقد استخدم اليونان في عهد هومر القدوة والتقليد والمشاركة الفعلية ، أما في اسبارطه فقد كانت الطريقة المتبعة هي التدريب وليس التعليم ، فاستخدموا طريقة الفعالية والمنافسة والإمتحانات الفصلية وسيطر على جميع هذه الطرائق انضباط قاس وشديد وعنيف . اما الاثينيون الأول فقد استعملوا طريقة التقليد والقدوة والمشاركة الفعلية والمنافسة وكان الانضباط شديداً ، واستعمل الاثينيون في العهد الأخير طريقة المحاضرة وطريقة الجدل المنطقي والحوار (Dialectic) وكان الانضباط معتدلاً . أما الرومان القدامى فقد استعملوا طريقة التقليد المباشر للنماذج الحية كدرس السيرة والتقليد والتحفيظ وكان الانضباط بالغاً في الشدة ، واستعمل الرومان في عهدهم الأخير التحفيظ والتقليد والتدريب على المهارات الفكرية والنطق والالقاء والرغبة الفردية وكان الانضباط معتدلاً . وقد استعمل المسيحيون الأول طريقة المثال أو القدوة والعرض الفوري والحفز والمنطق والتحفيظ . واستعملت مدارس الرهبنات طريقة المنطق والاملاء والتأمل والتفكير ، وكان الانضباط شديداً جداً . أما الحركة المدرسية والجامعات فقد استعملت طريقة المحاضرة والنقاش والجدل والتحليل المنطقي والتفكير القياسي ، وكان الانضباط قليلاً في الجامعات . أما الفروسية فقد استعملت طريقة المثال والممارسة وكان الانضباط يقوم على المثل العليا — واستعملت مدارس النقابات المثال والتقليد والممارسة وكان الانضباط شديداً . اما العرب فقد استخدموا طريقة التفكير القياسي والتحفيظ في المرحلة الابتدائية وطريقتي الملاحظة والتجربة في المرحلة العالية .

اضواء على التربية القديمة

والتربية في العصور الوسطى

نجد بعض التطورات في التربية القديمة والتربية في القرون الوسطى التي يجب ان نعيرها اهتماماً خاصاً . لقد رأينا ان التربية في جميع العصور حاولت أن تحافظ على المجتمع أولاً ،

وعندما يستقر المجتمع تماماً عندئذ فقط تراعى مصلحة الفرد . وقد رأينا أيضاً انه لا التربية العملية كلياً ولا التربية النظرية كلياً ،تفي بالمرام – ولنا مثالان على ذلك من التربية في اسبارطه والتربية في الحركة المدرسية حيث اكدت الأولى الناحية العملية الكلية بينما اكدت الثانية الناحية النظرية الكلية – وقد تميز اليونان في ادخال مبدأ التقدم والتكيف للتخلص من التقليد والجمود . أما الرومان فقد أعطوا العالم النظام والتنظيم ولكنهم لم يقدموا كثيراً في حقل الفكر الخلاق . وكانت التربية في القرون الوسطى شبيهة جداً بالتربية الشرقية من حيث عدم التقدم ، وتميز الرهبان بمحافظتهم على الأدب الكلاسيكي وابقاء شعلة العلم مضيئة ، كما تميز اصحاب الحركة المدرسية بتأسيسهم الجامعات ، وما اعطاه الفرسان والشعراء المغنون من الأدب الرفيع ، وما نظمته حركة النقابات في وضع اسس النظام التجاري كل ذلك يستحق شكرنا – وبالفعل لم تكن القرون الوسطى مظلمة بقدر ما نتصورها احياناً . فالعرب اقتربوا كثيراً من منجزات العصر الحاضر بمنجزاتهم ومثلهم التربوية من جميع الاعتبارات . وكان لهم الفضل الكبير في اعطاء الشعلة إلى أوروبا (المظلمة) واعادة النور اليها .